

جولان حاجي

إلى أن قامت الحرب

نساء في الثورة السورية



جولان حاجي

إلى أن قامت الحرب

نساء في الثورة السورية





Until the war

Women in the Syrian Revolution

By: Golan Haji

First Published in September 2016

BEIRUT — LEBANON

elrayyes@sodetel.net.lb

www.elrayyesbooks.com

ISBN: 978-9953-21-623-2

الطبعة الأولى: أيلول (سبتمبر) ٢٠١٦

لوحة الغلاف للفنان العراقي عمار داود، عنوانها:
أحداث مفاجئة في الساعات الأخيرة من النهار، ٢٠١٠

تصميم الغلاف والإخراج الفني: آرتيستو — علي الحاج حسن

«استيقظت» منظمة نسوية سورية تروي قصصاً حقيقية من وجهة نظر نساء في المجتمع السوري، وكيف تتبدّى الحياة عند النساء والرجال لدى التركيز على الجسد والجنس والجنسانية، وكيف تعمل أفكار أو مفاهيم معينة، مرتبطة بهذه المفردات الثلاث، على تكوين مجتمعاتنا والتحكم بحياة الجميع.

إننا، في «استيقظت»، نروي كيف تدرك النساء أنفسهنّ بوصفهنّ نساء، وكيف يختبرن هذا الإدراك؛ والصراعات التي يخضنها لكي يكنّ أنفسهنّ في مجتمع يعتبر المرأة كائناً ثانوياً هامشي الدور مقصى إلى محيط دائرة مركزها الرجل.

نأمل أن يكون عملنا هذا فعلَ تضامن وتعبيراً عن الاحترام والإعجاب بالكثير من النساء اللواتي يسعين ليكتشفن أو يصِرْنَ ما هنّ راغبات فيه: نساء بالكامل.

Facebook page: www.facebook.com/estayqazat

YouTube channel: Estayqazat

المحتويات

مقدمة

الدراجة والبندقية

تروي نساء سوريات في هذا الكتاب شهاداتهن التي تمتد من بداية الثورة السورية في منتصف آذار ٢٠١١ حتى انقلابها حرباً ليس لبدئها تاريخٌ متفق عليه، حيث أجرت منظمة «استيقظت» ستين مقابلة بين ربيع ٢٠١١ وربيع ٢٠١٣، مع ستين سيدة اختيرت من بينها سبع عشرة مقابلة، ثم أعيدت كتابة أجوبتهن وشهاداتهن، كل شخصية على حدة في مقاطع طويلة. أُجْرِيَ قسم كبير من هذه المقابلات في دمشق وريف دمشق، إضافة إلى مقابلات أخرى خارج سورية. محدودية الأمكنة المشمولة دلالة أخرى على سورية المتروكة المهملة، فمعظم السوريين، والمحاوِرات بينهم، عاشوا في الواقع انعزالاً جغرافياً داخل المناطق التي نشأوا فيها، ولعل هذا هو السبب في ضعف الأواصر التي تجمعهم بالمقيمين خارج مناطقهم، رجالاً كانوا أو نساء.

سبب الاكتفاء بسبع عشرة مقابلة هو التجارب المتشابهة التي مرّت بها المحاوَرات، وتكاد بعض قصصهن تتطابق على الرغم من تباين الأمكنة التي دارت فيها، بغض النظر عن غنى هذه التجارب بالتفاصيل والمعلومات وفرادتها بالنسبة إلى كل امرأة خاضت تلك التجارب، وبغض النظر عن الأهمية الكبرى التي تتسم بها مثل هذه التجربة العامة وضرورتها في الوصول إلى فهم جمعي جديد لسورية.

للشهادات التي تنحدر صاحباتها من ريف سورية أو يقمن فيه، حضورٌ كبير في الكتاب، ولعل بإمكاننا أن نعزو ذلك إلى سمة الالتصاق بالمكان، وهي سمة تحمل أكثر من وجه. فمن جهة تشير إلى أن المحاوَرات في المناطق الريفية كنَّ في الميدان الفعلي للمظاهرات ومَقْتلات النظام الأولى، وتشير من جهة أخرى إلى اجتراح النساء لنماذج جديدة في السلوك والتصرفات أتت بمثابة استجابة لمتطلبات الأوضاع الجديدة واحتمالاتها. إن التحولات ملموسة ومحسوسة داخل بيئتها المحلية في المناطق المنتفضة، وأفسحت مجالاً معيناً لسلوك اجتماعي جديد أسفرت عنه الثورة، والأرجح أن هذه التحولات تتجلّى لدى النساء في ريف دمشق، وربما في أرياف أخرى، تجلياً أوضح مما هي عليه لدى نساء أخريات في دمشق أو أماكن أخرى من مدن أخرى، لأن خلاصهن وبقاءهن مرتبطان بمهاراتهنّ في القراءة، قراءة الحاضر الذي يتمزّق واستشراف القوانين الاجتماعية الجديدة للمستقبل، تلك القوانين التي لم تكتَبْ بعد.

ثمة مفارقة تستحق التنويه، فحين تغيم الصورة وتشوّشها الفوضى كما هي الحال في سورية بعد قرابة نصف قرن من الاستبداد والأجوبة المعلبة

الجاهزة، قد نتوصّل إلى نتائج أفضل وأثرى وأكثر استفزازاً للأذهان عند الالتفات إلى ما يلاحظه الناس ببساطة وهم يناقشون في مرويات شفوية ما يواجهونه داخل عالمهم الشخصي الصغير أو المحدود، ولعل النتائج في مثل هذه الحالة أجدى مما يمكننا الوصول إليه كأفراد يأخذون على عاتقهم في بعض الأحيان الخروج بأجوبة قطعية، كمن يتوهمون أن آراءهم تغطي بشموليتها البلاد بأسرها. ولعل أهل المدن أميل إلى هذا الشكل من التفكير أو التركيب، وهم في نمط حياتهم أقلّ التزاماً بأنماط اجتماعية ثابتة، كما أن القيود على تنقلاتهم الجغرافية أقلُّ. أما النساء في الأرياف حيث الاحتدامات والقلاقل، فلا يلاحظ لديهن تحيز واضح للمواقف الدينية أو الإيديولوجية الصرفة، ولو كنّ متدينات وصاحبات مبادئ في غالب الأحيان، لأن كل شيء بالنسبة إليهن يحمل تبعات اجتماعية وعملية مباشرة.

□ □ □

يتألف هذا الكتاب من ثلاثة أقسام رئيسة. المبتدأ «**أمكنةٌ تنهض، أمكنةٌ تتداعى**»، يتركّز في ريف دمشق بعديد بلداته، وكل شهادة فيه معنونة باسم البلدة المقصودة ترويها امرأة عاشت فيها وشاركت في الثورة بأشكال مختلفة. النساء يصفن بالتفصيل بدايات الثورة في مناطقهن وكيف تطوّرت، من الدهشة الأولى والمشاركات الأولى وصولاً إلى الانسحاب التدريجي لمعظم النساء وانكفائهن عندما انقلبت مناطقهن إلى ساحات معارك.

بطبيعة الحال، لم تشارك جميع النساء في مجريات الثورة داخل هذه المناطق المحافظة على الأغلب. الراويات هنا ناشطات نسمعهن يتحدثن عن مناطقهن، والمجازر التي وقعت فيها، وعن القصف والتدمير والذين ماتوا.

سيجد القارئ كيف تروي المرأة تصورها عن الثورة التي شاركت فيها تدريجاً. النساء مختلفات، وقد توصف بعضهن بأنهن محافظات أو متزمتات أكثر من سواهن، غير أنهن جميعاً يشتركن في مزيّة واضحة هي الشجاعة، وقد أحسسن عند انطلاقة الثورة بوجوب المشاركة. ولكنهن لم يكن واثقات مما يمكنهنّ القيامُ به، فنراهن يبدأن بالتفرج على المظاهرات من شرفة البيت أو الطرف البعيد للشارع، وهن يشعرن غالباً بأن إنسانيتهن منقوصة، وهن لا يقمن بما يجب عليهن القيام به. ثم بدأن الخروج ببطء. فقوبلن بالممانعة خارج البيت أيضاً. أراد الرجال حمايتهن تحت مسمى الشرف، وغالباً ما أيّدت النساء الأكبر عمراً وجهة النظر هذه المتعلقة بالشرف؛ أما الشابات فأبدين الضيق وعصين أحياناً فكرة الطاعة المطروحة والمفروضة عليهن. توسل الرجال إليهن، وكادوا يقبلون أيديهن لكي يعدن إلى البيوت ويلازمنها، لأنهم يعرفون أن «هذا النظام لا يخاف الله». كانت الهواجس المهيمنة على الرجال تجاه النساء هي قتلهن واعتقالهن واغتصابهن، أي الأفعال التي ستلحِق بهم خسارات شخصية وتجلّلهم بالعار والنقصان- وأنهن يشكلن عبئاً، فلا يستطعن الهروب أو تدبر أمورهن عندما تهاجمهن قوات النظام- ولربما كانوا خائفين أيضاً من استطاعة النساء الاعتناء بأنفسهن حقاً وتكفل شؤونهن وحدهن. تقول إحدى المحاوَرات: «إننا [النساء] فرضنا أنفسنا بالإصرار»، كما تذكر عديدات منهن أن النساء كنّ يشجعن على الاستمرار في المشاركة في الثورة، بما يشبه بثّ الحماسة، عند توقف المظاهرات في الريف إثر تصاعد العنف واشتداده.

ليست السِّيَر الفردية للنساء بذلك التباين والاختلاف الكبيرين إذ، كما أسلفنا القول، تتكرر فيها التجارب والأنشطة العامة التي قمن بها. فمع

تنامي عسكرة الثورة انكفأت النساء إلى فضائهن الخاص، حيث اقتصر العمل الممكن بشكل أساسي على أعمال تتعلق بالإغاثة أو الإعلام، ليصبحن بالتالي شاهدات يسمع صوتهن في الإعلام إثر تعذر سماعه في الشارع. بعض الرجال - وبعض النساء- اعتبروا أن صوت المرأة عورة، محتجين لأن صوت المرأة أمسى مسموعاً؛ ولكن الهتاف بالنسبة إلى المرأة أو بالأحرى امتلاكها صوتاً خاصاً كان تعبيراً عن الذات وتجلياً لتجربة وجودية، ولم يرجعهن على أعقابهن إلا العنف الفعلي، مما أجبرهنّ على العمل لأجل الثورة من داخل منازلهن غالباً. وهكذا يتضح أن العنف الهائل للنظام قد حجر عليهنّ من جديد. نلاحظ أن المحاوَرات في الريف صريحات وملاحظاتهن واضحة، فالنظام لن يتوقف عن القتل وتصعيد العنف، وعسكرة الثورة أمرٌ لا مفرّ منه، وإلا «فقد نُذْبح جميعاً» كما تعبّر إحداهن؛ لسن مثقفات ولا يتثاقفن، بل رأين الموت بأم العين وواجهن القتل الذي لم يتوقف يوماً واحداً في سورية طوال السنين الخمس الأخيرة، ومات أناس أمام أنظارهنّ؛ لقد رأين أناساً يُدفنون أحياء أمامهن، رأين الكارثة. لقد كنّ حاضرات في ميادين المعارك. هذا هو القسم الأول من الكتاب، حيث يرى القارئ جمال البدايات ثم انهيار المدن والبلدات، ويرى الألم.

في القسم الثاني «**أمكنة تضيق**»، يلتقي القارئ بمجموعة أخرى من النساء قادمات من مناطق مختلفة لا تقتصر على دمشق وريفها، وخلفياتهن الاجتماعية متباينة. فبينهن محافظات وعلمانيات (كما يصفن أنفسهن)، وبينهن ناشطات سياسيات، ولكنهن جميعاً يشتركن مرة أخرى في نقطة واحدة: لقد أحسسن جميعاً بأن هناك لحظة قد حانت وعليهن الدخول والانخراط فيها، فيفصحن عنها قائلات إنهن كنَّ في حاجة إلى اللحاق بالثورة والانغماس

فيها، ويستخدمن عبارات جميلة في وصف هذه الضرورة أو هذا النداء، فتقول إحداهن: « كنتُ أخرج في المظاهرات بكامل أناقتي مرتديةً أجمل ثيابي، فالثورة قامت أيضاً ضد القبح، ثم سرعان ما تنقضي ساعة المظاهرة، كمثل كل حالات الجمال، بلمح البصر». كل النساء اللواتي نقرأهن في هذا القسم اعتُقلن مرة واحدة على الأقل خلال الثورة، وهن يصفن أو يشهدن على الآلة الساحقة التي شُنَّت بها الحرب على المدن والأحياء، وقد رأين هذه الآلة واختبرنها من داخلها. بالدخول إلى صميم هذه الآلة الجهنمية نصادف منظوراً آخر، فالنساء اللواتي واجهن النظام وتحدينه اعتُقلن وقضين أوقاتاً متفاوتة في مساحات السجون الشديدة الضيق. نسمع آراءهن، وكيف يرين الأمور بعين مغايرة، حتى لو كن غائبات عن ساحات القتال. ثمة مسافة تتيح لهن تكوين وجهات نظر سياسية مثالية، على الرغم من وجودهن وعيشهن في أحشاء الوحش؛ فهنّ، على سبيل المثال، يرين أن لا مخرج من هذا الصراع وهذه الحرب المستعرة إلا بالمفاوضات السياسية. النساء في هذا القسم يصفن إذلال النظام لهن، فيرى القارئ بدقة كيف تعمل آلة القمع الوحشية وكيف تنكّل بالناس، في مستوى آخر من الصراع أوسع وأشد تعقيداً، إذ ثمة نوعان من الرهائن في آلة القتل: السجناء/ السجينات، المعذَّبون/ المعذَّبات، وأولئك الذين يديرون هذه الآلة ويتولّون شؤونها، سواء كانوا مدركين تماماً ما يقترفونه أو لم يكونوا. النساء اللواتي أجدن رواية ما شاهدنه واختبرنه في سجون النظام يُريننا كيف تواجه المرأة في ضيق ذلك المكان-السجن مخاوفها وهواجسها، حتى لو لم تكن ضحية مباشرة للتعذيب الجسدي. القلق الأقصى لدى النساء يتكثف في السجن لأنه المكان الذي تقع فيه الاغتصابات. تقول إحدى المحاوَرات إن «دخول السجن

بحد ذاته اغتصاب»، على الأرجح بسبب الوصمة الاجتماعية التي يخلّفها، حتى لو كان الأذى مجرد تلميح إلى اعتداء أو انتهاك جنسي. وفيما يتعرض الرجال للتعذيب الشديد حتى الموت في أحيان كثيرة، نجد أن النساء مرغمات على الاستسلام للاستماع إلى تلك الفظاعات التي يقاسيها الرجال وتتناهى صرخاتهم إليهن في زنازينهن، وقد يساورهن شعور بالذنب لأنهن مستثنيات من هذا القدر الذي يشقى به الرجال المعتقَلون. وعندما يتحدّثن عن السجّانين المتفانين في عملهم والقائمين على تنفيذ تلك الفظاعات، يتسنى لنا أن نفهم آلية أخرى اعتمدها النظام في مداوراته، فالنساء هنا لا يرين في أمثال هؤلاء الجلادين أعداء بالضرورة أو مجرد أعداء وكفى. كلا. ففي السجن، في ذلك الحضيض الإنساني، لا مناص للناشطات المعتقلات من ملاقاة السجّان بوصفه إنساناً أيضاً، فيناورن للعثور على بصيص من الإنسانية لدى أمثاله، في أضيق الأمكنة وأبعدها عن الإنسانية.

القسم الثالث، «**صوتان في المنفى**»، يختتم الكتاب بشهادتين لامرأتين سوريتين تعيشان مقتَلَعَتين خارج سورية. البعد والعزلة في المنفى مختلفان، وكذلك الألم. لكن هذا القسم يستكمل توصيف التجارب الذاتية-الشخصية التي عيشت بهولها وروعتها في أحلك الظروف، مستمراً في واقعٍ جديد للسوريين لا يستقر على صورة أو مثالٍ قابل للقياس ويبعثر قصتهم الجديدة، فالسرد الذي يبدأ بالأمل ويترنّح وسط أمكنة تتداعى وتنهار، ينتقل إلى سجن الناس والزجّ بهم في المعتقلات وتعذيبهم والقضاء عليهم، لينتهي بسيرة الذين يفرون بحياتهم، مضطرين إلى مغادرة البلاد كلها. فيما يجد القارئ في القسمين الأول والثاني ما يشبه تاريخاً وجيزاً لسورية المعاصرة وثورتها، مروياً على لسان نساء سوريات، يلقي القسم الثالث من

الكتاب ضوءاً على ثلاثة جوانب لم يتطرق إليها القسمان الأوّلان، وهي: طبقة البرجوازيين ودورها في سورية؛ والمعارضة السياسية وإخفاقاتها وأسباب فشلها وكيف شاركت في مؤسساتها امرأة (هي بسمة قضماني، الوحيدة التي نورد هنا اسمها الصريح)؛ وأخيراً هناك الأكراد وكيف بادرت النساء في المناطق الكردية إلى حمل السلاح وخوض القتال.

□ □ □

لطالما تداولت الأحاديث طيبة السوريين أو سذاجتهم. لم يكونوا سذجاً، كانوا بالأحرى أبرياء، ومدركين فداحة الأكلاف إذا ثاروا، ويعلمون أن النظام سيستميت في الذود عن نفسه. كانت التبعات معلومة لأغلبية السوريين، ومع ذلك لم يفتقروا إلى البراءة. كانت الثورة في البداية احتفالاً بانبعاث المجتمع السوري الذي وصفته إحدى المحاوَرات بإنسان «مشلول شللاً رباعياً طوال خمسين عاماً، يعيش ويتنفس فقط، ثم أيقظه الألم». والكتاب من مستهله إلى ختامه يروي كيف كان الألم نائماً في سورية التي استيقظت على الآمال والكوابيس. سيرى القارئ في هذا الكتاب الفقر والإهمال والفساد والسجناء السياسيين وكلَّ ما أدّى إلى هذه اللحظة التاريخية التي أدهشت كثيرين وترقّبها كثيرون، ولكنها ظلت معلقة كنوعٍ من الرجاء أو الأمل الذي لا يتحقق. لكأن النساء الراويات هنا ظللنَ ينتظرن تلك اللحظة طوال حياتهن، وها هي قد حانت وتحققت، فانبرت كل واحدة منهن إلى دور وفعل، وحتى لو كان ثمة تباين كبير بين تلك الأفعال التي قمن بها، فقد كتبت لكل منهنّ قصة شخصية كانت في تفاصيلها وخلاصتها سوريةً وإنساناً وامرأة في آنٍ واحد. النساء هنا يمثلن

وعياً وضميراً: فقد كانت المشاركة في الثورة بإرادتهن وخيارهن. المتدينات آمنَّ بأن الضمير آتٍ من الإسلام، والسلوك بمقتضاه فرضٌ على المؤمنين والمؤمنات؛ والضمير لدى العلمانيات منبعه تعطش المرأة إلى الإنسانية الكاملة، وفي ضوء هذه الفكرة نستطيع القول إن الكيان والوجود الخاصين بالمرأة يستلزمان السلوك والعمل بما يمليه عليها ضميرها. وربما لهذا السبب أولت معظم المحاوَرات أهمية كبيرة للصرخة لأنها تروي «شهوة الـ «لا» التي راودتنا طويلاً» كما عبّرت إحداهن، وأضافت في موضع آخر كيف أنها في زيارة خارج سورية خلال الثورة «صرخت ببغضائي المتراكمة على مر السنين تجاه بشار الأسد». كان الهتاف تمرداً، وبالنسبة إلى أخريات مثلت الثورة كل جهد ومسعى راكمته حياة بأكملها، فانفجارها هو اللحظة المواتية التي جعلت لحياتهن معنى. جميع المحاوَرات يرين أن حياتهن كانت ستبدو مختلة أو ناقصة من دون مشاركتهن في الثورة؛ بعضهنّ كافحن من أجل هذه المشاركة ثم اعتقلن جرّاءها، واضطرت أخريات إلى الكذب على أسرهن أو حتى هجر عوائلهن، إلا أنهن جميعاً جازفن ليلتحقن بالثورة، وكانت المخاطر جسيمة أحياناً، وقامت جميعهن بما قمن به ليكون لهنّ كيانهن ووجودهن الشخصيان بأشكال وطرق شتى. جميعهن كذلك رأين في الثورة استيقاظاً. الثورة أيقظت النساء والرجال على السواء، لكن النساء استفقن مرتين، إذا أخذنا في الاعتبار المرأة داخل البيت وخارجه في المجتمع. بعضهن ذُهِلن باللواتي صرنَ إليه، وكأنهن لم يعرفن جيداً مَن هنّ حتى حلول تلك اللحظة فأرشدهن ضميرهن ووعيهنّ - أو سمح لهنّ- لينخرطن في الثورة. كنّ كالمغنطات إلى ما شهدنه في بدايات الثورة ثم أسهمن فيها فاستحوذت عليهن ليفاجأن، لاحقاً في خضمّ استغراقهن، بأنهن قد تغيّرن.

هذا الكتاب رحلة لاكتشاف الذات تنتهي بمأساة. تنتهي المقابلات في ربيع ٢٠١٣، باستثناء مقابلة واحدة فقط في مدخل الكتاب، ومع ذلك تتحدث كل امرأة عن المأساة قائلةً إنها كانت أمراً لا مفر منه. المأساة شخصية وجمعية في آن واحد. لقد نكبن وفجعن بأهلهن وخسرن بيوتهن وبلدهن وتشرّدن في المنافي؛ المرارة والحزن طاغيان لدى بعضهن، بينما هناك أخريات مرتابات، ولكنهن جميعاً مختلفات بعد كل ما جرى. هناك الألم الشخصي، والألم الجمعي، وهناك الخيبة والإحباط. لقد أحسسن بتخلي الجميع عنهن. أولاً، معظمهن لم يؤمنّ بالمعارضة السياسية ولا يتوانين عن انتقادها بدرجات متفاوتة. ثانياً، انتابهن الاشمئزاز حيال الطبيعة الانتهازية لبعض الأشخاص في أوقات الحروب والأزمات وكيف يطمعون في الاغتناء عبر عذابات الآخرين وبؤسهم، وثالثاً هن أنفسهن يخشين أن القسوة قد تمكّنت منهن ككائنات إنسانية، لأنهن قد رأين الموت، ولأن الجميع قد صاروا قساة إثر وفرة الموت الذي شهدوه والفظاعات الكثيرة التي مروا بها، فتصف إحداهن ميتاً ملقى على قارعة الطريق «مغطى بقطعة من الكرتون، والعابرون يرونه دون أن يجرأ أحد على الاقتراب منه». إنهن يشعرن، ولا سيما النساء المقيمات في المناطق التي تدور فيها المعارك، بأن الوحش قد تعدّد واستشرى.

□ □ □

تتقاسم النساء هنا خصلة الإقدام. إنهن يتحلين بالشجاعة والضمير والمحبة، وهن متناقضات يناقض بعضهن البعض ويناقضن أنفسهنّ. جديةٌ هي الريبة والشكوك التي تساور بعضهن، وهنّ غالباً متوجسات من كلمة

«الحرية»، وخصوصاً الشابات. هذا التوجس يرافق التعطش إلى الانفتاح الرحب الذي تعد به هذه الكلمة نفسها، إنهن راغبات فيها، ولكنهن في الوقت نفسه يشعرن بأنها ستضع أمامهن تحدياً وستغيّرهن. إنهن يعلمن أن الثورة قد فتحت جرة باندورا. وقد انتهين إلى مساءلة قيمهن والأعراف والتشكيك فيها لأنهن مدركات تماماً أن ثمة شيئاً ما قد انفتح، والحرية ليست مجرد صرخة أو هتاف في الشوارع، ولا بد من حرية التفكير، فالعقول الحرة تواجه المعتقدات الراسخة.

العزلة كذلك ثيمةٌ تتكرر في الكتاب. يبدأ الكتاب باحتفاء بالحرية، أي احتفاء بالتحرر من حياة العزلة؛ لولا أن النساء وقريباتهنّ في المناطق المنتفضة بدأن يشعرن تدريجاً بأنهن واقعات تحت وطأة الإهمال والتناسي والتجاهل، وقد ضُيّق الخناق ببطء وجرى استبعادهن. العزلة في هذه الحالة يتقاسمها الجميع. ففي البداية هناك العزلة الأولى التي تتزعزع عند بداية الثورة، ثم يلاحظ القارئ اعتقال النساء ودخولهن السجن وانتقال وجودهن إلى شكل آخر من العزلة والنسيان الوحشيين في زنزانة يجهلها الآخرون غالباً. وفي القسم الأخير ثيمة العزلة في المنفى داخل ما يسمى «بحر الحرية» في الغرب الأوروبي، لأن هذه الحرية هي حرية الآخرين، صنعها آخرون من أجل آخرين.

□ □ □

السؤال الكبير الذي يطرحه الكتاب هو: ما هي المرأة؟ القسم الأول يقدم مجتمعات من الممكن وصفها بالمحافظة في ريف دمشق، عبر مدن وبلدات هي: داريا، الزبداني، دوما، حرستا، جسرين، التل، القابون. إحدى

المحاوَرات من دوما، نشأت في بيئة متزمتة، ولكن كان والدها يسمح لها بركوب الدراجة الهوائية في طفولتها بينما هو يتبعها بسيارته. (ثمة سمة مشتركة بين الراويات هي حب آبائهن لهنّ والحرية التي منحها إياهن آباؤهنّ. للعديد من هؤلاء الآباء مواقف سياسية معارضة، وكانوا المصادر التي استقت منها النساء معرفتهن الأولى بالنظام). المحاوَرة في دوما تزوجت في عمر مبكّر، وانزوت في منزل زوجها. وبقيام الثورة انتابها دافع يلحّ عليها بالخروج والمشاركة في ما يجري في الشارع، وهذا هو ما فعلته. وعند ذهابها مع نساء أخريات إلى مجلس عزاء لشهداء دوما فوجئن بأن الرجال أحضروا لهن الكراسي وقدموا القهوة المرّة، بينما كنّ يخشين أن يمتعض الرجال من حضورهن. إنها امرأة مقتنعة بأن المرأة لا يمكن أن تتسلم رئاسة الجمهورية، فتقول «لو رُشحت [المرأة] لرئاسة الجمهورية لخرجتُ في مظاهرة ضدها»، ومع ذلك تحاول أن تكون نفسها وتحقق ذاتها في عالمها، ولم تنقطع محاولاتها داخل الظروف الجديدة التي أسفرت عنها الثورة، حتى لو تعارضت المحاولات مع بعضٍ من قناعاتها الأصلية، فهي امرأة لم تكن تغادر منزل زوجها إلا لزيارة أهلها أو للتسوق، واقتصر تعاملها مع الرجال على الباعة الذين كانت تصادفهم في المحلات، ولهذا لم يصدّق أقرباؤها التغيرات التي مرت بها خلال الثورة، كالجلوس دون حرج إلى جوار السائق في المقعد الأمامي للسيارة، أو تبادل السلام مع الرجال إذا التقتهم في الشارع؛ إنها منتبهة إلى أن هذه التغيرات قد تتراءى بالنسبة إلى البعض طفيفة أو قليلة الشأن وسخيفة، ولكن هذه المرأة قد اخترقت حدوداً في مجتمع دوما، وهذا التخطي الذي يتجلى في تصرفاتها وأفعالها ذو مدلول وأهمية، ولعله مثال محتمل على تحول أدوار الجندر. وبالطبع لا ينحصر حدوث التحولات

بمستوى واحد، فكل تجربة تمتاز باختلافها؛ غير أن النقطة التي تتقاطع عندها التجارب هي حيرةٌ تذيّلها إشارة استفهام: ما هي المرأة؟

قد لا يكون هذا السؤال مطروحاً بشكل مباشر لدى النساء اللواتي نقرؤهن في هذا الكتاب، ولكنهنّ من خلال أفعالهن الملموسة يكشفن في الواقع مَن هنّ النساء السوريات، وما الذي بمستطاعهن القيام به وما الذي يعجزن عنه، وما يُسْمح به لهن وما لا يُسْمح.

النساء المحاورات هنا يدركن جيداً حقيقة قمعهنّ، وهذا الإدراك يتكرّر في قصصهن كلها. تستشهد إحداهن بمثل شعبي يقول: «إن المرأة لا تخرج إلا ثلاث مرات: من بطن أمها إلى بيت أبيها، ومن بيت أبيها إلى بيت زوجها، ومن بيت زوجها إلى القبر». إنهن يَعيْنَ السيطرة والقيود المفروضة عليهن وقسوة المجتمع ووقوف القوانين أيضاً ضدّهن. فاللواتي طلبن الطلاق يعرفن جيداً كيف يعترض القانون طريقهن، ويلمسن الظلم وعدم المساواة. العديد منهن يعتنقن الإسلام كديانة يرَيْن فيها الحق والجمال، ويعلمن أن المساواة مع الرجل غير ممكنة، فتقول إحداهن بالتكامل مع الرجل. وإثر الثورة تتساءل بعضهن: هل نحن مكملات للرجال؟ ما هي الحدود؟ هل ممارسة الجنس ممكنة؟ لقد أفضت الثورة وأحلام الحرية إلى ألم جديد، حيث النساء تراودهن الأسئلة المرتبطة بالعادات والتقاليد والأعراف والمعتقدات، وقد يبدأن بالتفكير وحدهن كنساء مستقلات. اللافت أن هذه الاستقلالية ملحوظة أكثر لدى نساء الأرياف، وسط اللواتي خرجن يتظاهرن بعد أن تخطين الحدود المرسومة للجندر، وخرجن بذلك عن سلم القيم المهيمنة وسكون الأعراف الاجتماعية وسطوتها. إنهن يسائلن الوضع الراهن القائم

ورسوخ البديهيات، سواء في أنفسهن ومجتمعاتهن أو في المجتمع السوري كله، وثمة ألم يساورهن: ألمُ أن يكنَّ نساء، وما تنطوي عليه هذه العبارة من آلام أخرى.

الواضح أيضاً في هذا الكتاب، إكثار النساء من انتقاد بعضهن لبعض. إنهن ينتقدن المرأة لافتقارها إلى النضج وافتقارها إلى الكفاءات وافتقارها إلى الشجاعة، وعندما يكنّ شجاعات فهن «أخوات رجال». تقول إحداهن: «لا بد لي من الاعتراف بأنني تعبت من التعامل مع النساء خلال الثورة؛ معهن يتباطأ العمل وتأخذ الأمور منحى شخصياً فيتصرفن كأطفالٍ لم تُحسن تربيتهن». وهكذا نقرأ كيف تنتقص النساء من النساء حتى لو ثُرن وجازفن. الناشطات قد ينتقدن النساء على ضعفهنّ، وينتقدن اللواتي لم يتحررن مثلهن. وقد لا تقتصر انتقاداتهن على تصرفات النساء وأفعالهن ومواقفهنّ، بل تطال جنس المرأة والمرأة بحد ذاتها. أليس مثل هذا الموقف نابعاً من نقص الثقة بالنفس وشحّ التضامن؟ لعل مردّ هذه القسوات المتبادلة هو الإحساس العام بانعدام الأمان فتنكشف أمام الجميع نقاط الضعف التي يتشاطرها الجميع.

هل يمكن المرأة أن تتولى رئاسة الجمهورية؟ كلا، النساء لا يستطعن لأنهن غير مؤهَّلات! «كيف يمكنني تخيل امرأة على هذا الكرسي!؟ هذا مستحيل»، تقول إحدى المحاوَرات، وتضيف: «إنها [المرأة] لا تزال تحبو في السياسة، وأمامها تمارين طويلة قبل دخول هذا الماراثون». النساء لا يثقن بالنساء، ربما لأنهن يعرفن النساء في محيطهن فقط وخالطن نماذج معينة من النساء وكان اختلاطهن بالمختلفات عنهن محدوداً جداً. هذا سؤال جدير بالاهتمام:

لماذا يرين النساء غير مؤهَّلات للتمثيل السياسي؟ ضيقٌ هو المنظور الذي يطلقن أحكامهن استناداً إليه، وبناء على هذا المنظور نفسه لا يثقن بمقدرات النساء ويشككن فيها. لعل انعدام الثقة آتٍ من جوانب شخصية فيقررن، بسبب القيود المفروضة عليهن في حياتهن الخاصة، أن النساء عاجزات عن قيادة الدولة. لدى قسم آخر من المحاورات إيمان أعمى بأن النساء يكملن الرجال، وبالتالي لا يمكنهنّ أن يتوقّعن منهن ما يتوقعنه من الرجال في شتى المجالات. إحداهنّ، في بداية الكتاب، مقتنعة بأن النساء غير قادرات على حمل السلاح، بينما ترى امرأة كردية في نهاية الكتاب أن حمل السلاح واجب على النساء، وإلا بقين في الصفوف الخلفية. ساعدت المرأة الأولى في نقل البنادق إلى الثوار، ولكنها تجد في حمل المرأة للسلاح أمراً مرعباً ومنافياً للطبيعة، وانطلاقاً من هذا الحكم، المستند إلى تجربة شخصية، تعتبر النساء عاجزات عن القتال، أما المرأة الكردية التي قاتلت ولا تخشى المعارك فتؤمن بأن المرأة قادرة على حمل السلاح، لا بل يجب عليها القتال.

هل النساء يطلقن الأحكام على أنفسهن وعلى الآخرين استناداً إلى تجربتهن الشخصية أو إلى ما شهدنه في محيطهن القريب، ولا يمضين أبعد بمحاولات تفكيرهن في المرأة ككائن إنساني؟ بعضهن يقلن لا يجدر بنا القيام بهذا الشيء أو ذاك، ومثل هذا القول يكشف أن فكرة الأحقية أو الجدارة ماثلة، وتكتنفها العديد من إشارات الاستفهام، فراحت بعضهن يتساءلن: لماذا يستطيع الرجل ممارسة الجنس خارج الزواج، بينما أنا لا أستطيع؟ ما هي المرأة وما هو الرجل؟ ما هي حدودي وإلى أي مدى يمكنني الخروج عنها وتجاوزها؟ أين هي هذه الحدود؟ بعض النساء يضعن هذه القيود والحدود بأنفسهن، لأنهن لا يستطعن تحدي كل شيء، ولا يحتملن بالدرجة نفسها

شتى الضغوط والمسؤوليات. فالمحاوَرة من ثائرات الزبداني تقول: «لا شك في أنّ من سمح لنا بأنشطتنا هم رجال عوائلنا، فلولا مساندتهم لنا لما استطعنا تخطي أعتاب البيوت، وإن بقي دورنا محدوداً جداً، فأنا، في مثال بسيط، أقود السيارة فقط عند غياب زوجي الذي يتولى القيادة عادة. أحياناً يحكمني بمزاجه ويُحجِّم تصرفاتي، فالسلطة بيده. نخوض نقاشات عبثية مرهقة لأنني لا أفهم تقلب قراراته، فيمنعني فجأة من مغادرة البيت بعد أن يكون قد أذن لي بالخروج؛ استيعاب هذا التقلب أصعب عليّ مما لو كنتُ محرومةً القيام بأي نشاط منذ البداية، أو لو لم أنلْ أي شكل من الحرية». من السذاجة توقع الخروج المفاجئ للمرأة، فالنساء يختلفن وتتباين ظروفهنّ، لأنهن بطبيعة الحال لا يشغلن المكان نفسه في الحياة، وليست لهن العقلية نفسها؛ لكل امرأة كفاح مختلف وتجارب مختلفة لا تشترك فيها بالضرورة مع الأخريات. ثمة امرأة تستهجن «ما يسمى «البوي فريند»»، بينما يُعثر في حقيبة امرأة أخرى على واقٍ ذكري عند اعتقالها، فيخبرها العميد بعد انصراف والديها، أن أمها تريد مكالمتها بالهاتف، وتسألها: «ماذا فعلتِ؟»، فتجيب الابنة: «رأيت بعينك قبل أن تنصرفي»، فتردُّ الأمّ: «لا أقصد تلك القصة [الاعتقال]، أعني الشيء الذي وجدوه في حقيبتك»، وهكذا تحوّل الواقي الذكري إلى القضية الأساسية وأنسى الأهل مسألة التوقيف برمتها. كما تصلح هذه الحادثة الصغيرة كمثال عن القوانين المعطَّلة، أو التي عفا عليها الزمن، ولكن يمكن استخدامها من جديد، لأسباب أخرى على الأرجح، فالفتاة الموقوفة، عند اعتقالها في مخفر الشرطة إثر توزيعها منشورات تنادي بإسقاط النظام، علمت بأن قانون العقوبات السوري لا يبيح حيازة «الكوندوم» أو الترويج له، على الرغم من توافره في

الصيدليات؛ هكذا إذن، ما حسبته علامة وعي صحي لم يكن إلا جُنحة لا يحاسب عليها الأهل والمجتمع فحسب، بل القانون أيضاً. إن السؤال الكبير الذي تطرحه كلّ النساء المحاوَرات، من داريا إلى باريس، هو هوية المرأة أو الأنوثة، الـ womanhood بتعبير أدق لم نجد له ترجمة عربية شافية. إنهن متناقضات ومفارقاتهن كثيرة، مختلفات ومنابتهنّ متنوعة؛ وإذا جاز مثل هذا التصنيف الذي قد لا يخلو من جور، قلنا إن هناك نساء يؤمنَّ بالمساواة على كافة الأصعدة، ومن جهة أخرى هناك مؤمنات بأن الجنسين يتكاملان ويستحيل أن يتساوى الرجل والمرأة. وهناك بالطبع نساء يكافحن بين هذين الطرفين المذكورين. يبقى من الجدير بالملاحظة أن معظم النساء في الكتاب قد التفتن خلال الثورة كلٌّ إلى هويتها كامرأة ومعنى تلك الهوية.

□ □ □

الرجال مسيطرون غالباً ويفرضون الضوابط، ولو تباينت الطرائق، فيفرضون أو يحاولون فرض القيود على النساء اللائي يضعن حدوداً لأنفسهن يلتزمن بها. بعضهم يسيطرون لأنهم راغبون في «تشريف» النساء أو لأنهم قلقون عليهنّ، ولا يضمرون سوء النيّات. بينما لا يحتمل رجال آخرون أن تمتحن أفكارهم المتعلقة بالذكورة والأنوثة وتوضع على المحكّ لتواجه التحديات. إحدى المحاوَرات عملت كصحفية في الإعلام الثوري، وصارت ناطقة إعلامية كما تمنت، ونقلت الأخبار عبر إذاعة محلية، لولا أن زوجها الصحفي مثلها صارحها بالغيرة، إذ كان يزعجه سماع صوتها على الإعلام. امرأة أخرى، منفتحة ومتدينة ومحجبة، جادلت أحد أعضاء الائتلاف السوري المعارض حين قال لها إن المرأة تغيب لأنها تغيّب نفسها

أيضاً، ثم سكتت «لأنها لا تعرف ما هي الحقيقة».

تذكر إحدى المحاوَرات «لاءات» المجتمع الثلاث بطريقة جميلة: «المجتمع قانونه العيب والسياسة قانونها الممنوع والقرآن قانونه الحرام». النساء محكومات بهذه القوانين الثلاثة مجتمعة لأنهن مستبعدات إلى محيط النظام البطريركي وهوامشه، فهناك «العيب» في المجتمع لأن الرجال قد يحاولون، بمشقة، التصالح مع جنسانية النساء التي يقيدونها غالباً ويضعون شروطها فيسمحون بها إلى حد معين أو يمنعونها؛ وفي السياسة نجد أن لقوانين سورية جذورها في السياسات التي وضعتها الدولة وانتهجتها إضافة إلى العادات والتقاليد والأعراف والتشريعات الإسلامية والقوانين العثمانية والقوانين الفرنسية الاستعمارية، وقد استخدمت القوانين السورية في المزيد من الهيمنة على النساء؛ ثالثاً، تتفق مختلف المذاهب الإسلامية على أن صوت المرأة عورة. وهكذا نجد النساء معلقات في ثالوث أذرعه العيب والممنوع والحرام. هناك بالطبع السياسة المعتمدة تجاه النساء لدى النظام السوري ومعارضيه على السواء، ولا علاقة لها بما تنص عليه قوانين الدولة، فقد استخدم الطرفان النماذج المسبقة الموجودة في المجتمع تهميشاً للنساء وإسكاتاً لهن، ولم يكونا في الواقع بحاجة إلى تطبيق أية قوانين. كان مسعى النظام، باعتقاله للنساء وتعريضهن للانتهاكات في سجونه، هو دفع الذكور في المناطق المنتفضة ليمنعوا بأنفسم نصف السكان (فالنساء أقلية حتى لو تجاوزت نسبتهن في المجتمع خمسين بالمئة) من الخروج للتظاهر في الشوارع، لكي يحموا شرفهم وتجنباً لأي انتهاك، وربما كذلك لمنع أي علاقة جنسية محتملة قبل الزواج أو خارجه. المعارضة السياسية، بسبب تقليديتها وبطريركيتها، استبعدت النساء والشبان أيضاً، ووقفت ضد

مشاركتهم الفعالة في السياسة. تقول إحدى المحاورات عن هذه المعارضة إنهم «لا يزالون يعتبرون أنفسهم الأفهم والأوعى، وكأنهم لا يزالون الذكور الكبار أنفسهم وسط أسرهم»، فيتصرفون ككبار العائلة، ما لم يتح لهم أن يكونوا كبار دولة، وكأن القرارات حقاً منوطة بهم. وتردف قائلة: «تعرضنا للهجوم والانتقادات، وكنا مستهدَفات أكثر من الرجال، لكننا اعتدنا كنساء مثل هذه الاستهدافات، من كافة النواحي سياسياً واجتماعياً، فكل غلطة من غلطاتنا «بكفرة»، وكثيراً ما يحول الغلط دون حصولنا على فرصة أخرى، بينما يقول الرجل ما يشاء ويقترف الأخطاء ويبقى الأمر كله طبيعياً (...) إنهم يرتابون بإمكانات [المرأة]، وبالنسبة إليهم يجب أن تتمتع المرأة بكفاءات استثنائية كي تحظى بمكان بينهم (...) لا يتعلق الأمر البتة بانتماءاتهم السياسية. إنهم يتنافسون داخل المجلس [الوطني] لاعتلاء المناصب، فإذا بامرأة أتت لتنافسهم أيضاً!» النساء، إذن، لا ينافسن أحداً على المناصب العالية، ما دام الاحترام الذي يبذله الرجال لهنّ احتراماً سطحياً غالباً ولا يتعلق إلا بالدور الأنثوي التقليدي في تمثيل الفضيلة، كأخت أو زوجة أو أم حارسة للقيم، فالمرأة التي تخوض السياسة يُنظر إليها كمن تحدّتِ الأعراف القائمة أو خاضت وسخاً. الأمر الأول والوحيد الذي يجمع عليه الرجال في السياسة البطريركية هو استبعاد النساء.

لكن الكثير من النساء متفقات غالباً مع السياسة البطريركية التي تقصي النساء، لأنهن يرين (كما ناقشنا آنفاً) أن القضايا العامة لا تناسب دور النساء جوهرياً أو قد يتصورن النساء السوريات في الوقت الحالي غير مستعدات وغير مؤهلات لصناعة القرار السياسي. لولا أن النساء قررن أيضاً البقاء خارج مضمار السياسة، وهن يعتبرنها شيئاً قذراً ويرغبن في الحفاظ على

طهارتهن. إن مسألة الطهارة - متجلية في عفة الحفاظ على العذرية حتى يوم الزواج، والحفاظ على السمعة، والبقاء نظيفة أيام الحيض، وإبداء الاحتشام في التعبير بالكلام والحركات - هي واحد من أشد الروادع وأقوى الاشتراطات الأخلاقية في المجتمع، وهذه الطهارة مصونة ومحروسة لأجل الإبقاء على النساء خاضعات في المجتمع والانتقاص منهن، والكثير من الإخضاع والانتقاص هذين تقوم به النساء أنفسهنّ.

تكمن المفارقة في النظر إلى الإقصاء أو الاستبعاد باعتباره امتيازاً، كما هي الحال أحياناً مع مجموعات أخرى تقمعها سردية أخرى قوية و«طاهرة» نقية. هناك مثال النخبة السياسية والاقتصادية السورية التقليدية (الذكور) الذين تخففوا أو ارتاحوا من مسؤولياتهم تجاه البلاد والمجتمع عندما احتكر جمال عبد الناصر، ومن بعده حزب البعث، الخطاب السياسي في سورية، وجرّموا أصحاب رؤوس الأموال ورجال الأعمال الذين اعتُبروا عملاء للإمبريالية والصهيونية، وهاتان الكلمتان الأخيرتان، بشكل من الأشكال، مرادفتان لعدم الطهارة أو ربما النجاسة. مرت على طبقة رجال الأعمال عقودٌ من القمع السياسي، وعندما قامت الثورة وأفسحت أمامها طريقاً محتملاً إلى السلطة والمسؤولية السياسيتين، لم تخرج عن حيادها وظلت موصومة بالطبقة الصامتة والانتهازية. وهنا نقطة تسترعي الاهتمام، ففيما كان هناك خوف كبير يساور رجال هذه الطبقة أو النخبة حيال عواقب انهيار النظام القمعي الذي يعرفونه عن كثب، مالت النساء البرجوازيات إلى اتخاذ موقف يؤازر الثورة، إذ ارتأين أن التغيير السياسي الممكن الحصول سيعود على النساء بمنفعة كبرى.

□ □ □

الشخصي سياسي أيضاً: هذا هو الاكتشاف العادي المهمل والمهم الذي توصلت إليه نساء كثيرات، وإن تباينت تعابيرهن وكلماتهن. كما اكتشفن أن الأمور الصغيرة قد تكون سياسية أيضاً، حتى الطبخ والعمل في المنزل ورمي المنشورات في الشوارع وسواها من الأفعال التي يقلَّل من شأنها عادة. فالخطوة السياسية الأولى يمكن أن تبدأ ببساطة من الوعي، ثم تشتبك الأفعال والمواقف والآراء بالمصائر الشخصية. ستقول بعض النساء: «لا نستطيع أن نكون راديكاليات الآن، ولا نستطيع الاكتفاء بالمناشدات، لأن الأمور يجب أن تتغير تدريجاً بمرور الوقت». تتبنى هذا الرأي نساء محافظات منفتحات على أفكار الحرية، سواء كانت هذه الحريات متعلقة بهن وتقلقهنّ، أو لا يتفقن معها شخصياً. إنهن لا يستنكرن حريات الآخرين، ويميزن بين ما سوف يقدمن هنّ عليه وبين ما يستطيع الآخرون القيام به. إلا أنهن يقلن إن اللحظة الراهنة ليست الأوان المناسب للراديكالية، فنضج المجتمع صوب تقبُّل الأفكار المختلفة سوف يستغرق أعواماً وأعواماً، إذا أمكن الوصول إلى حيث يكون الاختلاف مرغوباً وآمناً. إحداهن، وقد عركتها الحياة السياسية، في تعليق مستوحى مما جرى في بداية ثورة مصر، ترى الراديكالية واجباً، لأن المجتمع الذي ارتجّ في أعمق جذوره، سيعاود الاستقرار على أسس مختلفة، وقبل عودة الاستقرار هذه لا بد من الجرأة والاستفزاز بطرح مطالب قصوى وتوسيع الحدود التي تعين المباح والممنوع - وصولاً إلى حقوق المثليين- بينما سوف تقول أخريات: لا! لا! علينا بأخذ الأمور تدريجاً. الكثير من المحاوَرات يقمن الآن خارج سورية أو عشن حياتهن مع الرجال، وقد عبّرت إحداهن التي حافظت على علاقة متميزة مع

أبيها، أشارت إلى مأزق هذه الاستراتيجية بشكل جميل: «لم يفرض أبي أية تربية دينية ولم يمارس عليَّ أية ضغوط. كنت أخبره بعلاقاتي العاطفية. ثم تبين أن من الأحسن الاحتفاظ بتلك التفاصيل لنفسي وصرت لا أطلع أحداً عليها، فحياتنا الخاصة كأفكارنا لا تخرج كلها إلى الضوء، وهناك جزء يجب أن يبقى داخلنا».

معظم النساء العلمانيات، المؤمنات بأن للنساء حقوقاً جنسية، لم يبدين ارتياحاً عند التطرق إلى حياتهن الخاصة أو مناقشة مسائلها، فربما إذا تجرأن وتقدمن إلى صدارة المناقشات افتضحت هشاشتهن لأن عدم مطالبتهن بحقوقهن الجنسية على الملأ تنطوي على إقرارهن بالإدانة التي ستطالهنّ حتى - أو ربما على الخصوص- من طرف عوائلهن. المفارقة أن النساء المحافظات، وهن يمثلن النسبة الأكبر بين نساء سورية، كن يشعرن بأنهن أكثر حرية وحديثهن لا تشوبه نبرة الاعتذار عند تطرقهن إلى حياتهن الخاصة باضطراباتها وآمالها.

□ □ □

نصادف هنا كيف النساء في المناطق المنتفضة يرعين الرجال، وتقول إحدى المحاوَرات إن ممرضة طببت الجرحى في المستشفى الميداني، ولم يقل لها أحد لا تخالطي الرجال ولا تلمسيهم فينتقض وضوؤك، وكأن ذلك إشارة إلى تقدمهن وسماح الظروف بالتغيير. ثمة منطلق دائماً، وهذا هو الأهم، فكل امرأة تعرف العقبات والمشاكل، والنساء التقليديات أو المحافظات أيضاً يبعدن عن أنفسهن ما قد يبدو شبهة الظهور بمظهر التخلف، ومحاولاتهن تدل على وجود طريق ما مفتوح. تقول محاوَرة أخرى إنها كانت تتنكّر بارتداء النقاب عند توزيع المناشير، فلم يتعرف

إليها أبوها وأبدى احترامه وإعجابه بها قائلاً: «أنتو أخوات رجال». الرجال يبدون الإعجاب، لكن الشجاعة تظلّ مقرونة بهم. هذه نقطة تسترعي الاهتمام، فسؤال الرجل يُطرح مع سؤال المرأة: خير للنساء أن يكن رجالاً وكأنهن يسعين إلى الرجولة ويتطلعن إليها، فلو كانت المرأة رجلاً لاستطاعت القيام بما هو أكثر من المتاح لها، لأن الجندر يقيدها ويضع حدوداً وشروطاً لأفعالها.

عندما خرجت ثائرات الزبداني وقمن بتمثيل مظاهرة في مسرحية ألّفن لها الأغاني ورحن يغنّينها، رأى بعض الرجال في تلك الجرأة وقاحة وعيباً وحراماً، فقطعوا الكهرباء عن مكبرات الصوت. تقول امرأة أخرى: «لا أخشى عسف المتأسلمين الذين يمحون بأفكارهم وسلوكهم المرأة والحياة نفسها. إنها فترة مؤقتة، فلو اعتُقلت مثلهم وعُذبت لتطرفت يقيناً». المسألة إذن مرتبطة بالجندر مرة أخرى، لأن النساء مغيَّبات عن التجارب الكبرى: إنهن «محرومات» حَمَلَ السلاح، «محرومات» «شَرفَ» الاعتقال، و«محرومات» أيضاً التعذيبَ الذي يتعرض له الرجال، فأين العجب إذا كنّ محرومات وَضعَ القوانين والقواعد. تقول امرأة أخرى: «كأن عليّ ملازمة المنزل وانتظار الرجل المخلّص، لأنني عاجزة عن رفع السلاح دفاعاً عن أهلي»، فاعتدادها بنفسها لا يسمح لها بانتظار أي مخلص. وقد أشارت امرأة ثالثة إلى النقطة نفسها على الأرجح، فحين ترى صديقها الذي اعتقلت معه حليقاً معذَّباً، تصمم على حلاقة شعرها كله مثله، في فعل قد يُرى بمثابة تضامن، وكأنها بهذا التمثل ستخفف عنه وطأة وحدته.

□ □ □

تعمّدنا أن يكون هذا الكتاب كتاباً سياسياً، عملاً متعدد الأصوات، الرواة والشهود فيه نساء سوريات شاركن في الثورة السورية رافضاتٍ النظام السوري، محتجات ضد طغيانه على عدة مستويات، وما من صوت يستأثر بالمركز في هذا البناء السردي الأشبه بشبكة لغز مبعثر، ما يتيح قراءة كل صوت على حدة، دون التزام تسلسل الترتيب الخطي بالضرورة، كذلك فإنَّ تاريخ إجراء المقابلة مدون في نهاية كل شهادة، وقد استُخدمت أسماء مستعارة وحُوِّرت بعض التفاصيل في مواضع قليلة تفادياً لمخاطر التعرف إلى شخصياتهن الحقيقية. عبر إشهار أصوات النساء اللواتي يصفن تجربتهن الشخصية في ملاقاة الواقع الجديد الذي كانت عليه الثورة المدنية في سورية، أردنا أن نفتح السجال حول عدد من المفاهيم المثالية والمنغلقة التي قد يتفق المجتمع السوري والنساء السوريات على اعتبارها محددات لهوية النساء، تحدياً للمنطق الذي تزعم مثل هذه المفاهيم أنها تمتلكه، وهو المنطق نفسه الذي يسكت النساء أنفسهنّ ويهمّش تجاربهن التي نسمعها هنا.

لقد عملنا على عدم صياغة القصص والوقائع داخل خطاب جديد، يدور ويتركز حول ما ينبغي أن تكون عليه النساء، فمثل هذا الشكل من الخطاب هو داء البطريركية المستفحل وقد ألمّ حتى بالكثير من الحركات النسوية، وإنما كان اختيارنا هو وقوف الأصوات فرادى، كلٌّ على حدة، حافلاً بالتناقضات والمفارقات والعداوات والغضب والكراهية والجمال، لعلنا نلقي ضوءاً على ما نحسبه سورية داخل تصورات أرحب، فيضيء سؤال: «مَن هنّ النساء السوريات؟»، وكم تباينت السوريات اللواتي لا يتشابهن وكم اختلفن وافترقن، ولو كنّ جميعهن سوريات.

في البداية، كان الهدف الرئيس وراء تأليف الكتاب ساذجاً. ابتدأنا بافتراض خاطئ وحاجة أسيء فهمها، ألا وهي وجوب توثيق مشاركة المرأة في الثورة السورية، وقوفاً ضد الاعتقاد المسبق السائد بأن النساء السوريات على تعدد مشاربهن لم يشاركن في حركة جماهيرية غير مسبوقة سميت الربيع العربي. وهكذا خلصنا إلى وجوب التوثيق التاريخي لمشاركة المرأة ليقتنع مختلف الناس، في سورية وخارجها، بأن النساء قد شاركن فعلاً في الثورة. ربما عكس هذا التصور الساذج عدم التصديق الذي ساد في البداية والارتياب الذي اكتنف حدوث الثورة وشكّك الكثيرون بقيامها حقاً، إضافة بالطبع إلى عدم مشاركة الجميع فيها، إذ كانت هناك مسافة كبرى بين الثورة وبين الذين لم يشاركوا فيها أو ربما ارتباك في الفهم لفَّ بالغموض والالتباسات مجملَ ديناميات هذه الحركة الشعبية. وبسبب هدف التوثيق الذي أشرنا إليه، ساورنا في البداية خوف من أن المشاركات في الثورة لن يُنظر إليهن كنساء في المقام الأول، بل إنهن استثناءات شذّت عن القاعدة فحسب، وهذا ما أردنا دحضه حتى في القناعات التي كنا نعتنقها من دون أن نعيها والشكوك التي ساورتنا آنذاك. فالتطورات التي حدثت على الأرض كانت تحركها دوافع قوية في الواقع، وتلك الدوافع أصدق وأهمّ، وهي المنطق الذي تبنته المحاورات في هذا الكتاب منذ البداية.

تعيّن على النساء تخطّي محظوراتهن للدخول إلى الفضاء العام، وقد استغرقت هذه العملية وقتاً، وكانت لا تزال مستمرة في طور حصولها وتطورها عندما أجبر توطد العسكرة وتصاعد العنف النساءَ على الانكفاء، وفي هذا المنعطف الزمني تنتهي عملياً المقابلات التي أجريناها. فلو استمرت الثورة المدنية، أو لو استمرت الثورة بعنف أقل مما جرى، فلربما ازدادت أعداد النساء

اللواتي سيتخطين محظوراتهن ويخرجن، وهن يستمددن الشجاعة من نساء أخريات سبقنهن إلى هذا الخروج وقمن بالشيء نفسه قبلهنّ. لقد كانت الثورة حقاً لحظة تاريخية مواتية، ولكنها أخفقت في النمو والنضوج ولم تطُلْ لتصير عصراً جديداً، لقد أجهضت. لم يكن الرجال هم الذين سلبوا النساء هذه اللحظة، على الرغم من وقوف الكثير من الرجال والعادات والتقاليد والمحظورات ضد مشاركتهن في الثورة، إنه عنف النظام الذي أجهز على هذه اللحظة.

كانت مشاركة النساء أساسية وتنامت على الأرجح حتى اندلاع الحرب حين أرغم تفاقم العنف النساء على مغادرة الفضاء العام لينزوين في الفضاء الخاص، هذا إن كان لا يزال لهن منزل أو مأوى؛ لكن وعلى الرغم من كل شيء، فإن توثيق مشاركة المرأة السورية أضاء مرة أخرى الحاجة الماسة إلى التفكير ملياً في طبيعة الصمت واللامبالاة والريب التي يضجُّ بها زماننا حيث النساء مُستبعَدات ولا تُسْمع أصواتهنّ.

استيقظَت

مدخل

الخفيّات داخل الكتاب هنّ المحاوِرات، إحداهن نوال التي أجرت معظم الحوارات داخل سورية. قابلت النساء وحدهن. زارت منازلهن، رأت كيف يعشن، وأحياناً فيما بعد تعرفت إلى بعضهن عن قرب. كان تقصّي الأسماء التي تأتيها عبر معارفها وعلاقاتها في ريف دمشق، ومن ثم الاختيار والوصول إليهن، يستغرق وقتاً. بعضهن وافقن بعد طول نقاش حتى اقتنعن بجدوى الحوار. بعضهن رفضن الفكرة، مثل رزان زيتونة نادرة الظهور قبل اختطافها في الغوطة الشرقية. حالت الظروف دون مقابلات أخرى أرجئت مراراً خشية الملاحقة أو الاعتقال. أخريات وافقن، لكنهن اعتقلن لاحقاً أو هجّرن، وأخريات اعتذرن بعد موافقة أولية لأن الوقت ليس مناسباً، أو لأن نشر تفاصيلهن في كتاب قد يعرضهن للخطر مهما

غُيّرت ملامحهن، أو لأنهن يرين تجاربهن غير ذات أهمية، وليس بحوزتهن ما يستحق أن يُروى.

نوال وحدها تقريباً. باتت مفردة «النشطاء» تثير لديها سخرية سوداء ومريرة. شركاؤها لُوحقوا وسجنوا، فقُتلوا أو غادروا البلاد، أسوة بالساسة المعارضين الذين لم يقربوا المناطق المحررة، وكأنهم سيديرون دولة ديموقراطية من وراء البحار. اتجه مَن تبقى من النشطاء السلميين إلى عمل مدني، إغاثي وطبي بعيد عن السياسة، بعيد عن صلب الحدث الذي تسيّده المسلحون، يعتبرونه عملاً هامشياً، لا يرونه ثورياً ولا يشعرون بأهميته. كأنها اندثرت، أو تبدو غابرة، تلك المحاولات والحركات الشبابية التي انبثقت لتنسق الاعتصامات والمظاهرات.

صباح الذهاب إلى الغوطة الشرقية، تستيقظ نوال ولا تنهض. من خوف إلى خوف، تكتئب وتضجر. تراودها المخاوف التي تتكرر، وتتخيل الحواجز التي ستجتازها مرة أخرى، حاجزاً تلو آخر. لا تعرف أي حاجز سيعترض الطريق، عمَّ سيسأل وعلام سيُفتش، وقد يُغالي في التدقيق على الحواجز بين الريف والمدينة. تخبئ جهاز التسجيل، وتضع الأسئلة على هاتفها المحمول في ملف PDF مخفي، وتشفر المقابلة لاحقاً. تفكر باختراع حجج قد لا تستخدمها أبداً ولكنها قد تنقذها، فتؤلف قصة أو ذريعة مخافة توقيف محتمل، وقد تحقق هذا الاحتمال في إحدى المرات، وكان قلبها يخفق كأن خفقاتِه ستشي بجهاز التسجيل. المجازفة دائمة، والمخاطر ليست قليلة. الخوف جزء من العمل والحياة. إذا دخلت كرسول محمّل بأغراض صغيرة إلى المعارف في الحصار، وأسهل ما يمكن إدخاله النقود،

فقد لا يُسمح لها بالرجوع إلى الشام حيث يقيم أيضاً صديقها الذي تساكنه وتفتقده.

الطرق إلى الغوطة مغلقة. المواصلات محنة غالباً. تستقل نوال سرفيساً إلى دوما أو حرستا، وقد رجعت مراراً على أعقابها كغيرها من الناس، بسبب الاختناق بأرتال السيارات على حواجز النظام، حيث الإهانات المقصودة وأحياناً إطلاق الرصاص في الهواء. ينخفض سقف الكرامة تحت الأحذية التي تدوسها، تقول؛ في إحدى المرات فُتش السرفيس، منعها الجندي من إدخال كيس الخبز والشطائر ومنع عجوزاً من إدخال الخضار، كانت إحداهن تقرأ سورة «يس» من جزء مصحف صغير، ونساء أخريات خبأن الخبز والأدوية تحت أرديتهن، لأنها بضائع ممنوعة. يبدو أن بكاء نوال فتح الحاجز. ظلت تكفكف دمعها، بينما الركاب مسرورين يسألونها أن تبكي في كل مرة، كأن دموعها مفتاح سحري حقاً. إذا أفلحت المركبة في تخطي هذا الحاجز، يترجل الركاب، يذهبون مشياً حوالي ثلث ساعة إذا سلكوا طريق مخيم الوافدين، هذا إذا سمحت بذلك نزوات القناصين. أحياناً تفاوض نوال سائقاً حول تعرفة الركوب لتجلس في صندوق السوزوكي مع نساء أخريات مدقعات الفقر، قبل أن تصل إلى حاجز الجيش الحر. قد تصادف هناك مقاتلين من كتائب إسلامية أو عناصر من الهيئة الشرعية لا تقنعهم حججها لتبرير سفورها إذا ذكرت آية مثل «لا إكراه في الدين»، فتضع حجاباً قد يعرضها غيابه للمضايقات أو حتى للخطر، ثم لا تخلعه لتراعي الجو الاجتماعي في «المناطق المحررة»، دون محاباة الناس. لقد اهتدت عبر تجربتها إلى الاتزان، لأن السفور هناك جنون لا معنى له ولا يقدم شيئاً. من دون حجاب نُظر

إليها كمتسيّبة، وعوملت معاملة الممثلات في المسلسلات التلفزيونية، يرونها ولا يتعاطون معها شيئاً. كانت تضع الحجاب في الماضي قبل أن تخلعه عند دخول الجامعة، وربما بسببه لم تُقبل للتمثيل في المسرح الذي أحبّت، لكنها - وقد استقلت بعد طلاقها- لا تزال تضعه حين تزور أسرتها، ولا تدخن في حضور أبيها، لأنها تربت في عائلة محافظة، صلّت وارتدت اللباس الشرعي منذ صغرها حين سكنت أسرتها في هذه الغوطة الشرقية نفسها، فأهالي دمشق كانوا يشترون بيوتاً في الضواحي والأرياف عندما يتقاسم أولادهم الميراث أو تركة العائلة. كان والدها إمام جامع يصحب بناته إلى المسرح والسينما ويطلعهنّ على الشعر العربي القديم. إلى جانب دراستها كطالبة في معهد التعويضات السنية كانت تحلم بالذهاب إلى أفريقيا، زاولت نوال مهناً مختلفة لكي تستقل وتعيل نفسها، فعملت في المعارض وعيادات طب الأسنان ومكاتب السياحة والسفر ومكاتب المحاماة، وحتى الحراسة الليلية والاستقبال الفندقي، واعتقلت للمرة الأولى خلال الثورة من مكان عملها في أحد فنادق دمشق.

الأمور المعيشية اليومية في الغوطة المحاصرة هي الجوهرية. فماذا سيفعل الناس إذا سُممت صهاريج الماء وجوِّعوا؟ عاد الكثيرون إلى الحصار بعد أن هدأ القصف، لأنهم لم يجدوا مكاناً آخر يذهبون إليه. وجدوا الهيئة الشرعية تيسّر الزواج، فقد عقدت القران بين العديد من المقاتلين والممرضات، فتمنح الزوجين منزلاً يسكنانه، وقد يقيم الأخيران عرساً صغيراً يرغمهما انقطاع الكهرباء على أن يبدآه في الثالثة عصراً. في هذه المناطق المحرومة من كل شيء تقريباً، المحرومة أيضاً من المكتبات والسينما، حاولت نوال أن تقيم دارة ثقافية، مبتعدة عن

الكتابة، ولا يخفى أن الكثير من شبان جيلها يحلمون مثلها بالعمل في الصحافة والأدب والسينما. كانت الدارة شقة صغيرة، والفكرة أن تُعرض هناك أفلام سينمائية، وتُعار الكتب، ويُقام مسرح دمى للأطفال، وتدور حوارات بين الأهالي للشبان والنساء. طال القصف آلة العرض السينمائية والكتب، فاحترقت على الطريق ولم تصلْ. لم تبقَ إلا نسخ مقرصنة من الأفلام لتُعرض أمام الأطفال على الكمبيوتر المحمول، هذا إذا توافرت الكهرباء، والإحباط لا يطول وصوله ولا يتبدد بسهولة. في الحصار كل شيء باهظ الثمن، الأولوية في اشتراك الكهرباء لشحن البطاريات، مع التخفيف من كل ما قد يستهلك الطاقة، الشحيحة دائماً، والبطاريات محلية الصنع لا تلبث أن تعطب وتتعطل. لا مناص من تحديد الضروريات. حاولت نوال أن تعمل دائماً ولو بأقل مردود ممكن، ولو في المجال الأضيق، ومهما ضؤلت الفائدة. تقول إنها لم تتألم حين زارت الغوطة بعد قصفها بالأسلحة الكيمياوية في آب ٢٠١٣، فما شهدته أشبه بيوم القيامة. الأهالي مشدوهون، في كل شارع بضعة رجال جالسون القرفصاء أمام محلاتهم المقفلة أو منازلهم، لا يعرفون ماذا سيفعلون، وقد فتح الرعب أبواب الاحتمالات كلها.

في صباح كئيب تسمع نوال تفاصيل جريمة أخرى، وهي تشرب القهوة. المعايير اختلّت وربما تبلدت الأحاسيس. ربما استُغلت وأسيئ إليها، وربما اتضعت واستبشعت أنانيتها بعد أن شهدت مغالطات، من غرور المعرفة الزائفة إلى غرور التعصب وعدم المقدرة على الاعتذار ولا التراجع عن الأخطاء. ربما كان هذا التشوش والضياع أرحم وأحسن. لا تعلم. لا تثق نوال بأفكارها لكنها الآن أهدأ بالاً، على الرغم من اختلاط الأمور

والمشاكل هائلة الكم. تتحمس أحياناً فتتوقد روح العمل لديها، ولكن من دون بهجة. رغبة لا توصف هي رغبة الناس في رد الأذى الرهيب الذي أحاق بهم: إيذاء من آذاهم بالمثل. اختلطت الثورة باللصوص والإسلاميين المتشددين والانتهازيين وعديمي الضمير، أوغلوا في التطرف يشدّون طرفي الحبل لتخنق الأنشوطة سورية وتهشم عظامها.

(خريف ٢٠١٣)

أمكنة تنهض، أمكنة تتداعى

داريا

ورود طبيعية ورصاص مطاطي

نهوضي ضد نظام الأسد كوقوفي الطبيعي ضد كل خطأ. كانت فرحتي عظيمة بثورتَي تونس ومصر، وكنت أحسد الناس في البلدين على النصر السريع الذي حققوه. كنا مسمّرين أمام الشاشات نطبخ ونأكل ونشرب منتظرين رحيل حسني مبارك، وكنت مثل كثيرين أتخيل حدثاً مماثلاً لدينا في سورية. كنا نفكر ماذا سنفعل، وليس لدينا ما يضاهي حركة «كفاية» أو «ستة أبريل». كنا نحلم أين سنعتصم، وهل سنصحب أولادنا إلى اعتصام في ساحة الأمويين. إلى أن رأيت كيف نظم طلبة جامعيون أول تظاهرة جابت شوارع داريا في ٢٥ آذار ٢٠١١. شبان اعتلوا أكتاف شبان وتعالت

الهتافات. بالنزول وجدت أنني وحدي تماماً وسط الرجال، فعدت أدراجي واكتفيت بالتفرج من شرفة البيت.

في الجمعة التالية النساء خرجن أيضاً، قبل أن يؤسسن تجمع «حرائر داريا». كنا ثماني فقط نعرف بعضنا بعضاً، نسير وراء الرجال وبينهم إخوتنا وأزواجنا وآباؤنا وأبناؤنا. توزعنا جميعاً القرنفل والزنابق، وكان نصيبي وردتين: حمراء وبيضاء. اعتقدنا أننا بخروجنا سنحثّ الواقفين على الأرصفة لكي ينضموا إلينا، أو سنخفف من بطش الأمن. ثم أحاطنا الشبان في قلب التظاهرة ليحمونا. كان شعورنا بالطمأنينة لا يوصف. شبان مستعدون ليفتدوا كلَّ امرأة بيننا، ليُضربوا ويُعتقلوا نيابة عنهن. ثم قيل لنا إننا عبء يقلق المتظاهرين، فقررنا الخروج وحدنا. قلائل انتقدوا الاختلاط بين الجنسين في التظاهرات والاعتصامات المطالبة بالإفراج عن المعتقلين أمام المخفر والمحكمة؛ قلائل هم الذين لم يتقبلوا الفكرة، بل حتى اشمأزّوا من حدوث ذلك، خصوصاً في مسيرات الشموع الصامتة، غير أن أغلبية الأهالي وقفوا ضد خروج النساء وحدهن، لأن هذا النظام لا يخاف الله، لا يعرف الخطوط الحمر ولن يرحم أحداً. ففي حين اعتبروا أن اعتقال الرجل وسام بطولة، ظلوا يرون اعتقال المرأة وصمة عار تشوه السمعة بالأقاويل، باحتمالات الاغتصاب التي تقصم الظهور وتهز الأبدان. تفهّمنا خوف الرجال علينا، لأنهم في النهاية أكثر عدداً في الشارع. قلنا إنهم معذورون، قابلنا حبهم بالمثل حين رددوا أنهم مستعدون لتقبيل أيدينا مقابل رجوعنا إلى بيوتنا. غير أننا فرضنا أنفسنا بالإصرار، وساندنا الشبان قادة الحراك السلمي أمثال غياث مطر ويحيى الشربجي ومجد خولاني وإسلام الدباس. أمهاتهم وأخواتهم كتبن اللافتات وخيّطن

الأعلام وهيأن الورد وقناني الماء. أتذكر ذهابنا إلى عزاء أحد الشهداء. التقينا جدته، المسنة المستلقية مقعدة في السرير. حين التممنا حولها وهممنا بتقبيلها قالت: «رحمه الله، كان دائماً يحضر إلي أوراقاً لأقصها بعناية»، ولم تكن، هي العجوز الصبورة التي لا تعرف القراءة، تعلم أنها كانت تساعد حفيدها في تحويل منشورات مطبوعة إلى قصاصات لتعبئها نساء أخريات في البالونات، ثم ينفخها التلاميذ في اليوم التالي ويطيرونها في المدارس ساعة الانصراف، بينما ترابط سيارة أمن كبيرة على مقربة من البوابة، وحين يلمح عناصرها الشعارات المكتوبة بأحرف كبيرة على البالونات التي تعلو في السماء يطلقون عليها النار، فتنفجر وترفرف المناشير وتغطي الشوارع.

رأيت أمامي كيف ضُرب ودُهس تلميذ عمره عشر سنوات كما حصل في قرية البيضا في بانياس؛ فقد بدأ التلاميذ والطلبة - فتياناً وفتيات - بالتظاهرات في وقت مبكر، فتعلو الهتافات في الممرات وعلى الأدراج حين يرن جرس «الفرصة»، ويغنون: «حالي حالي حال، أوّلتك رئيس آخرتك زبال». أدّوا في إحدى المرات التحية الصباحية لعلم الثورة. مرات عديدة اقتحمت المدارس، غير المختلطة في داريا. كسّر الشبيحة مقاعد الصفوف. «شُحط» طلبة وكُسرتْ يدُ معلمة. استُبدل المدراء والموجهون مراراً؛ وسدىً أرسلت لجنة من وزارة التربية لتنصح الطلاب بالابتعاد عن المشاكل.

في تظاهرة النساء الأولى تلك، انقضّ الأمن علينا بعد ربع ساعة من تجوابنا شارع داريا الرئيسي الذي أصبح اسمه شارع الثورة. كنا نهتف، وعلى الشرفات والأرصفة أناس يقفون ويتفرجون ويصورون بالهواتف؛

بعض من هؤلاء أبلغ عن المتظاهرين بالاسم. وصل الأمن، ومعهم أناس من داريا نعرفهم جيداً، كانوا يحملون صور بشار الأسد ويهتفون باسمه. انهالوا على المتظاهرين بالعصي والهراوات، وتلتها الأعيرة المطاطية التي أصابت كثيرين. تراكضنا، وفتح لنا منزل بابه فدخلناه. ظل معتز مراد واقفاً وأهدى الورود التي يحملها إلى المخبرين والأمن. اعتقلوه ورفاقاً له، وتهشم فكُّ أحدهم بأخمص البندقية بينما الرصاص الحي يشقّ الهواء فوق الرؤوس.

كانت الجمعة التالية، جمعة «التحدي»، اسماً على مسمى. هيأ الشبان اللافتات والورود، وبعض الفتيات تأهّبن للنزول أيضاً. أمام المسجد المجاور لمبنى بيتنا احتشد عدد كبير من الشبيحة. لم تكن لهم السحنة المعروفة للشبيح طويل القامة حليق الرأس عريض المنكبين. كانوا رجالاً عاديين، غرباء يحملون العصي والسلاسل «الجنازير» والبنادق الروسية، وينتظرون -كما لا يخفى على أحد- انتهاء خطبة صلاة الجمعة، وتؤازرهم من بعيد باصات نقل داخلي مركونة على الشارع العام ومليئة بقوات حفظ النظام والعساكر. كان بمستطاعي أن أشاهد من شرفتي ما سوف يجري للمصلين حين يخرجون ليروا عناصر الأمن والشبيحة متجمهرين أمام الباب، وبوسعهم من ذاك القرب، وبمعونة المخبرين، التعرف إلى من يريدون. لم يجرؤ أحد على الهتاف إلى أن علا صوت «شرارة»، شخص تنطلق التظاهرة بهتافه، فتحلق حوله الشبان ليحموه، وكان من بين شبان داريا «شرارات» يذهبون إلى الجامع الأموي والميدان وجامع الرفاعي في كفرسوسة وغيرها. خفتُ وأردتُ في الوقت نفسه الالتحاق بهم هناك. تحسُّباً، ارتديت ملابس تلائم الاعتقال في برودة ذاك الربيع، وخرجتُ

كمن لن تعود، فاحتمال الاستشهاد يبقى قائماً. كنّ نسوة قليلات وما كنتُ سأخذل اللواتي دعوتُهنّ. بكتنا صديقتي التي كانت سترافقني حين رأتني أودع أطفالي وأسألهم الدعاء.

«الجمعة العظيمة» والحرائر

«الجمعة العظيمة»، ٢٢ نيسان٢٠١١، تاريخ مفصلي في داريا. كانت المدينة شبه محاصرة. مركبات الأمن عند مداخلها وعناصره عند معظم المساجد. كان الاتفاق بين المصلين والمتظاهرين هو الخروج من أكثر من مسجد في الوقت نفسه ثم الالتقاء في الشارع الرئيسي. أكثر من عشرة آلاف متظاهر ساروا على الكورنيش الجديد، وبينهم الكثير من أطباء داريا ومهندسيها ومعلميها ومشايخها. تقدمت التظاهرة في الشارع العام، والأمن مصحوباً بالجنود يتقدم من بعيد من الطرف الآخر. شاهدت ذلك من شرفة منزلي لأنني لم أشارك. تقدم شبان يرفعون وروداً وأغصان زيتون. كان هناك مَن يصوّر وآخرون يتفرّجون، وآخرون توقفوا عن شتم المتظاهرين حين رأوا العدد الكبير الذي أخافهم على ما يبدو. واصل الشبان تقدمهم البطيء وتوقفوا حين أطلق الجنود والأمن النار. أتذكر أحد الشبان مذهولاً يصيح: «مو رصاص حي هاد، ما هيك؟»، بعد ثواني الذهول تلك، تحت زخات الرصاص، بدأ الناس يقذفون الجنود بالحجارة، ثم ركضوا في الشوارع والشبان عراة الصدور يلاحقهم الشبيحة. ثم عمَّ المكان دخان القنابل المسيلة للدموع، وامتلأ به المنزل قبل أن أغلق الشبابيك، وراح الأولاد يسعلون بعيون دامعة، ولاذ بمنزلنا بضعة شبان واغتسلنا جميعاً بالكولا التي كنت قد اشتريتها من الدكان تحت البناية. اعتقل مصابون في

ذاك الهدوء المريب، وعرفنا أن ثلاثة شبان قد استشهدوا بينهم وليد خولاني وعمار محمود.

اليوم التالي، تساءلنا هل سيُنادى في الجوامع بأسمائهم أم لا، ثم نُودي عليهم كأبطال شهداء، وأعلِن عن التشييع ظهر السبت. قُدّر عدد المشيعين بأربعين ألفاً. حين مروا أمام الكنيسة قرعت الأجراس، ونساء مسيحيات رمين الورود من الشرفات على موكب الشهداء الذي جاب الشوارع. لم يشاركنا المسيحيون في التظاهرات، وهم قرابة ثلث السكان في منطقتنا، لكن نساءهم ساعدننا في الطبخ واختبأن معنا؛ ما آذوا أحداً ولا أبلغوا عن أحد أو وَشوا، ولا سلّموا فارّين احتموا بمنازلهم، ولا شقّوا منشوراً أو صورة شهيد علقناها في الشوارع. الكنيسة نفسها كانت مستشفى ميدانياً، وذهبتُ إلى مجلس عزاء أقيم فيها حين استشهد جندي مسيحي انشق عن جيش النظام في حمص. زرنا أمه وواسيناها وحملنا إليها باقة ورد في عيد الفصح. من جهة أخرى، لم أقبل فكرة اقتُرحت في إحدى التظاهرات، حين شاركت معنا سيدة مسيحية وحيدة؛ سُئلتُ أن أرفع الصليب عوضاً عن القرآن. رفضت، وقلت إني لن أشجع أحداً بتنازلي عن هويتي؛ فلترفع الصليب وسأضع يدي في يدها.

أعلِن الإضراب العام إثر «الجمعة العظيمة»، ودُعي إلى ثلاثة أيام من الحداد في داريا. عُلّقت نعوات الشبان وصورهم، جِيء بالكراسي، مُدّدت أسلاك الكهرباء حتى من قبل المحسوبين على الأمن، ونُصبت خيمة التشييع. كانت بمثابة خيمة اعتصام ألقى فيها الكلمات جودت سعيد وأسقفُ داريا وفايز سارة وآخرون. كانت تلك نقلة نوعية، فباتت التظاهرات الأسبوعية

أمراً مفروغاً منه. بدأت اعتصامات النساء، مع فصلهنّ عن الرجال، ولم يتجاوز عددهنّ المائة في أحسن الأحوال، وكان بينهن نساء غير محجبات يأتين من خارج داريا. خرجت كذلك أول تظاهرة للأطفال بوجوهٍ لُوِّنت بالأصباغ لكي يتنكّروا. أحيطوا بشبان يحمونهم، فمَن قتل حمزة الخطيب لن يردعه شيء عن قتل أي طفل.

فُوجئت بمَن ظنناهم عاديين. لكم تأسفت واعتذرت واستغفرتُ ربي لأنني أخطأتُ بتفكيري واستخففت بهم. طالب السمرة، لقبه «أبو صلاح» نمر داريا، مصلح سيارات لا يعرف القراءة والكتابة، أغلق محله منذ بداية الثورة وأجّل خطبته وعرسه، وكان قادراً بقوة جسمه على شدِّ الفتاة من بين أذرع الشبيحة إذا سحبوها، وكأن إنقاذهنّ مهمته الوحيدة. اعتُقل مرتين، وتسلّم الأهل جثمانه من الأمن بعد وفاته تحت التعذيب. كان أول من حطّم تمثال حافظ الأسد ومكشوفَ الوجه داسَ رأسه.

استفحل المخبرون «العواينية»، وهم من أهالي داريا ويعرفون الجميع. كانوا يتلثّمون ويقودون الأمن إلى اقتحامِ البيوت. روّجوا لشائعة العفو في حال تسليم النشطاء أنفسَهم؛ بسببهم اعُتقِل كثيرون وتخفّى آخرون. كان إسلام دباس بين أول المعتقلين، وبعده بشهر واحد في رمضان اعتُقل مجد خولاني في كمين، وكان كلاهما طالباً جامعياً. كان مجد «شرارة» تظاهرات، ذا شعبية وصديق غياث مطر، فوضعه الأمن في سيارة وجابوا به شوارع داريا، ليجعلوه عبرة للأهالي ويحبطوهم ويكسروا المعنويات. بعد عيد الفطر، اعتُقل يحيى الشربجي وغياث مطر في كمين آخر، وكان لاستشهاد غياث تحت التعذيب صدى كبير. حين توافد المعزُّون، وبينهم

سفراء خمس دول غربية، أخفى عناصر الأمن البنادق والمسدسات تحت ستراتهم، وهم يتوعّدون خلسة شباناً جريئين رووا ما جرى أمام المعزّين، وعرضوا تصوير التظاهرات وقوائم بأسماء المعتقلين. شاركت النساء في تشييع غياث، وللأسف لم يكن عدد المشيعين يتجاوز المائة، فمئات الجنود بعتادهم الكامل كانوا يطوّقون الجنازة. زغردت امرأة وصرخت بأحد الجنود: «غياث يخيفكم حتى في موته»، فأوشك على ضربها لولا ضابط أمره بالابتعاد وعدم التعرض للنساء.

«عذراً حماة، سامحينا»، كانت جمعة رهيبة في شباط ٢٠١٢. سقط ٣١ شهيداً خلال أربع وعشرين ساعة. وأثناء تشييعهم سقط شهداء آخرون. قبلها بوقت قصير، نهاية كانون الثاني، شاع أن لجنة المراقبين العرب قادمة إلى داريا، فاستعدّ الشبان لمقابلتهم، ونزلت أنا أيضاً إلى الشوارع. كانت المحلات مغلقة، والشبان يهتفون ويضرمون النار في حاويات القمامة والدواليب، وساعدتهم في تكسير الأحجار لنرشق بها الأمن، ومعي امرأتان وأولادهما في التظاهرة. ثم بدأ إطلاق الرصاص. سمعنا الدوشكا للمرة الأولى، ورأينا الرشاشات المنصوبة على السيارات. كانت حالة أشبه بالحرب، لكن البقاء في الشارع بدّد مخاوفنا. ثم ازدادت أعدادنا ولم نلبث أن تفرقنا، كلّ ثلاث نساء في شارع، لنعود إلى بيوتنا وأولادنا المذعورين. علمنا بسقوط العديد من الشهداء، وعلمنا أن نبأ وصول لجنة المراقبين كان خدعة أشاعها النظام ليثنينا عن مقابلتهم عند دخولهم داريا يوم التشييع. كان عدد المشيعين كبيراً، وكثيرون يرغبون في التحدث إلى المراقبين. للمرة الأولى، ليلاً وتحت وقع الرصاص، أنزل شبانٌ علم النظام عن السارية في ساحة التربة، ورفعوا علم الثورة الذي بقي عالياً هناك إلى اليوم التالي،

لتلتفّ حوله مجموعة من النساء والرجال ويؤدوا التحية ويردّدوا النشيد العربي السوري. كان بدني كلُّه يقشعرّ في ذاك الخشوع. ارتفع علم الثورة على المستشفى الوطني أيضاً، وشُيّع شهيدان بحضور اللجنة.

بعد هذه الجمعة، في شباط ٢٠١٢، بدأ إصدار «عنب بلدي»، كجريدة حرة مستقلة، وازدادت المهام التي يتعيّن على النساء القيام بها، وقلّت مشاركتهن في التظاهرات. كن يقمن بزيارة عوائل الشهداء والاعتناء بأبنائهم ودعمهم نفسياً، بالأحرى دعم جميع الأطفال لأن ما سمعوه وما شاهدوه بأعينهم مِن قتل كان فظيعاً. قمنا بدورات للإسعاف الأولي الذي ينبغي الإلمام به. كنا نخرج كأننا ذاهبات إلى سهرة، فنوزع المنشورات قبل صلاة العشاء ونحن منقبات خوفاً من «العواينية»، فنرمي في مداخل البنايات منشورات توعية ثورية استفزازية، وفي إحدى المرات لم يتعرّفْ أب إلى ابنته المتنكرة وهو يبدي إعجابه «إنتو أخوات رجال»؛ كما كنّا نضعُ في الليل أعداداً من «عنب بلدي» أمام المنازل والمحلات وحتى باب المخفر، وبحلول رمضان ٢٠١٢ كنا قد وصلنا إلى حد نقرع فيه أي باب ونناول الجريدة لمن يفتح لنا، وكنا نراها تُقرأ في الشارع، وأحياناً تُمزَّق مشفوعة بالشتائم أو تُرمى فوراً في القمامة، إذ بالطبع لم يكن كل الأهالي في صفوف الثورة. كانت طباعتها مكلفة، وأردنا إيصالها حتى إلى مَن يرفض فكرتها ولا يحب قراءتها. استشهد مؤسسو «عنب بلدي» في إحدى التظاهرات، أحمد شحادة ومحمد شحادة (أبو يزن) ومحمد قريطم (أبو النور)، وكان ثلاثتهم قد قاموا بتظاهرة الفزاعات، فألبسوا الدمى والمانوكانات ملابس أطفال ورجال وفتيات، ووضعوا على وجوهها صور الشهداء وحمّلوا كلَّ دمية خشبيةٍ لافتةً، ثم وضعوها جميعاً على الرصيف في مركز داريا فبدت من

بعيد كأنها تظاهرة؛ ظلّت يومين هناك دون أن يمسها أحد، إلى أن دخل الأمن وكسّرها جميعاً. أما اللافتات، نهاية ٢٠١٢، فكانت تملأ الشوارع وتزيّنها، كبيرة ومعلقة على أعمدة الكهرباء، مثل: «إن الله لا يغيّر ما بقوم حتى يغيّروا ما بأنفسهم»، وكنا نعتبر كلَّ مَن يزيلها مخبراً. كنا متفائلين ذاك الشتاء؛ حكتُ أوشحة وطاقيات وقفازات لألبسها مع أطفالي يوم النصر، فسقوط هذا النظام الذي صببنا عليه اللعنات سوف «يشفي صدور قوم مؤمنين»، وأنا نفسي سأتشفّى بأية طريقة كانت.

في «جمعة الحرائر» اعتُقلت ثماني نساء، واستشهد شبان في التظاهرة التي طالبت بخروجهن. ألصقنا صور الشهداء على سور حديقة الأطفال، وعلقناها على جدران المدينة، وعلى كل صورة اسم الشهيد وتاريخ استشهاده وعبارةٌ قالها. كنا في مرحلة توقف فيها محو ما نكتبه أو «نبخّه» على الحيطان. وفي العيد الأول للثورة أعددنا السكاكر ليوزّعها أطفال وقفوا على أبواب المساجد، واحتوت كلُّ حبة علم الثورة ومنشوراً صغيراً وعبارة «كل عام وأنتم بخير». خاف بعض الخارجين من الصلاة كأن السكرة قنبلة ستنفجر في يده.

رمضان الحرية

بدأنا نطبخ للجيش الحر في رمضان ٢٠١٢. مقاتلوه أولادنا، وإن كنا غير راضين عما ارتكبوه من أخطاء. كان الطعام يُرسل أولاً إلى عوائل الشهداء والمعتقلين، ويُوزَّع أيضاً على فقراء داريا وعلى النازحين الهاربين من القدم والعسالي. الطاهيات كنّ مسنّات، يطبخن كميات كبيرة قد

تُطعم ألف شخص أحياناً، ولا بد من تجهيز الوجبات وإنهائها قبل صلاة المغرب. انتقد كثيرون تصوير نشاطات مثل هذه، يجب أن تبقى دائماً طي الكتمان. بدأتْ أيضاً في رمضان حملة «إزا البلدية ما اشتغلت البركة بالشباب»، فالنظام أهمل كل المرافق العامة وطفحت الحاويات بالقمامة، والناس صائمون يخشون تفشي الأوبئة والأمراض، انقطعت الكهرباء والمياه، ومثلهما قُطِعت خطوط الهاتف والإنترنت. كان النظام قد سبق هذا العقاب بإدخال الدبابات للمرة الأولى إلى داريا، فهدّمتْ دبابة حائط المقبرة الطويل الذي رسم شبان على امتداده علم الثورة ولوّنوه، وفي اليوم نفسه استشهد بقذيفة هاون ثمانية أشخاص من عائلة واحدة. أصبحنا الآن نقول: «ألا ليت الهاون يعود يوماً»، فعتبة خوفنا ارتفعت تدريجياً؛ وزّعنا مناشير على الناس ليحترسوا من قذائف الهاون، بالابتعاد عن الشبابيك وإخلاء الطوابق الأخيرة إذا ما كانوا يسكنونها. سوّر الشبان المقبرةَ من جديد، رغم خوفهم من معاودة التهديم، وعبء التكاليف التي لم تسدد البلدية شيئاً منها بل دفعها الأهالي من جيوبهم. استمروا في الحملة كلّ يوم أسبوعاً كاملاً ـــ من دون مشاركة أية امرأة ـــ يكنسون شوارع مدينتهم حتى أمام المخفر وهم يحادثون الشرطة في داخله؛ الصهاريج ترش الماء على غبار الشوارع، والسيارات تطلق أغنيات مثل «يا حيف» لسميح شقير. كانت النظافة مشمومة في داريا الخالية من الأمن، والجميع صائمون في صيف لاهب. لم تكن مخيفة الاقتحامات القليلة التي حدثت. استردت داريا زخمها، وبدأت شوكتها تقوى حين اتفق الطرفان المدني والمسلح على أنهما كتلة واحدة. قُتل العديد من المخبرين، واستهجن قتلهم كثيرون في داريا التي تأخرت عن مناطق أخرى في تصفيتهم، أحدهم المخبر الذي

استدرج غياث مطر. أنشأ الثوار لجاناً للنظافة، وشرطة مرور، وشرطة عسكرية لها مخفرها الخاص وتتولى محاسبة تجاوزات الجيش الحر، مثل تجول مقاتليه مدججين بالسلاح ومصادرتهم السيارات الحكومية من أصحابها.

اقتلعت الدبابات أيضاً شجرة زيتون كبيرة في وسط المدينة. كانت أحد رموزنا، فقررنا نحن الحرائر أن نضع في مكانها شجرة تحمل أوراقها أسماء أبنائنا الشهداء والمعتقلين. أحضر الرجال شجرة جديدة زيّنّاها بالمصابيح. خرجنا نحن النساء في تظاهرة، رافعاتٍ أسماءَ الشهداء وعباراتهم على اللافتات، وعلى لافتات أخرى كتبنا ما تودُّ الأمهات أن يقلنه كرسائل قصيرة لأبنائهن الذين استشهدوا، وعلّقنا صورهم على أشجار الأرصفة، وألقينا كلمات في مكبرات الصوت على مسامع الجميع، وسمعنا أيضاً من يوبّخنا ويشتمنا.

الحصار والعودة والفرار

فكرنا، نحن كتجمع الحرائر، بمعرض للثورة في المركز الثقافي للمدينة يقام ثالث أيام العيد. كنا سنعرض الصور واللافتات المميزة ورسوم الأطفال، وكذلك مقتنيات الشهداء، وخاصة النشطاء منهم، وما تحيكه زوجاتهم، ثم نوزع الريع على المحتاجين. جهّزنا كل شيء. بعد إحصاء وتمحيص دقيقين لمئات الأسر وأحوالها، أتينا بهدايا رمزية من أجل أمهات الشهداء والمعتقلين والمفقودين وزوجاتهم وبناتهم، مثل طقم صلاة أو بلوزة، وجلبنا لأطفالهم ألعاباً وثياباً جديدة كـ«عيديات»؛ لم ننسَ أبناء المخبرين المقتولين لأن الابن لا يؤخذ بجريرة أبيه. نمنا بسلام في أول أيام العيد. في

اليوم الثاني سقط صاروخ على أطراف داريا فاستشهد ثلاثة شبان، وعندما هبّ الناس لمساعدتهم سقط صاروخ ثانٍ ليسقط ثلاثة شهداء آخرون. لم يشيّعهم أحد، فقد شاع نبأ أن النظام سوف يفعل بداريا ما فعله ببابا عمرو. دفع الرعب الناس إلى التزود بالطعام، وكنا قد اعتدنا قليلاً الحصار، واختبرناه أسبوعاً تحت القصف بعد جمعة «عذراً حماة»، حين تقاسمنا الرز والسمن والشموع، في انقطاع تام للكهرباء طوال ذاك الوقت وإقفال كل الدكاكين والمحلات؛ كنا نتناقل الخبز عبر الشرفات، وناولته حتى إلى إحدى الجارات المؤيدات التي كانت تسبُّ المتظاهرين وترمي القمامة عليهم حين يعبرون تحت منزلها، وحين زرتها رأيتها في فقر مدقع مع ابنها المصاب بمرض عضال، فاستغربت تأييدها للنظام الذي لم يوفّر لها حتى حبة سيتامول.

كان في داريا وقتها عدد كبير من الحماصنة النازحين، وفُتحت لهم بيوت كثيرة مجاناً، ووزع الأهالي عليهم ملابس أسرهم أحياناً وتكفلوا بإطعامهم. في ثالث أيام العيد، الأربعاء ٢٢ آب ٢٠١٢، وقعت المجزرة الكبرى. كبّرت المآذن، ونادت علينا بالنزول إلى الملاجئ التي وقف أمامها مقاتلو الجيش الحر. لم نصدّق ما كنا نسمعه من قصف بالصواريخ والطائرات. غادر البعض المدينة على الفور مجازفين، وقضى بعضهم على الطريق. حملت حقيبة الإسعافات الأولية معي وهبطت إلى الملجأ. يوم الخميس قُطعت الكهرباء والاتصالات وانقطعنا عن العالم كله، اللهم إلا بقاء الهاتف الأرضي. كان في الملجأ أكثر من عشرين طفلاً وامرأة، إحداهن حامل، فصلتنا عن الرجال ستارة صُنعت من الشراشف، كنا نتبادل التحيات والأحاديث من ورائها. حاولنا تهدئة الأطفال بالقصص الملونة ودفاتر

الرسم، وأعددنا للمقاتلين شطائر الزعتر، وطبّبت ممرضةٌ الجرحى في المشفى الميداني وسهرت على مداواتهم، ولم يقل لها أحد لا تخالطي الرجال ولا تلمسيهم فينتقض وضوؤك.

كان الطعام القليل كافياً، فمَن به شهيةٌ في الرعب؟ لم نكن نعرف ماذا يجري. القصف يرجُّ الملجأ، ولا أحد يجرؤ على فتح الباب. عبر زجاج القبو المهشّم بضغط القذائف كنا نرى الشبان في الخارج يطبخون أرزاً بالفول ثم يأتون به إلينا. ولدت المرأة الحامل من دون طبيب، وأنزل المقاتلون جثمان شهيد بيننا لتودعه أمه. لن أنسى ذاك الوداع ما حييت.

ثقيلاً مرَّ الوقت؛ إلى أن قال أحدنا إنه يريد مشاهدة الأخبار، فأتى رجل آخر بمولد كهرباء وزوّده زوجي بما تبقى لدينا من بنزين، وأردف آخر بأنه سيحضر التلفزيون، وحين شغّلناه بدأ الذعر. كان أول خبر سمعناه على قناة «العربية» يوم الجمعة، بعد انقطاعنا عن العالم بأسره، هو انسحاب الجيش الحر ودخول جيش النظام إلى داريا. صُدمنا جميعاً، وتخيلنا المذابح التي قد تقع إثر هذا الانسحاب المباغت. لكني أفكر الآن كيف كان لألف مقاتل بأسلحة خفيفة الصمودُ أمام آلاف مؤلفة من الحرس الجمهوري وقوات النخبة؟ كان الخطأ مهولاً. كنا مشتتين تماماً في تلك الفوضى. ما عدنا نأكل في ذاك الترقب، مكتفين بجرعات صغيرة من الماء لنبقى على قيد الحياة. غفونا متلاصقين. صباح السبت التالي، صعدنا إلى الشوارع مثقلين بالخوف والحزن. لم يرغب البعض في المغادرة، وآخرون لاذوا بالمدارس البعيدة إذ لا مكان آخر ليأووا إليه، ولا أقرباء لهم في دمشق أو في أي مكان آخر، أو لا وسيلة نقل عندهم أو أنهم خسروا سياراتهم

في القصف. احترنا أي الخطرين نختار، البقاء أم الخروج. حين سألنا الشبان المقاتلين أجابونا أن المغادرة مسؤوليتنا، فقد تعني الموت قصفاً أو إعداماً ميدانياً على الطريق. استجبتُ أخيراً لإلحاح صديقتي كي أغادر، وقد كررت على مسامعي مراراً «حتى الرسول هاجر». بعد مسافة قصيرة من سير السيارة التي أقلّتنا، رأينا ربما نصف سكان داريا خارج منازلهم، مسرعين يحملون أغراضهم كيفما اتفق لهم، في أكياس وحقائب، والمركبات التي تتسع لخمسة أشخاص تحمل خمسة عشر أو أكثر، بينهم جرحى ومصابون. حملنا معنا امرأة عجوزاً تعطّلت السيارة التي كانت تقلّها. لم يتعرف إليها أحد من الركاب، ويعلم الله كيف أفسحنا لها مكاناً في اكتظاظنا، ولا أعلم مَن أتى فيها بعد ليأخذها. عادت السيارة أدراجها لأن الشارع الذي انعطفت فيه كان مسدوداً بأنقاض بناية انهار نصفها، ثم عُدنا من شارع آخر أيضاً لأن عمود كهرباء قد تهاوى على الإسفلت، وكانت هناك خزانات، ماء أو مازوت، قد تفجّرت وسالت محتوياتها في الأرجاء. في شوارع أخرى رأينا جثثاً مرمية لا يجرؤ أحد على الاقتراب منها خوفاً من تربّص القناصين.

شغّلت التلفاز فور وصولي إلى منزل صديقتي في دمشق، وصدمت بالمجزرة. بقلوب مضطربة وأعين لا تصدق كنا نتابع كيف يرتفع عدد الشهداء. ما أحصي من جثامينهم المئات، ما عدا المعتقلين والمفقودين. لست متأكدة من الرقم. دُفن بعضهم من دون معرفة أسمائهم. عوائل بأكملها مثل آل السقا أعدمت أمام منازلها، ذُبح الجد فيها والحفيد. النشطاء في الإعلام والإغاثة والطواقم الطبية في المشافي الميدانية كحفاري القبور لم يتوقفوا طوال تلك الأيام عن دفن الموتى.

كرهت نفسي لأنني غادرت وتركت أهلي وأعزاء قلبي، لكن هلعي كان أقوى من طاقتي على الاحتمال. رحت أبحث عن المدارس التي نزح إليها أهالي داريا، لأقدم لهم أي شيء، ولو مجرد كلمة. نزحنا، نحن الذين آوينا مِن قبل مَن نزحوا إلينا، وجُعنا، نحن الذين أطعمنا مَن لجأوا إلينا. أهل دمشق، السُنَّة ممّن يعمرون المساجد، كانوا يطلبون من المهجَّرين الفارين بجلودهم مبلغاً كبيراً، مقدماً كإيجار شقة لستة شهور، فقصد الناس صحنايا المجاورة وجرمانا والسويداء، فكيف لا ينقم النازحون على أمثال أولئك السماسرة والمالكين، وقد تفوق تلك النقمة الحقد تجاه العلويين الذين أمعنوا في قتلنا؟ هذا الحقد الطائفي الذي زرعه النظام في الصدور وربّاه بخطوات مدروسة قد تجذّر وخالطه الاشمئزاز، وما عاد اقتلاعه هيناً أو ممكناً. لن ينسى المعذَّبون ما سمعوه، مغمَضي الأعين، من شتائم طائفية وتجديفات يكررها الجلادون باللهجة العلوية. أتذكّر حين اختطف الأمن شباناً من داريا، نكّل بهم وقتلهم، ثم رماهم أمواتاً في ساحة المدينة، وألقى التهمة على أهل صحنايا، وسكانها من دروز ومسيحيين عايشناهم سنين طوالاً من دون أن يحدث بيننا أي شيء من هذا القبيل. تدخل العقلاء من الطرفين، ودعونا في تجمع الحرائر نساءً من صحنايا، درزيات ومسيحيات، فشاركننا تظاهرة في الشارع العام في داريا، وهتفنا معهن: «من السويدا جيناكي داريا، وعلى الموت ما نهاب المنية». كما لم تُرفع في داريا راية الجهاديين السوداء. كُتبت على بعض اللافتات آيات قرآنية، أما هذه الراية فسياسية المعنى. حاول بعض الفتيان المخلصين أن يرفعوها لتعلو شهادة «لا إله إلا الله»، فإيمانهم أن الثورة جهاد. هي كذلك، مثلما الاعتصام جهاد أيضاً وبذل الجهد في سبيل أية قضية حق؛ لكنهم تراجعوا بعد محاججتهم حول القاعدة

وطالبان، واحتمال أن يُستغلّ مثل هذا الحدث إعلامياً. ضرب لهم أحد الشبان مثلاً: «ما رأيكم أن نرفع في تظاهرة الغد لافتة «ألا إنّ حزب الله هم الغالبون» بحروف خضر على خلفية صفراء؟»، أي الآية الكريمة التي ظنها البعض حكراً على حزب الله، ليستهجن أحدهم على الفور: «لا يجوز. هذا نصر الشيطان».

عدنا إلى داريا بعد أسبوع، والحواجز لا تزال على مداخلها وفي أحيائها. ضجت المدينة بالحياة، بالعناقات والقبل والمصافحات؛ رجل لا أعرفه يحييني، وبائع الخضار يحيي كل من يعبرون. كنا جميعاً عائدين من الموت إلى دمارٍ نسبي، فما خلّفته الحرائق ممكن إصلاحه. لكن، آه، عدد الشهداء كان هائلاً. ربما ما من عائلة لم تخسر شهيداً، استشهد حتى الشاب الطباخ في الملجأ. دخلت داريا حداداً لم يدم أكثر من شهر، فالنظام ارتكب ما ارتكب بحق المدنيين تشنيعاً بالثورة، ليمقتها الناس ويكرهوا الجيش الحر. عاد الحراك من جديد، ضعيفاً هذه المرة بسبب الخوف من تكرار المذبحة. خفنا من إفنائنا جميعاً إذا توقف الحراك. لم نلُمِ الخونة لأنهم قلة قليلة. اكتشفنا كم كانت أخطاؤنا فادحة، وكيف اغتررنا بما أنجزنا وخضنا المزاودات والمهاترات، وبتنا نصادف العنجهية حتى لدى أطفالنا. توحد شتات التنسيقيات والكتائب وأنشئ المجلس المحلي لمدينة داريا الذي خلا من النساء، وله السلطة السياسية على الكتيبة الموحدة «كتيبة شهداء داريا». بعد أربعين يوماً من المجزرة الكبرى، خرجت أول تظاهرة من جديد مع الزغاريد، وبث على قناة الجزيرة برنامج «أخوة العنب والدم».

حاولنا في تجمع الحرائر إعادة الناس إلى الثورة بأية وسيلة، واستعادة روح التآخي، ولم تكن قط بالمهمة اليسيرة. زرنا الأسر المكلومة، وزعنا المناشير

ورفعنا اللافتات لمحاسبة الثوار والمقاتلين، فهم أبناؤنا أولاً وأخيراً مهما كانت علاتهم وذنوبهم، وبينهم الجامعيون والنجارون والزعران. علّمنا أبناء الشهداء والمعتقلين. لم يكن سهلاً على الإطلاق إقناع امرأة فقدت ابنها بالعدول عن موقفها، وهي تدعو بالسوء على الثورة وتستنزل اللعنات، فهي ذاتها من كانت تهتف للجيش الحر وتوشك أن تؤلهه، وآنذاك حين كنا نهدئ من مثل تلك الغلواء كان البعض يرمقنا بعين الريبة وكأننا موالون للنظام. أجرينا استفتاء مصغراً وزعنا أوراقه على الناس الذين يرتابون غالباً بكلمة «المدنية»؛ إنها تقلقهم لأنها تذكرهم بحكم البعث والعلويين. أردنا أن نستطلع ماذا يريدون، وكيف يتصورون شكل الحكم في المستقبل. كان جواب معظمهم: نريد أن يحكمنا إنسان، يعدل ويخاف الله؛ سمعنا الجواب نفسه حتى بين القبيسيات اللواتي يرين الحرائر متفلتات، ومعظمهن يخشين الخروج عن رأي مشايخهن الذين سموا الثورة فتنة.

بالرغم من انهمار القذائف اليومي، وسقوط شهداء أحياناً ولكن فرادى، واصلنا أعمالنا التي استأنفناها بدأب، إلى أن راجت شائعة حول اقتحام داريا مرة أخرى. لم يصدق بعضنا هذا الخبر. لكنني في الثامن من تشرين الثاني ٢٠١٢، بينما أُعِدُّ أولادي للذهاب إلى المدرسة، سمعت إطلاق نيران بعيدة. بدأ النظام باقتحام شرقي داريا. دخلت قواته من دوار «أبو صلاح» الذي كان اسمه دوار الباسل، مثلما تغير اسم شارع المعضمية إلى شارع غياث مطر، بالإضافة إلى أمثلة كثيرة أخرى، وبدأ الناس يعتادون التسميات الجديدة. كان ذاك الاقتحام احتلالاً، استفزازاً واستعراضاً للقوة. خمسة أيام من الاعتقالات العشوائية ونصب الحواجز الضخمة؛ نهب خلالها الجنود بعض المنازل وأحرقوها، وأحرقوا شاباً وهو حي عندما حاول إخماد

الحريق، ثم قتلوه واصطبغت مياه الإطفاء بدمائه. لم يقترب منهم أحد، لا الأهالي المدنيون ولا الجيش الحر. كنا عاجزين على الطرف الغربي من المدينة، نتحرك باحتراس، وقد استشهدت شرقاً امرأة داخل منزلها لم تفعل أي شيء. أردتها طلقة قناص. ذهبنا نتموّن من البقاليات مرة أخرى. ثم وزع عناصر الجيش الحر تعليمات سرية بإخلاء المنازل القريبة من الحواجز لأنهم سيهاجمونها، وأحضروا سيارات لمن لا يملكونها، وغادر العديد من الأهالي منازلهم بهذه الطريقة. خرجت إلى الشرفة ورأيت مقاتلي الجيش الحر في الشوارع، وهم يخبرون أصحاب المحلات بالنزول إلى الملاجئ في ساعة محددة. استجاب الجميع وتهيأوا. كانت ليلة رهيبة. أصوات القصف فظيعة والأبنية ترتجّ، لأننا كنا قريبين من الحاجزين المستهدَفين، الأول عند دوار أبو صلاح والثاني عند الفرن الآلي. في الصباح جاب مقاتلو الجيش الحر الشوارع ليخلي جميع الأهالي داريا، لأن الحاجزين قد تم تدميرهما تماماً، وقُتل عناصرهما القادمون من الفرقة الرابعة، وأُسِر مَن بقي حياً منهم. بدأنا نفكر بخروجنا الثاني في وقت مبكر من صباح هادئ. غفونا في ذاك الهدوء المخيف. ظهيرة ذاك اليوم نفسه، قصفت طائرات الميغ داريا للمرة الأولى. أيقظنا انهيار المبنى المجاور. استشهدت في بنايتنا عجوز وتهدم جزء من مطبخنا. قررنا الخروج بأسرع ما استطعنا، ثم خرجنا من سورية كلها، ولم يكن معنا غير حقائب اليد.

القشور والأصول

داريا ليست قرية. عدد سكانها يناهز ٢٥٠ ألفاً. حين دخلت الجامعة سنة ١٩٩٤، والتعليم في عرف عائلتنا فرض عين، كان عدد المتعلمات

الجامعيات لا يتجاوز الخمسين. كان المهم بين الأهالي المحافظين تعلُّمُ القراءة والكتابة أولاً، ثم دراسة الطب أو الشريعة، أما ما تبقى فاعتبروه هدراً للوقت ومجلبة للمشاكل ومفسدة للأخلاق. العديد من زميلاتي المتفوقات الأوائل في البكالوريا لم يكملن تعليمهن. منذ عام ٢٠٠٠ وحتى بداية الثورة تناقص عدد غير المتعلمات ليصبحن هن الأقلية، وباتت الفتاة غير المتعلمة تخجل من واقعها. أعتقد أن السبب الكامن وراء إرسال الفتيات إلى الجامعة هو المباهاة أولاً والخجل من التخلف عن الآخرين، ثم الراتب والمردود المادي إذا توظّفت المرأة لاحقاً.

أعتز بأنني حفظت القرآن الكريم وختمته، وأعتز بثقافتي الإسلامية البعيدة عن الخنوع، وهي بعيدة عما يُدرَّس في كلية الشريعة وأساتذتها أمثال الشيخ البوطي رحمه الله، وما ينطوي عليه ذاك التدريس من تبرير للاستبداد الذي شرحه الكواكبي وجمال الدين الأفغاني ومحمد عبده ومفكرون آخرون. درست العلوم الإسلامية في المساجد، وتابعت فكر جودت سعيد. قرأت عن الأئمة والفقهاء والخلفاء. قرأت كل ما صادفني في البداية، وأعجبت بمن أخالفهم، فأحببت مَن قلبوا الطاولات بإصرارهم عبر التاريخ من البروتستانت إلى الشيوعيين، ثم بدأت الغربلة والانتقاء.

بعد تخرجي من الجامعة، ونيل دبلوم التأهيل التربوي، تزوّجتُ وتوظّفت وأنجبت، فوصلتُ، كما وصفتْ ابنتي، إلى المستقبل. حين ربيتها لم أفرض عليها الحجاب الذي أراه فرضاً ربانياً وأحبه لأنه جزء من هويتي، إنما حبّبتها فيه. ابنتي هذه، إذا تقدم لخطبتها أحد، فلن أقبل بزواجها تقليدياً، مثلما لا أقبل أيضاً بأن أراها تمشي ضاحكة برفقة شاب غريب في الشارع.

أنا مع تعارفهما والتقائهما في خطبة لائقة ومقبولة شرعاً ضمن الضوابط الإسلامية. المجتمع قانونه العيب والسياسة قانونها الممنوع والقرآن قانونه الحرام. لا يعنيني العيب ولا أقف عنده، أما الحرام فيستوقف عقلي أولاً لأتصرف بما يمليه عليّ الصوابُ ورجحان العقل، فهناك القشور وهناك الأصول في التصرفات. عموماً، لدي أفكار وانطباعات سيئة حول العلاقات بين الجنسين التي لا ينظمها أي ضابط، فقد تستمر أعواماً ثم تنتهي هكذا، مثلما بدأت.

لا أخشى تقهقر المرأة، والذين يرونها ضلعاً قاصراً كذَبَةٌ يدّعون الثورة. انتهى مفهوم قالب المساواة الحديدي الذي راج طويلاً وأنا نفسي صدّقته أيام الجامعة. الواقع مختلف الآن، وعلينا احترامه. ليس هذا انتقاصاً من شأن المرأة التي أعتقد أنها لم تنضج تماماً بعد، ولا أستطيع مثلاً تخيلها في وزارات مفصلية مثل الدفاع أو المالية، فما بالها برئاسة الجمهورية. النائبات في مجلس الشعب كنّ مجرد صور كالمجلس كله. سورية كلها فُطمت عقوداً عن ممارسة السياسة. المرأة صورة مصغرة عن الشعب السوري كله، لكنها عاشت ظلمين ولا تزال تحبو في السياسة، وأمامها تمارين طويلة قبل دخول هذا الماراثون. تمنيت أحياناً لو كنت رجلاً، ولا بد من الاعتراف بأنني تعبت من التعامل مع النساء خلال الثورة؛ معهن يتباطأ العمل وتأخذ الأمور منحى شخصياً، فيتصرّفن كأطفال لم تُحْسَنْ تربيتهم. ولهذا فضّلت دائماً التعامل مع اللواتي يشبهنني ويفهمنني. أنا أؤمن بالعدالة وقيامها على فكرة التكامل وسدّ النقائص بين جميع الأطراف، من دون أن تستكين المرأة وترضى بالتهميش الذي فرضه الرجل عبر التاريخ، لتتنقل كالمحبوسة بين المطبخ والمكياج والأبراج. العلاقة مع الرجل ليست مبارزة ولا تبارياً.

نساء بانياس اللواتي اعتصمن على الأوتوستراد بين طرطوس واللاذقية بعد اعتقال رجالهنّ، لم يتخرجن من السوربون ولم يحفظن القرآن الكريم، لكن في داخلهن إنسان حقيقي يعرف الحق، والحق يبقى بينما صدى جعجعات التطرف الشاذة زائل، وسيختفي مثله المتطرفون الدخلاء كما تلاشت فقاعة العرعور. الشعب السوري وسطي، وسوف تتجلى الموروثات التي يحملها حين تنزاح إلى الأبد طغمة الأسد، فبين أبنائنا أمثال محمد معاذ الخطيب ذي الدين والأخلاق، رجل قاسى ما قاساه الناس ولا يتبجح، صادقٌ مع نفسه وابنُ زمانه.

كنت أردد، إثر كل مداهمة تذهب بأشخاص أعرفهم أو عملت معهم: «يا رب، لا تتركني وحدي. إني أخاف من دونك. آمنت أن لا قضاء غير قضائك». يدرك كلُّ مؤمن أن الله معه في كل خطوة يمشيها على الطريق، ابتغاء مرضاته تفانيتُ في الثورة. لا يجوز لي الإيمان برب العالمين وبالقرآن بينما أنا جليسة المنزل لا أقدّم ما أقدر عليه، فلا أغيث ملهوفاً ولا أدفع الأذى عن مستضعف ولا أناصر مظلوماً. يمكنني تهدئة ضميري في ما يخصني، ويمكنني أن أخرِس نفسي إذا ألحّت علي؛ لكن ماذا سأقول حين أُسأل يوم القيامة عما فعلت؟ إذا لم أستطع التغيير فقد أستطيع التقليل من الخسائر. كنا عشرات من الحرائر، ولم أسمح بأن يهاجمن «منحبكجية» وحيدة كانت ترتدي بلوزة طبعت على صدرها صورة بشار، وانقضّت علينا بالضرب والشتائم. إنها جريحة ومهزومة أيضاً.

لا تحتاج الثورة إلى اجتهادات، ولا تحتمل التفكير بأننا أخطأنا في القيام

بها. أنا مؤمنة بالله تعالى وعدالته، فكان عليّ إما الوقوف متفرجة، لأخجل وأندم في المستقبل إذا سُئلت ماذا فعلت في الأوقات الجميلة والعصيبة بينما مستقبل سورية كلها يُصنع ويُدمَّر أمامنا، أو عليّ المشاركة أو الوقوف مع النظام، والخيار الأخير بالنسبة إلي كفرٌ لأنه مؤازرة للظلم والذل. يقول القرآن الكريم: «أتستبدلون الذي أدنى بالذي هو خير». لقد امتُحنّا لنقف ضد الباطل، وهذا النظام باطل الأباطيل. لا أعترف بالحياد، ولا أستطيع أن أبرّر التخاذل والتذرع بأن الثورة ما عادت ثورة بل انقلبت حرباً أهلية. لا أصنف نفسي مع المثقفين أو المنظّرين أو النخب المنهمكة بتصدير أفكارها، فحتى ذوو الرأي السديد يطرحون آراءهم بخجل إن لم يكونوا متواجدين على الأرض. أنا ابنة أولئك الناس الذين خرجوا في البدايات، ثم خُذلوا ويجب أن أبقى معهم. ما يحدث مخيف، الأنا مخيفة والغرور، لكن الصواب هو الاستمرار. تشرّدُنا امتحان، وعذابنا وألمنا؛ خُدعنا وربما لم تبقَ مصيبة لم تنزلْ بنا نحن السوريين.

غصة القلب بفقد الأحبة هي الأكبر، فقدت سورية ثروة من شبان نجباء استشهدوا، ولا شيء يعوّضنا عن هذا المستقبل الذي خسرناه. لكن البلاد كانت مثل إنسان مشلول شللاً رباعياً طوال خمسين عاماً، يعيش ويتنفس فقط، ثم أيقظه الألم. كلُّ آلامنا دليلٌ على التعافي. كنتُ خائفة في كلِّ ما قمتُ به، والشجاعة هي القيام بما نخشاه. علامة خوفي دقات قلبي التي كان اشتدادها يُقعدني أحياناً، فلا أقوى على فعل أي شيء حتى الرد على الهاتف. تعلمت أنني إذا ركنت إلى خوفي تكلّسَ حولي وأيبسني، والخوف إذا طال، مثل دودة القز، ينسج حول الإنسان شرنقةً بصلادةِ الإسمنت، وعليّ بالتفاني في ما أقوم به، لأنني قد أموت في أية لحظة. الثورة قامت

بسبب الأطفال ومن أجلهم، ولا أصدّق متى تحين الساعة لنبدأ بعلاج أطفالنا الذين عانوا كثيراً، وقاسوا الحرمان والفقدان. مؤخراً اشتريت لأولادي قصص المكتبة الخضراء ومنعتُ عنهم مشاهد الموتى والجرحى. حاولتُ وأردتُ أن يعودوا أطفالاً.

(نيسان ٢٠١٣)

الزبداني

المغضوب عليهم

قبل شهرين من الثورة التي تلاحقت شراراتها قبل أن تندلع، وقعت حادثة كان لها على أهل الزبداني أثر بليغ، خرجوا على إثرها يتظاهرون في ساحة المحطة. خُطف طفل من عائلتنا، ولم تفلح جهود الوجهاء في إرجاعه. أهملت الشرطة شكوانا إلى حد ارتمت فيه عمة الولد أمام سيارة أحد المسؤولين الكبار، متوسلة أن يتدخل ليُفرج عن الطفل لأن الخاطفين طلبوا فدية مالية كبيرة. ثم وجدنا جثة الطفل مرمية على الطريق وقد نهشتها الكلاب.

التمّ شبان في فناء جامع الجسر بعد أن أنهوا صلاتهم، ثم راحوا يقرعون أبواب المنازل المجاورة، داعين الناس إلى التجمع في الغد، ٢٥ آذار ٢٠١١،

من أجل التظاهر بعد ما جرى في درعا. تجنبوا الجامع الكبير لمجاورته مفرزة أمن الدولة. بانتهاء الصلاة، هتف أحدهم «الله أكبر»، فهجم الأمن والبعثيون الذين معهم؛ ضربهم الشبان الغاضبون وأطلقت النيران من قبل الطرفين من دون أن يصاب أحد. تلك كانت مظاهرتنا الأولى. كنا نحن الفتيات متحمسات أيضاً؛ سرنا بمحاذاة الشبان، وصوّرناهم بعد أن رفضوا أن نشاركهم التظاهر خوفاً علينا. بعض هؤلاء الشبان أنفسهم كانوا قد خرجوا في تظاهرة الحميدية بدمشق في ١٥ آذار، وآنذاك رفضوا أيضاً أن أنضم إليهم، فكنت أتفرج عليهم من بعيد من الطرف الآخر للشارع.

التدقيق على خروج الفتيات وحدهن من المنزل أمر مألوف في المجتمع السوري، والزبداني التي صُوِّرت كأرض الفواكه والسياحة والمناظر الخلابة ليست استثناء. أبي فلاح لم أعهده متزمتاً قط. أعالنا بزراعة التفاح، ودفعنا بنفسه إلى التظاهر، متحمساً بعد أن شاهد ما جرى في تونس ومصر. عائلته بين المغضوب عليهم، فمنهم فارّون إلى العراق، ومنهم معتقلون أمضوا في سجون تدمر وصيدنايا عقوداً إلى أن غادروها أمواتاً. لي شقيقٌ صغير «آخر العنقود»، جاء بعد تسع أخوات أنا كبراهن. كنا فقراء، والفلاحون ظلموا كثيراً؛ يكدون، ثم لقاء مبالغ زهيدة يبيعون محاصيل مواسمهم التي يتحكم بأسعارها تجار دمشق ويبيعونها بأسعار مضاعفة.

ثائرات الزبداني

لم أدخل الجامعة. درست الرسم والديكور في مركز أدهم إسماعيل ومركز المأمون في دمشق، وعملت كمعلمة مدرسة «غير مثبتة»، وتطوعت في

ورشات رسم من أجل أطفال العراق. ثم اضطرّني ضيق الحال إلى البحث عن عمل آخر، فالتحقت بدورة حلاقة نسائية مطلع الثورة، وافتتحت صالون تجميل تحول بعد شهر واحد إلى ملتقى للثائرات، ثم إلى محل للخياطة تخاط فيه الأعلام والرايات، وتخاط الأقنعة لمقاتلي الجيش الحر الذين هرب بعضهم إلى الجبال في البداية قبل استشراء التسلح، وتواروا موقتاً من شراسة المداهمات، وكنا نأخذ إليهم الطعام أحياناً لأن اجتيازنا حواجزَ التفتيش أسهل. كانت اللافتات تُكتب في الصالون، وإلية تأتي الفتيات ليرتدين العباءة والخمار ويضعن النظارات الشمسية، إمعاناً في التخفي واتقاء للغازات المسيلة للدموع، قبل الخروج إلى التظاهر. ما عدت أرتدي اللباس الشرعي الطويل الذي سايرت بارتدائه عائلة زوجي، لم أجده مريحاً؛ أضع الحجاب الذي أراه مجرد قطعة قماش على الرأس لا تحجب أفكار الإنسان ولا تغيّب الشخصية. تحت لباسي الشرعي العادي أرتدي الآن حذاء رياضياً اعتدته منذ أيام عملي مع أبي في الجبل وأنا صغيرة. لقد كف معظمنا عن التدقيق في هذه الأشياء الصغيرة وتفاهات التفاصيل، كأن يُستهجن إلقاء المرأة التحية على الرجال أو مصافحتهم. التفاسير أولاً وأخيراً محكومة بالنوايا.

في تموز ٢٠١١، خرجنا في أول تظاهرة نسائية بعد حملة أمنية اقتُحمت فيها البيوت، وانتهكت الحرمات بالدخول إلى غرف النوم وتفتيشها، واعتُقل عدد كبير من رجال كبار في السن أهينوا وعُذِّبوا؛ من أجلهم خرجنا للمرة الأولى، نحن ثائرات الزبداني وعددنا ثلاثون فتاة. نحن قليلات، لكن حتى الجماعات الإسلامية التي ازداد تشددها وتطرفها تدريجياً يعاملنا مجاهدوها كثائرات؛ ولا أخشى عسف المتأسلمين الذين يمحون

بأفكارهم وسلوكهم المرأة والحياة نفسها. إنها فترة مؤقتة، فلو اعتُقلت مثلهم وعُذبت لتطرفت يقيناً. لا شك في أن من سمح لنا بأنشطتنا هم رجال عوائلنا، فلولا مساندتهم لنا لما استطعنا تخطي أعتاب البيوت، وإن بقي دورنا محدوداً جداً، فأنا، في مثال بسيط، أقود السيارة فقط عند غياب زوجي الذي يتولى القيادة عادة. أحياناً يحكمني بمزاجه ويُحجِّم تصرفاتي، فالسلطة بيده. نخوض نقاشات عبثية مرهقة لأنني لا أفهم تقلب قراراته، فيمنعني فجأة من مغادرة البيت بعد أن يكون قد أذن لي بالخروج؛ استيعاب هذا التقلب أصعب عليّ مما لو كنتُ محرومة من القيام بأي نشاط منذ البداية، أو لم أنل أي شكل من الحرية لكنه، في كل الأحوال، يمنحني مساحة حرية أكبر من أي شخص عرفته، ففي غيابه حدث مثلاً أن نام ثوار غرباء في منزلنا ثلاثة أيام. كوابح النساء عادة يمليها مبدأ ديني، أو الخوف عليها، أو الخوف من نميمة الناس وتشهيرهم، وأحياناً بعض النساء أشد مغالاة من الرجال في منع المرأة من أي نشاط خارج البيت. ندرك أن هذه الأوقات لا تلائم تحرراً مبالغاً فيه، فالمجتمعات لا تنقلب رأساً على عقب، بين ليلة وضحاها، ولا أريد القيام فجأة بشيء ينافي عادات مجتمعنا؛ لا يمكنني مثلاً القبول بعلاقة جنسية قد يولد بعدها طفل بلا أسرة أو يُقتل بالإجهاض. هذا تمرد، وليس ثورة يلزم أن يعتاد الناس تغييراتها، وهذا أمرٌ يحتاج إلى سنوات. ربما ستبدأ ثورتنا الاجتماعية نحن النساء بعد نهاية الثورة، إذ لا تزال أمامنا مجاهدة طويلة.

إذن، من دون استشارة أحد، ومن دون الإنصات إلى التحذيرات والتخويف، اعتصمنا أمام فرع أمن الدولة، ثم التحق بنا الشبان ومكثنا هناك حتى نهاية المساء، إلى أن أفرجوا عن المسنين فقط؛ واظبنا على

الخروج أشهراً، وبعد أن توقفت التظاهرات شهراً كاملاً جراء اشتداد الخطر الأمني، خرجنا في اعتصام صامت بعد أن كممنا أفواهنا واتشحنا باللون الأسود نفسه، رافعات لافتات: «غداً إضراب الكرامة» في كانون الأول ٢٠١١، فأطلق علينا الأمن النار. إثر ذلك، وقعت أولى المواجهات المسلحة بين الأمن وشبان الزبداني التي تتواجد فيها الأسلحة من قبل، مهربة عبر الحدود مع لبنان.

سئم الناس التظاهرات التي صارت يومية منذ نهاية صيف ٢٠١١، واستمرت طوال الفترة التي تحررت فيها الزبداني. كان ثمة علم استقلال يفصلنا عن الرجال عادة ويمنعنا من الوصول إلى قلب التظاهرة، ويقسمها إلى اثنتين: رجالية كبيرة، ونسائية صغيرة تسير في الخلف. وفي ذاك الفتور أحضرنا قناني بقين وملأناها بشظايا زجاج الواجهات التي حطمها الأمن، وعوضاً من التصفيق الذي كنا ندفئ به أكفنا في البرد والثلج، كنا نهز تلك القناني فيخشخش هشيم البلور على إيقاع واحد مع الهتافات التي تشتعل؛ أتينا أيضاً بعشرين بالوناً كبيراً ألصقنا عليها صور الشهداء وعلم الاستقلال، وطيرناها وسط الصيحات والتهليل، فبدت من بعيد كمناطيد صغيرة، وتهكم البعض قائلين إنهم يسمعون نداء ينذر جنود النظام بحدوث إنزال مظلي. صنعنا ما سميناه «شجرة الحرية» لنعلق على غصونها صور وأسماء الشهداء والمناطق المنكوبة، وغدت مركزاً للتظاهرات؛ قمنا بتمثيل التظاهرات في مسرحية ألفنا لها الأغاني وغنيناها، وحين علت أصواتنا رأى البعض تلك الجرأة وقاحة وعيباً وحراماً، فقطعوا الكهرباء عن مكبرات الصوت؛ أصدرنا مجلة «أوكسجين» الأسبوعية التي كنا نرسلها إلى دمشق وبلدات مجاورة مثل سرغايا ومضايا وغيرهما، إلى أن توقفت طباعتها

ورقياً، فبتنا نعمل عبر الإنترنت، كلٌّ في المكان الذي تكون فيه، وأصبحت اجتماعاتنا قليلة جداً والوضع الأمني شديد السوء. كان فريقنا متكاملاً، ففيه طالبات يدرسن الإعلام ورسامات ومصممات وصحافيات، وبدأت أنا أرسم الكاريكاتير الذي لم أجربه من قبل. كانت المجلة تغطي أحوال المدينة وأخبار المقاتلين والمعارك، وكانت لنا بضع صفحات للتذكير الدائم بأخلاق الثورة، وواجهتنا الصعاب لأن الانتقاد ليس سهلاً في منطقة صغيرة. كنا نناقش المواد وننقحها، ثم نرسلها إلى المصمم الذي يتولى إرسالها إلى الطباعة، وكنا نوزع النسخ بأنفسنا في التظاهرة المسائية كل يوم أحد، مجازفاتٍ أحياناً بدسِّ أعداد منها تحت أبواب المحلات، ورمي أعداد أخرى في حارة المسيحيين وبيوت الصامتين الذين لم يشاركوا في التظاهرات. ذات مرة، رميت عدداً إلى شرفة واحد من تلك المنازل، ثم رأيت النسخة تطير مرمية نحوي، فأعدت رميها وظللنا هكذا نتقاذفها من دون أن أرى أحداً.

الآن، لا أستطيع أن أتخيل أحداً قادراً على نزع الأسلحة من أيدي الذين رفعوها وحاربوا بها، بعضهم باعوا حلي زوجاتهم وأراضيهم ليشتروا البنادق. ليتنا لم ندخل دوامات التسلح، وإن كنا أصحاب حق. ليتنا بقينا تحت حكم الأسد ولم يُقتل عمي وأقربائي. لكن ندمي بلا طائل، ولا نفع يُرتجى من مناقشة المستحيل. الأجدى التخلص من ضخامة الشعارات والالتفات إلى ما يمكننا تطبيقه. كانت الثورة رائعة، والأمل يملأ النفوس، إلى أن انتهت السلمية. الثورة تغيرت ولا تزال مستمرة، لكنها لم تعد بالجمال الذي كانت عليه. إنها مستمرة لأن العودة إلى الوراء غير ممكنة الآن، ولا يمكننا الكذب على أنفسنا بالتكلم عن الأمل. السياسيون لا يهتمون

بالمدنيين على الإطلاق، ولا يعنيهم أحد. المعارضة، برداءتها وضعفها، اعتقدت أنها بالشعارات ستزحزح الجبال.

يبدو لي، عبر ما يجري، أن رئيس الجمهورية القادم سيكون سنِّياً، فكيف يمكنني أن أتخيل امرأة تتبوأ هذا الكرسي!؟ هذا مستحيل، وربما لن تتحقق حتى أحلام بسيطة، كأن لا أقرأ في المستقبل ديانتي مكتوبة على هويتي الشخصية. بي ضيق تجاه تقسيم الناس إلى «منحبكجي» و«ثورجي»، ولا أحب مثل هذه التوصيفات. فلكلٍّ منا في النهاية أسبابه، وهذه الانقسامات جزء من طبيعة الإنسان. ليس جميع المصطفين مع النظام سيئين إلى الحد الذي نكرههم. ليس جميعهم مجرمين. نزحنا مع بعضهم من الزبداني، والتجأنا إلى بلودان الهادئة حين بدأ القصف. المأساة أتتنا بالمساواة إلى حين، مآسينا أنستنا الخلافات وألغى النزوح الفروق بيننا. كنا جميعاً جوعى في الليل.

خلال الثورة توفي أبي، ولولاها لما نشأت صداقات، ولما امتُحنت صداقات أخرى كنت أبجّلها لتعود علي بخصومات وعداوات وخيبات. أنا شخص لا يتعلم، وأكرر دائماً الأخطاء نفسها. خسرتُ عملي وصالوني الذي دُوهم مرتين، ثم كُسر بابه وكُسِّرت مراياه ومحتوياته. اجتاحت دبابة بستان التفاح الذي نُهبت أشجاره وقصفت. خسر زوجي ما كان يمتلكه. عدنا فقراء، ونحن الآن في منزل نازحين مع أخواتي. يصاحبني ندم قديم على أمور عديدة ما ألححت على متابعتها وتنازلت عن المطالبة بها، أحدها الدراسة في كلية الفنون الجميلة؛ إن غيابها على المدى الطويل قد خرّب حياتي.

(شباط ٢٠١٣)

دوما

الأب والشقيق والزوج

لم يتح لي الوقت لأكبر كما ينبغي. كنا مرفّهين نذهب إلى رأس البسيط واللاذقية صيفاً، وحياتنا هادئة هانئة. خطبت في سن الثالثة عشرة، وتزوجت في السادسة عشرة، ولم أكمل تعليمي. ولأنني محجبة منذ صغري سمح لي أبي بركوب الدراجة الهوائية والذهاب بها إلى السوق، بينما هو يتبعني متمهلاً بسيارته، فتستغرب عائلتنا تصرفات الحاج، ويذكره البعض بحديث ليس إلا باطلاً: «لعن الله الفروج على السروج». كنتُ أتصرف كالصِّبْية، وكان المرحوم أبي متفهماً ومتحرراً، قياساً إلى جو التزمت الشديد في دوما، فالكثير من الدومانيات لا يتخطين حدود مدينتهن، وأحياناً

منازلهن وأحياءها؛ لا يرتدين «المانطو» بل «الملاية الدومانية»، ويترعرعن على فكرة أن الأخت خادمة أخيها، ويخجل الصغار من التلفظ بأسماء أمهاتهم كأنهم يفشون سراً معيباً. أنا غير مقتنعة بالنقاب، ولكني أفرض الحجاب على ابنتيَّ الصغيرتين طوال شهر رمضان، وقد حبّبتهما فيه، وحبّبتهما في العفة والفضيلة، فسألتاني من تلقائهما أن تتحجبا. اعتمدت تشويقاً تربوياً لأعزز صواب خيارهما. أقمت لهما حفلاً، وأختي أتت بالهدايا. فإذا آن أوان الفرض الذي أمر به الله لما تبلغ الفتاة الحِلم، فلا بد أن تكون مهيأة لتتبنّى الحجاب بكامل القناعة.

شخصياً، لا أحب النساء. أشعر أن دخولهن إلى مواقع السلطة واتخاذ القرار هو أمر لا يناسبهن، ولا أريده لنفسي ولا لغيري، ولو رُشحتْ لرئاسة الجمهورية لخرجتُ في تظاهرة ضدها. لا أقبل بتواصل ابنتي في الجامعة مع زملائها الشبان إلا إذا كانت مضطرة إلى ذلك، أستنكر ما يسمى «البوي فرند»، وبرأيي العقوبة المخففة في جريمة الشرف صائبة وواجبة. رغبتي في الحقيقة هي أن يحكمنا خليفة كالخلفاء الراشدين يعامل الناس سواسية، ولا يتستر بالإسلام. أنا امرأة لم أكن أغادر منزل زوجي، إلا لزيارة أهلي أو للتسوق أحياناً، واقتصر تعاملي مع الرجال على الباعة الذين كنت أصادفهم في المحالّ. لهذا، لم يصدق أحد التغيرات التي طرأت علي خلال الثورة. لقد انقلبت ١٨٠ درجة، وقد تتراءى التغيرات طفيفة، كالجلوس مثلاً، من دون حرج، إلى جوار السائق في المقعد الأمامي للسيارة. تعرفت إلى الرجال جيداً، وبت أعاملهم بأريحية أكبر، فأتبادل معهم السلام إذا التقيتهم في الشارع وأكلّمهم، وأخبرهم ممازحة بأنني سأتنقب بعد الثورة لكيلا يتمادوا أكثر. إنني أعاملهم كأولادي، لكن أخي

المقيم مع أهلي لا يزال يتضايق إذا قرع بابنا طارقٌ يسأل أن يقابلني، بينما زوجي ليس كذلك، إذ كان يكتب لنا اللافتات عندما كنا نشارك أنا وبناتي في التظاهرات النسائية، لأن خطه جميل.

أمهات

المعتصمون في ساحة البلدية في ٢٥ آذار ٢٠١١ لم يطالبوا بإسقاط النظام، بل نادوا بالإصلاح وبمطالب بسيطة. ظننت الموضوع مماثلاً لميدان التحرير في القاهرة، وتخيلت أننا سنأخذ الطعام والبُسُط إلى الشبان المعتصمين الذين كنت أسمع ضجيجهم في الساحة، وأراقبهم من بعيد، ومعي ابنتاي الصغيرتان. حين انتصف ليل يوم الجمعة ذاك، مهتاجين كثيران المصارعة، بالهراوات الكهربائية، هاجم الشبيحة المعتصمين، واعتقلوا منهم شباناً لا يزال مصير بعضهم إلى الآن مجهولاً.

في الجمعة التالية، خرجت في وقت مبكر من الصباح، لأرى أهلي في زيارتي الأسبوعية المعتادة. وجدت غرباء يرتدون بيجامات رياضة منتشرين في شارع الكورنيش، ومن مشفى حليمة حتى ساحة البلدية. لم أكن أعرف آنذاك أحداً من المعتصمين غير أبناء خالتي، وكانوا ينوون الخروج في ذاك اليوم. اتصلت بهم وأخبرتهم بما رأيت، وعدت إلى بيتي. بعد أذان الظهر لم نسمع شيئاً، فجزمت بأن التظاهرة لن تنطلق، فخرجت من جديد ومعي صغيرتاي، لأجد أن الشبيحة قد ازدادوا، يحملون هراوات وعصياً بعضها ينتهي بكرات من حديد، وآخرون يحملون بنادق لم أكن أعرف أنها تسمّى «روسيات». كان أحدهم قصيراً يتقافز كالسعدان، ويكفر بالله، ويشتم

الرب والدين ودُوما بكلام بذيء جداً، فأفلتت من لساني لا شعورياً: «وجع! يقصّ لسانك»، فأجابني شخص آخر بالسكوت والإسراع بإكمال طريقي. وصلت إلى دوار قريب من الحديقة، فرأيت شباناً يجرهم الأمن ويحشرهم في باص، ناداني صوت: «منشان الله، خدي بناتك وامشي بسرعة». هرولنا في الشوارع، وسمعنا أزيز الرصاص ما إن وصلنا إلى منزل أهلي، ولم نرَ شيئاً لأنهم يقطنون الطابق الأرضي. سمعنا وقع أقدام الراكضين والأمن يجري من خلفهم في الشوارع القريبة، ثم سمعنا شاباً حاصره المطاردون على مقربة منا، وأحد عناصر الأمن يصيح: «قوصو لابن هالحرام بين عيونو»، ثم سمعنا دوي طلقة، ولم يكمل الشاب نطق الشهادتين: «أشهد أن لا إله إلا الله وأن...»

جرى التشييع الأول في دوما بموافقة أمنية. احتشد عشرات الآلاف رجالاً ونساء، والرجال يمسكون بأيدي بعضهم البعض محيطين بالنساء. حين مرت النعوش أمامنا، توقفت الشعارات التي كنا نرددها وراء الشاب الذي توقف مثلنا ثم هتف فجأة: «الشعب يريد إسقاط النظام». ارتعدنا. بوغتنا لأننا لم نكن نتوقع هذا الهتاف. مر هذا التشييع على خير، ورجعنا إلى منازلنا بسلام. لكن تشييع شهداء الجمعة التالية لم يكن كذلك. أطلق الأمن الرصاص على موكب الجنازة عند مروره أمام المحكمة. استشهد حاملو النعوش، وهرب المشيعون بالتوابيت والقتلى الجدد. اختبأتُ في منزل اكتظ بالنساء، وكانت إحدى غرفه قد أخليت لإسعاف الجرحى، وليس فيها إلا أدوات بدائية مما توافر بالصدفة في ذاك المنزل. في المرات التالية، تحسباً للغازات المسيلة للدموع، كنا نعدّ شاشاً منقوعاً بالخل ككمامات نغلفها بأكياس نايلون، ونوزعها على الشبان في الشوارع قبل

التظاهرات، مع البصل والتمر والكولا. سقى الله تلك الأيام. في العزاء الأول بساحة الجامع الكبير جاءت وفود المعزين، وكان بينهم الممثلان سامر المصري وعباس النوري. ذهبنا ليلاً كمجموعة صغيرة من النساء، كنا نخجل ونخشى أن يمتعض الرجال من حضورنا، ففوجئنا بهم يحضرون لنا الكراسي كالأكابر، ويقدمون لنا القهوة المرّة. فوجئنا لأن ممر النساء عادة خلف خيمة عزاء الرجال، تحاشياً للاختلاط أو الاقتراب منهم؛ كان ذاك الموقف الصغير جميلاً، وأحسسنا بأننا كنساء لن نضطر إلى مقاتلة النظام ورجال دوما في آن معاً. لكن الآن، لا يتفق الجميع على رأي واحد والشقاق تفشى، ففي دوما، من قبل ومن بعد، هناك السلفيون والناصريون الاشتراكيون والإخوان المسلمون.

كنت أظن أنني المرأة الوحيدة في تظاهرة يوم الجمعة، إلى أن التقيت أثناء التشييعات بأم عبادة، أخت أحمد رجب أول شهيد في دوما. ناولتني أم عبادة ورقة، وسألتني إن كنت أود المشاركة في التظاهرات والعمل معهن. تبادلنا أرقام الهواتف والعناوين. تعرفت كذلك إلى أم أحمد التي كانت تقوم بما لم أكن أجرؤ على القيام به، فتطرق أبواب البيوت منذ الأيام الأولى للثورة، وتدعو النساء إلى التظاهر. كنت أتواصل مع مجموعة من النساء، فنعمل سوياً ونتخذ قراراتنا البسيطة بالتشاور، وبيننا أميَّات يعملن في إسعاف المقاتلين الجرحى، ويفرحنا أن ينادينا شاب يطمئن علينا: «يا أمي»، وأحياناً نفكر بفتوى تجعلهم كأولادنا فعلاً. أم محمد افتتحت جمعية «بسمة أمل» لرعاية المعوّقين، بعد أن شهدت ما يعانيه الذين كانت تطبّبهم، من الذين فقدوا أطرافهم أو أصيبوا بإعاقات دائمة. أم بسام خلّصت عدة مرات شباناً من باصات الاعتقال؛ كانت تستصرخ باكية مطالبة بابنها

(الذي ليس ابنها)، فتتشبث بتلابيبه ريثما تنتزعه من قبضات الأمن، وهي تترنح لأن ركبتها المريضة تؤلمها. صاحبة القرار الأخير في مجموعتنا هي أم عيسى التي استشهد ابنها، وفقد ابنها الآخر بصره بشظايا قذيفة؛ إنها تزور الشباب الجرحى وتسعفهم، وترى في كلٍّ منهم ابنها الشهيد بلال.

النزوحان الكبيران

توقفت تظاهراتنا بعد حزيران ٢٠١٢، إثر نزوحنا الأول الذي لم يدم طويلاً. توقفنا على الطريق وانتظرنا خالي، إلى أن بلغنا أنه قد استشهد بطلقة من قناص مستشفى حليمة. بعد أيام، عدت أنا وأختي إلى منزل أهلي فوجدنا الزجاج مكسوراً، ورائحة بشعة تفوح من كل الأرجاء، وذباب كثير يحوم؛ ربما كانت هناك جثث متفسخة في أمكنة لا نراها، كما تعفنت الأطعمة المتروكة في البرادات بعد انقطاع الكهرباء الطويل عن المنازل المهجورة. كانت الاتصالات متوافرة، والجو هادئاً، بالرغم من تواجد حواجز النظام على الكورنيش وفي الساحات، لأن الجيش الحر انسحب من دوما. عدنا أخيراً، وعادت معنا الحياة الطبيعية، ما خلا رشقات نيران ليلية خفيفة. لكني لا أعرف ماذا حدث بالضبط في تشرين الأول. يقع منزلنا خلف البلدية، فنزحنا قبل سوانا، وذهبنا إلى منزل أهلي في قلب دوما، لأن اشتباكات كثيرة وقعت في كرم الرصاص الأشبه بالجبهة، أو «المنطقة الحدودية» القريبة من مستشفى حرستا العسكري وكتيبة النظام. في هذه الفترة، بعد الحوامات والراجمات، بدأ القصف بطائرات الميغ. كان المفترض أن تكون هناك هدنة أول أيام العيد الكبير. ثم هاجم شبيحة «حاجز ساحة الشهداء» بنايات المساكن في الساحة، وارتكبوا مجزرة

وذبحوا عائلة بأكملها، فلم تبقَ هدنة ولا عيد. قرر رجال الجيش الحر إزالة الحواجز من دوما وتحريرها حاجزاً بعد حاجز، بينما القصف مستمر والناس ينزحون. لم يكن النزوح قصيراً هذه المرة، والذين عادوا بعده إلى دوما صعقوا بدمار يفوق الخيال، ومن وجد منزله مدمراً سكن في منزل لم يعُدْ أصحابه إليه. هكذا أصبحت الأحوال. الحمد لله لا يزال لبيتي سقف وجدران، وما خسرته لا يستحق الذكر حين أقابل أماً فقدت ثلاثة أبناء، أو شاباً فقد يده أو قدمه، أو أرملة تهتم برسوم اليتامى في «بسمة أمل». استشهد طارق، الشاب الذي كان يقودنا ويهتف في التظاهرات الأولى «هي لله هي لله، لا للسلطة ولا للجاه»، وخطيبته التي كانت تتقدم صفوف الصبايا استشهدت في مجزرة ساحة الشهداء. أنا لا أفهم السياسة، وحين أتابع النشرات على التلفزيون أتابع الأخبار الميدانية، ثم أغير المحطة حين يبدأ المحللون السياسيون. الوقائع تكشفت، وتبين أن الحقيقة لم تكن كما قيل لنا، فالكثيرون ممن طعنونا في الظهور إنما خرجوا من أجل السلطة والجاه. أحسسنا بأنه ما من معنى للتظاهرات بعد إزالة الحواجز الأمنية، فاتجهنا إلى نشاطات إغاثية، والعمل مع الأرامل والثكالى والأيتام، وما تأتي به مجموعة من نساء دمشق (بينهن مسيحيات ودرزيات)، كوجبات أو مبالغ مالية، يُوزَّع على المتضررين، وما أكثرهم. لم يجلب أحد أبداً لأطفال الشهداء ملابس مستعملة في العيد، فالناس يصدقون في المحن ويتآخون، ولا يمكنني البوح بكل شيء قبل أن يسقط النظام.

سارت التظاهرة الأخيرة تحت قصف الراجمات والهاون. اجتمعنا في شارع خورشيد ومشينا إلى ساحة جامع طه، ومنها إلى ساحة الجامع الكبير حيث توقفنا وهتفنا. كنا خائفات من القذائف المتساقطة، والسلاح في دوما حكر

على الرجال، ولست قادرة على - ولا مضطرة إلى - حمله، وإن كانت تنتابني أحياناً الرغبة في إطلاق النار على أحدهم. تأخرت مرة عن أحد الاجتماعات التي يناقشون فيها سلمية الثورة. كنت راجعة من تشييع طفل في دوما، فلم يفتني في الواقع أيُّ شيء قيّم. طالبتُ بآر بي جي ودبابات، فأنا ضد التفرج على من يقتلوننا، بينما نحن صامتون مكتوفو الأيدي. قد يظن البعض أن عدم استمرارنا بالسلمية هو ما أوصلنا إلى ما وصلنا إليه، لكننا أخطأنا بالسلمية منذ البداية، فمثل هذا النظام كان سيبيد الغوطة بأكملها لو لم يتسلّح أهلها، ولسوف أضرب من يضربني، وإن كان سيقتلني.

(آذار ٢٠١٣)

حرستا

أيام صاخبة

عرّفتني الثورة إلى حرستا، المدينة التي عشتُ وعملتُ فيها. لم أكن أعرف من معالمها إلا الطريق الذي أجتازه صباح مساء، رواحاً ومجيئاً بين منزلي وعملي الذي استغرق وقتي كله، وتقريباً اقتصر احتكاكي بالناس على زبائني فحسب. تحركت حرستا في أسبوع الثورة الثاني، وما استطعتُ النزول إلى التظاهرة الأولى التي خرجت يوم الجمعة، لأن اقتصارها على الرجال سيجعل تعرف المخبرين إليَّ سهلاً. كنت أتفرج من نافذة بيتي بحسرة وخوف، وإذ نفذ صبري بتوالي الأيام أخذتني رغبتي الملحة إلى التظاهر في دمشق. كان عليَّ أولاً التعرف إلى شخص هناك، ممن ينظمون

التظاهرات سراً. استغرقني التقصي شهرين تقريباً. اهتديت إلى فتاة سألتها أن تصحبني معها إلى الميدان، فعلمتني كلمات السر التي يتبادلنها في المكالمات الهاتفية، مثل «العشاء السابعة عند أم فلان» وغيرها. أحسستُ بأن حياتي التي اعتبرتها ناجحة لا تساوي شيئاً أمام صوت واحدٍ أطلقته حنجرتي بهتاف «الله أكبر»؛ كانت تلك اللحظة الأروع هي ذروة سعادتي: للمرة الأولى سمعتُ صوتي.

كان ذلك في أيار ٢٠١١. في الشهر نفسه ذهبت إلى حمص التي تشدني إليها آصرة قوية، فأمي تنحدر منها، وكان أقرباؤها يقطنون باب السباع والخالدية. روّعني ما رأيت. الدبابات في الشوارع، ومتاريس الرمل والسواتر الترابية والحواجز. إثر الحراك المبكر هناك، وقع انقسام سريع بين أهالي الأحياء المختلفة، أحرق المراحل التي تدرّجت عبرها مدنٌ وبلدات أخرى خلال الثورة، فتسارعت الانتهاكات والجرائم تسارعاً مخيفاً، ولم يلبث الناس أن اصطفوا في معسكرين متعادیین. أما في حرستا، على سبيل المثال، فلم يكن آنذاك حواجز صريحة إلا يوم الجمعة، ولا كان الوضع بهذا السوء باقي أيام الأسبوع؛ الحياة طبيعية مائة بالمائة، والجو مختلط الطوائف والديانات، وحتى الأيام الأخيرة التي سبقت التحرير كان خوفنا الأكبر من «العواينية» الذين بسببهم تعرض كثيرون للخطر، كما حصل في دوما التي عانت الأمرّين من وشاياتهم. شككتُ في البداية باستمرار خروج التظاهرات. لكنّني لاحقاً، حين تولى الجيش الحر حمايتها في المناطق التي سيطر عليها بالغوطة، سرتُ في تظاهرات كثيرة إلى جانبهم، من دون أن أهتف. ظننا مرات عديدة أن النظام مشارف على السقوط، واعتقدنا بتحقق ذلك في رمضان ٢٠١١، غير أن اقتحام الجيش مدينة

حماة في آخر أيام شعبان رسّخ القناعة بتعذر الرجوع إلى الوراء، وقلت في نفسي إني سوف أكمل حتى لو بقيت وحدي. حماة ذات مكانة رمزية في قلوب سوريين كثيرين، عززتها التظاهرات الهائلة في ساحة العاصي؛ ربما لم نرغب في تصديق أن النظام سيرتكب مجزرة هناك مرة أخرى، وفي شهر رمضان تحديداً. ثم فوجئنا بسرعة التحولات وتسارع التدهور والتدمير. لم يسقط النظام وطال عمره. لكن منذ متى يسقط المجرمون بالهتافات والورود وأغصان الزيتون؟ وأين موقع السلمية أمام المروحيات والبراميل والسكود والراجمات؟ بدأ القتل منذ اليوم الأول للثورة ولم يتوقف. لم أقف ضد السلاح على الإطلاق، لأن شروط السلمية مفقودة لدينا.

أثناء زيارتي تلك إلى حمص، نزلت لدى خالتي في باب السباع، وهذا الحي منطقة تماس ضجت بمشاكل كثيرة، لأنه يجاور منطقة النزهة العلوية. لعلع الرصاص تلك الليلة، فخرج شبان الحي بما وقعت عليه أيديهم من أسلحة خفيفة في المنازل، ولم تكن تتعدى مسدساً أو بندقية صيد في أحسن الأحوال. أغلق الشبان مداخل الحي بحاويات القمامة، تحسباً لاقتحام الشبيحة المحتمل، فقد حدث في الليلة التي سبقتها أن مروا بسياراتهم، وأطلقوا نيران رشاشاتهم على المنازل ليستشهد طفل ورجل طاعن في السن. بعد أيام من مغادرتي، كلمني هاتفياً أحد أقربائي من حمص، وكان الحماصنة منذ بدء حراكهم الثوري لا يهابون، ولا يستخدمون الترميز وتمويه الكلام. لقد تخلصوا باكراً من الخوف والحرص اللذين كانا مهيمنين في دمشق وبعض ريفها. أخبرني قريبي عن شح المواد الطبية وأدوات الإسعاف الأولي. أدوية التخدير، المعقمات، إبر تخييط الجروح، مصل الكزاز، أكياس الدم، المضادات الحيوية... كان حديثه بسيطاً ومباشراً، ولم يطلب أي نقود.

تعرفتُ إلى تجار في الزبلطاني وسائقي شاحنات صغيرة، تكفلوا بمساعدة المحتاجين وخدمتهم. اتصلت بتجار دمشقيين آخرين كنت أعرف أنهم مؤيدون للثورة. قصدتهم وأخبرتهم أن المشاكل في حمص قد آذت كثيرين، وهم يحتاجون إلى المعونة. في البداية، لم نكن نجرؤ على التصريح بأعمال إغاثية من أجل الثورة أو عوائل الشهداء، بينما قد يطلب المتبرعون حالياً أن تذهب تبرعاتهم إلى أبناء الشهداء فقط، أو إلى مدينة معينة دون سواها. أولُ مبلغ جمعته خلال ثلاثة أيام. ذُهلت بمقداره: نصف مليون ليرة. ثم دخلت شبكة من العلاقات التي تنوّعت وتمتّنت وتوسعت باطّراد؛ مثلاً كنت على معرفة بمقاتلي كتيبة في سقبا، عند البدء بتأسيس المجلس العسكري في الغوطة الشرقية، وأفادتني علاقاتي تلك في السعي المتعثر إلى توحيد كتائب الجيش الحر.

لعلي أخذت عن الحماصنة هذه الجرأة التي أشعر معها بالأمان. ما توخيت الحذر، بل تملكني إحساس دائم أن الأمن لن يلقي القبض علي، بالرغم من اعتقال العديد من أصدقائي وتصفية بعضهم؛ ظللت وقتاً طويلاً أتحدث عبر هاتفي المحمول المسجل باسمي، إلى أن أحضر الأصدقاء إلي «خطاً محروقاً» سافر صاحبه، خوفاً على أنفسهم في حال اكتشاف هوياتهم والتعرف إليهم. لكنني ذُعرت حين استدعاني الأمن. رُوقبت من قبلهم، وحسبت ملفي لديهم مرتبطاً بالعمل المسلح، استُجوبت طويلاً، وخشيت من الاعتراف بخطورة المعلومات التي قد تتسرب من خلالي، فقد لا أصمد بعد بضع ضربات من الكبل الكهربائي، لكني لم أعتقل. مذاك التزمت الحذر أكثر، فأنا الآن، بعد معركة تحرير حرستا في ٦ تشرين الأول ٢٠١١، أتنقل بينها وبين بلدات الغوطة الشرقية.

هنا، في حرستا، أيامي حافلة وصاخبة. لا أقوى على فراق مدينتي، بعد أن تعرفتُ إليها بهذا القرب. يومي يبدأ غالباً في الثالثة فجراً، بطَرقات عناصر الجيش الحر على باب المكتب الذي أقيم وأنام فيه، مسرورين يسألون عن الخرائط أو التصاميم، فأدير مولد الكهرباء وأبدأ العمل الذي يتوقف عادة بنفاد الوقود، فأستريح عند الظهيرة. أحياناً يأتي أربعة أو خمسة مقاتلين فيلهونني عما أقوم به، وكأن هذا المقرّ «مضافة». تدبر مثل هذه الفوضى ليس سهلاً دائماً. في هذا المكتب نفسه الذي يخدم الغوطة بأكملها، أستقبل الصحافيين والمصورين والمراسلين الذين قد يعدون تقارير عن النازحين المقيمين في المدارس مثلاً، لكن أكثر ما يحفزني ويمتعني هو البحث في تصميم الخرائط التي تحدد مواقع الحواجز والنقاط العسكرية. أقوم أيضاً بتصميم المجلات والملصقات والشعارات للمجالس العسكرية والكتائب والتنسيقيات، وتصميم بطاقات هوية للمقاتلين. أما عملي كمنسقة إعلامية للواء فإني أتابع عملياته العسكرية عبر جهاز لاسلكي يزودني المقاتلون عبره بالأخبار، لأقوم بتحميلها على صفحتنا الإلكترونية. العمل لا ينتهي، والمضايقات لا تستحق الذكر، فمن يمنح نفسه للثورة يجب ألا يتوقف. عملي يطلعني أيضاً على أحوال الناس المجهولين في الأرياف، تفرحني دهشتهم وسعادتهم، لأنني أقوم بما يرون فيه الكثير من المجازفة. لقد ألف الناس العديد من الخبرات والتطورات. ذلك جزء من عدوى الثقافة البصرية الجديدة، أسميه عدوى الجمال، وأردد لنفسي إننا نبني وسط الدمار، ونحتاج إلى الكثير من الصبر.

حافظت على توجهي نحو الفن، ولم أفكر يوماً بتسلم أي منصب سياسي. إن الغرق في الانفعالات طوال العامين المنصرمين، عبر ممارسة السياسة،

أشعرَ الكثيرين بانتصارات وهمية. الذكور حضورهم السياسي ضعيف أيضاً، فما أفرزته الثورة لم يكن جسماً سياسياً ثابتاً مقنعاً، ومعظم مواقفهم لا ثقل شعبياً لها. لا أدري كيف تبخرت الورقة التي انبثقت عن مؤتمري القاهرة الأول والثاني، واعتبرتها الكثير من الجمعيات النسائية السورية متطورة؟ يبقى التطرق إلى المساواة بين الجنسين وهماً ولغواً، إذا ما رعاه قانون ودستور سوريان جديدان. لا أفهم ماذا حلَّ ببعض الشخوص الذين تميزوا بحضورهم وثقافتهم، كان بعضهم جميلاً قبل خوض السياسة ومزاولتها، وانكفأ البعض الآخر لأنهم شرفاء أنظف من اللعبة، ولا يقبلون بالتسويات أمام حمقى ولؤماء لا يعرفون كيف تُدار الأمور. غير أن المعارضين الفهماء والوجهاء الذين طالما احتكروا السياسة لم يفسحوا المجال لغيرهم؛ لا يزالون يعتبرون أنفسهم الأفهم والأوعى، وكأنهم لا يزالون الذكور أنفسهم وسط أسرهم، بينما في الواقع لا مقدرة لديهم على طرح أي مشروع قد ينقذ البلد، بل لا يستطيعون أن يفرضوا أي رأي. لا يمكن للفقاعات أن تحمل آمال الناس، فهي تخفق منذ صعودها، وسرعان ما تتلاشى. هذه التجمعات السياسية المعارضة أثبتت مراراً خيبة أملنا، وفي المستقبل سوف يُقصون المثقفين أيضاً، لا المرأة فحسب. لهذه الأسباب لم أهجر الفن، فهو أقل كذباً ورياء.

منذ عمر الخامسة عشرة بدأت أعمل مع أبي في التصميم والطباعة على الأقمشة، وأعمامي مثله يعملون في الدعاية والإعلان. تدربت على «**corel draw3**» أيام الأقراص المرنة، وظللت أعمل أعواماً كمصممة غرافيك في الفحامة بدمشق، ثم درست التصميم سنتين في الأردن، بعد محاولاتي في دمشق الدخول إلى كلية الفنون الجميلة التي كانت امتحانات

القبول فيها تحتاج إلى «واسطة» غالباً. دخلت كلية الإعلام في التعليم المفتوح، وأنا أعرف أن شهادة تخرجي لن تكون غير ورقة تلصق على الحائط، ما دام كل ما يُكتب في سورية يُكتب تحت ظلال بشار الأسد وحزب البعث. ثم صار لي في حرستا مكتبي الاحترافي الذي اشتغلت فيه خمس فتيات. ظل عملي مستقراً وناجحاً خمسة عشر عاماً، إلى أن أغلقت مكتبي وتفرغت للثورة نهائياً.

منذ بدء الثورة جاهرت عائلتي بما أخفته من معارضة للنظام. أنا محظوظة بأبي. كنت أقول له دائماً: «لن أنجب ابناً ليربى في عهد حافظ الصغير»، فيجيب «يلعنْ أبوه وأبو أبوه». أولاني أبي وأمي كل الاهتمام، كابنتهما البكر التي ولدت في الرياض بالسعودية، وعائلتاهما متشددتان، نساؤهما منقبات ويضعن القفازات السود. أمي خريجة أدب عربي، كمعظم الأمهات كانت تلحُّ على الاعتناء بي؛ تسألني أحياناً إن كان أحد من عناصر الجيش الحر سيتقدم طالباً يدي، فأنكر الحقيقة، وأجيبها بالنفي قائلة إن الجيش الحر يقاتل، ولا يلتفت حالياً إلى مثل هذه الأمور. لم أخبرها بمواقف جديدة في حياتي، فقد نمتُ في البراري وحدي وعدد من الرجال أثناء هروبي، لم أخَفْ ولم تراودني أية هواجس.

لم يفرض أبي تربية دينية ولم يمارس أية ضغوط. كنت أخبره بعلاقاتي العاطفية. ثم تبين أن من الأحسن الاحتفاظ بتلك التفاصيل لنفسي، وصرتُ لا أطلع أحداً عليها، فحياتنا الخاصة كأفكارنا لا تخرج كلها إلى الضوء، هناك جزء يجب أن يبقى داخلنا. لا تزال الضوابط الدينية في المجتمع الذي أعيش فيه تردعني عن ممارسة الجنس من دون زواج،

لكنّ النفس البشرية متقلبة، وهناك تجاوزات دائماً. ففي حين يحقّ للذكر في مجتمعنا ممارسة الجنس خارج الزواج، تعيش المرأة مكتئبة في انتظار من سيتزوجها. كان الاعتدال صعباً. لقد عانيت أيضاً بسبب تربيتي تلك في حرستا، ودفعت ثمن الحرية قبل الثورة بكثير.

آزرني والدي حين طالتني الألسن حول سفوري وطلاقي، بعد زواج تمَّ منذ عشرة أعوام، ودام عاماً واحداً فقط. لم يكن الطلاق أبداً بالأمر الهين في هذه البيئة المحافظة. لم أفكر قط بوضع الحجاب، فقط لأن كل النساء اللواتي حولي يرتدينه، وما كففت عن التعامل مع الذكور الذين تجمعني بهم دائماً طبيعة عملي. تصرفت على سجيتي، وما راعيت المجتمع إلا قليلاً، هذا المجتمع الريفي الذي جابهتُ يعامل المرأة أقسى معاملة، ولا يوفر ما يمكن فعله لتحطيمها إذا خرقت الأعراف والعادات والتقاليد التي لا أشعر بالظلم أمامها شعوري بالظلم إزاء ما ينص عليه الدستور والقوانين بخصوص المرأة. قانون الأحوال الشخصية لا يحميها ولا يضمن حقوقها، وغالباً ما تتخلى عن مستحقات طلاقها، خصوصاً إذا كانت هي المطالبة، تجنباً لخوض دوامة المحاكم الشرعية ومن ثم المحاكم المدنية، وما يتخلل ذلك من رشوة ومماطلات قد تستمر أعواماً. أظن أن أكثر الهواجس التي تقلق المرأة في مجتمعاتنا هو قلقها، فمن سينفق عليها، وماذا سيقع لها إذا توقف هذا الإنفاق، وإلى أين سوف تذهب. أعتقد أن معظم النساء يفضلن إنجاب الذكور، لكي تعتمد الأم على ابنها في المستقبل، وتتخلص من وصايةِ زوجها.

سنة ٢٠٠٤ وقّعتُ على عريضةٍ ضد قانون يتعلق بجرائم الشرف التي لا تزال متواترة. أوليتُ هذه القضية اهتماماً خاصاً. في جنوب سورية، ولن

أسمي البلدة، قتل شاب أخته، لأنها تزوجت من رجلٍ وهربت معه، ثم أطلق سراح الشاب القاتل بعد شهرين فقط من سجنه. المجتمع يحطم المستضعَفات، ومعظمهن لا يعرفن حقوقهن ولا يردنها. تبين لي ذلك عند احتكاكي بشريحة كبيرة من النساء المتضررات في الفترة الأولى من الثورة، أرامل وثكالى. معظمهن أميَّات، يعزّين أنفسهن بحجج تستفزني مثل العيب، أو لا يجوز وماذا سيُقال عني. المرأة قوية بالشهادة الجامعية والاستقلال المادي، بهما تفرض احترامها وآراءها على الآخرين، وبهما تتحرر من سطوة الأهل، أو على الأقل ترفع علاقتها معهم إلى مستوى علاقة ندية، بحيث لن يتحكم الزوج وحده في عمل الخير، ليمنع المرأة مثلاً من الذهاب إلى توزيع المعونات. لكن المفاهيم التي اعتبرناها تغيرت خلال عام ونصف رجعت بزيها القديم أكثر إزعاجاً من ذي قبل وأقصت المرأة، ولا سيما مع انتشار العسكرة الإسلامية. المسلحون في المناطق المحررة ذكور لا يمكن للمرأة الصمود أمام بطشهم وضغوطهم، كلمتهم هي المسموعة، فالسلطة والصوت للسلاح. أنا الأنثى الوحيدة والناطقة الإعلامية في لواء من ألوية الجيش الحر يضم ١٥٠٠ ذكراً، غير أنهم يزدادون لطفاً بحضوري ويحترمونني ويقدرون مجهودي. إنهم يحتاجون إليّ حاجتي إليهم، وقد تركت أسرتي لأعيش وحدي بينهم، من دون أن أرى أحداً من أهلي شهوراً طوالاً، وما كنتُ لأجرؤ من قبل على مجرد التفكير بمثل هذا الاحتمال؛ إنهم الآن أسرتي، ولا أجدني غريبة وسطهم أبداً، لكنهم لم يتخلصوا من شعورهم بأن مسؤولية حمايتي تقع على عاتقهم، وإن كنت أنا آتيهم بالذخيرة. يحمونني ويجالسونني لكيلا تثقل علي الوحدة، ولا يشوب أحاديثنا حرج أو حذر؛ إنه تمييز أعتبره إيجابياً، شكلاً من النخوة. فمنهم

من يقول «أنت أمانة برقبتنا» أو «يا آنسة، رجال بشوارب ما بيعملو يلي بتعمليه»، فأتخيل رجالاً آخرين يلازمون منازلهم مرتعدين من الخوف، وأتذكر حسين هرموش وشجاعته وانشقاقه المشرّف الذي غيّر مسار الثورة. وعلى الرغم من كل التراكمات والانحرافات والتعقيدات لن تكون هناك دولة، أياً كان شكلها، ترضي غرور الثوار وتلبي مطالبهم.

قليل جداً عددُ النساء اللواتي بقين مثلي في هذه الظروف الصعبة، تحت أعباء منهكة في مناطق مدمرة لم تعد صالحة لأي نشاط طبيعي. تعاملي معهنّ محدود للغاية. تلقيت مراراً وتكراراً تنبيهات كي أرتدي الحجاب في الشارع، ولكي أمتنع عن زيارة مقر اللواء، لأن تواجدي بين الرجال قد يثيرهم جنسياً ويزعزع إيمانهم. ذات مرة، أجبت اللائم: «هذه الثورة لي أيضاً، وليست ثورة أمك وأبيك». التشدد المسيطر يعمي البصيرة، وأحاول قدر المستطاع فرض رأيي عليهم بهدوء، فظللت ألتف على الموضوع، وأجادل وأحتال لأضطرهم إلى الرضوخ، إلى أن اعتاد الجميع رؤيتي من دون حجاب في المكتب، ولكنني أضعه عند خروجي إلى الشارع. طبعاً لن أذهب إلى العمل بالبيكيني. فالمكان يفرض الملابس التي ينبغي ارتداؤها، ولا بد من الاحتشام احتراماً لهذه الخصوصية. حاول بعضهم الاستخفاف بعملي، إذ ليس هذا بالوقت المناسب لتصميم الشعارات وطباعة الملصقات الخاصة بسيارات الجيش الحر، وبعضها يحمل صور المقاتلين. لكن الاعتناء بالجمال والألوان يمنحني الرضى، ويضفي بهجة على حياة المحارب المنهك الذي يتنكّب بندقيته طوال النهار. كنت كذلك أخرج في التظاهرات بكامل أناقتي مرتديةً أجمل ثيابي، فالثورة قامت أيضاً ضد القبح، ثم سرعان ما تنقضي ساعة التظاهرة، كمثل كل حالات الجمال، بلمح البصر.

العودة من مصر ودروس الألم

ما إن اشتدّتْ مضايقات الأمن لأهلي، قررتُ إرسالهم إلى خارج البلد، بعد أن كنت ألتقيهم في الخفاء. خشيت من إيذاء أبي أو أمي، أو حتى أختي الصغيرة، لكي يصلوا إلي. ببساطة خفت من أن يُقتلوا، خصوصاً أمي، فهي من حمص، وعانت ما عاناه جميع أهل هذه المدينة. فقد استشهد أخوها وأولاده، ودُمّرت منازل نصف عائلتها في حمص القديمة.

الآن، أخواي في الإمارات، وباقي أهلي مقيمون في مصر. اشتدت الملاحقات الأمنية بعد خروجهم بشهرين، فالتحقتُ بهم إلى القاهرة، بعد أن أعلمنا أحد الضباط المنشقين بتعميم اسمي على الحواجز، وباحتمال مداهمة مكتبي، فقررتِ المجموعة التي كنت أعمل معها تسفيري. أخرجني المهربون في صيف ٢٠١٢، عبر حدود لبنان أولاً. لم أصبر على البقاء في مصر سوى خمسة أسابيع. كانت أياماً مؤلمة، كأنني خنتُ نفسي. تبدو لي ثورتنا أكثر الثورات إيلاماً في العالم. الأوجاع علمتني الكثير. لم أغفر لنفسي هفواتي وطيش البدايات، حين اعُتقل آخرون بسببي، ودفعوا ثمن أخطائي التي لقّنتني دروساً مريرة، فمثل ذاك الاعتقال درس آخر من دروس الألم. لكم تمنيت لو كنا أقل اندفاعاً وأكثر تنظيماً في بداية الثورة، كنّا تجنبنا مشقات جمة. لقد خلقنا بحماستنا المزيد من الفوضى. ربما ثمة جمال في هذه العبثية، فهي ثورة شعبية في النهاية، وليست نادياً أو حزباً. لكن لم يمهلنا الموت، ولم يتوقفْ لنبدأ أي شيء.

آلمني في مصر إحساس بالذنب، وآلمني العجز حين استشهد أعز أصدقائي «أبو حمزة» بعد أسبوع من غيابي. لم أحتمل موت مَن أحب وأنا بعيدة. لم

أحتمل فكرة أن أموت غريبة في مكان غريب. قررت وحدي، من دون موافقة أهلي، أن أعود إلى سورية، عبر المهربين في لبنان مرة أخرى، فالأولى بي الرجوع إلى حرستا.

ما عدا اضطرارات معدودة لا مفر منها، فإنّ ما فعلته وأفعله وسوف أفعله خلال الثورة نابع من قلبي ويعبّر عني؛ أي فعل في هذه الأخطار، مهما كان صغيراً وبسيطاً، تجربةٌ تمنحني المزيد من الإقبال على الحياة وتأكيد الحضور، تؤثر بي وتغيرني. نُصِحتُ في دروس الدعم النفسي بتحاشي «أي تلامس جسدي مع الآخر»، لكنني عاطفية، ظللتُ أحضن وأقبّل الجميع، حتى في الجنازات ومجالس العزاء وأنا أبكي. كنت أحاول، وأريد، أن أشعر بالجميع. وما عساي أفعل إن كان كل من حولي جميلاً؟ هذا الوقوع في حبهم لا يعني تعلقاً أو التزاماً بأية علاقة أخشى أن تحد من حركتي. تخبطتُ، وعشت حالات فقدت فيها توازني أمام فيض المشاعر التي لم أستطع التحكم بها، ولم أستطع التوقف عن إعطائها للآخرين. عشت حباً غامراً مفعماً بالرضى تجاه جميع المحيطين بي. إنه حبٌّ منهك. أحياناً يوقف هذا الدفق شعورٌ مخيف بالعجز أمام أحزان سواي.

لقد شاركت في ورشات عديدة حول العدالة الانتقالية. مَن سيقيم العدل لمن أذِلوا وأُهينوا، أو لمن فقدوا أطفالهم وخسروا منازلهم أو ماتوا؟ مَن سينُصفنا، نحن السوريين، من كل الظلم الذي حاق بنا؟ ما مر وما يمرُّ به الشعب السوري بعيدٌ جداً عن العدالة، أياً كان شكلها أو اسمها، وأبعدُ مِن أن ينصفه أي قانون، لكني لم أفقد أبداً شغفي بالثورة وحبي لها، بالرغم من

الأوضاع بالغة السوء حالياً، بالرغم من الإنهاك الذي حلَّ بالناس وفداحة الدمار وكثرة الموت، فأنا في كل الأحوال لم أتوهم أنني سوف أُحْمَلُ على الريش. مهما طال الوقت، وقد استبدلتُ «في يوم ما» بـ «في الأمد القريب»، لا بد أن يخلق الناس الجمال بعد هذا الانفجار الكبير.

ما عادت بي أية رغبة في السفر. أنا جزء من الثورة التي احتضنتني، وأشعرتني بالانتماء الحقيقي إلى المكان الذي عشتُ فيه حياتي؛ عرفتني إلى نفسي من خلال الذين تعرفتُ إليهم، ومن خلال ما اختبرته. لم أكن أتخيل من قبل التكلم بكل بساطة مع شبان من درعا أو سعسع أو البوكمال، فيعنونني كإخوتي. لم يكن طيشاً أن أنام في منازل كثيرة لم أكن أعرف أصحابها الذين عاملوني كابنتهم. لم يخطر لي قط أنني سأقرع باب منزل لا على التعيين، لأسأل أصحابه طعاماً أو استخدام حمامهم لأنني ما استحممت منذ أيام، فيؤوونني ويكرمونني، ولا أغادرهم إلا وقد وقعت في حبهم. ما تخيلت قط أنني سأطلب من شخص إيصالي بسيارته لأنني من دون مال. الثورة ولادة جديدة، وفي قلبها أنا خلاصة تجاربي، كالطفلة أتعلم كل شيء من جديد، أحسُّ بالحياة وأستمتع بكل لحظة كأن مسام جسدي كلها تفتحت بالحرية؛ كالمتعة ليس للثورة أي توقيت، بل لها الوقت كله. أظن أننا سنتخفف من سطوة العادات والتقاليد، فالجرأة التي حسبناها سابقاً في عرف الجنون باتت الآن أمراً طبيعياً، وسوف تتسلسل خطواتها ومكاسبها، على الرغم من كل الخسائر التي لم ينجُ سوريٌّ منها؛ لا أحد، بمن فيهم أنا وأبي، يراه سلوكاً مجنوناً أن أقيم كامرأة وحيدة في مقرٍّ لرجال الجيش الحر؛ ما انسلختُ عن الثورة ولا ابتعدت. لقد أعادت إلي الرغبة في البقاء على هذه الأرض التي لن أغادرها، ولا أفكر بذلك

أبداً، فهي كلُّ ما أحلم به؛ لا أريد الوقوف عن بعد لأشاهد ما يجري، وأنا في الخارج أقول: «لن تنهض البلد بعد عشر سنين». كلا. سأبقى هنا إلى أن تعود البلد إلينا، ونبدأ مرة أخرى من الصفر، فأنا وأنت وكل هؤلاء الجميلين، نحن جميعاً الثورة.

(آذار ٢٠١٣)

جسرين

صوتٌ لا يُنسى

الذاكرة الجمعية لدى السوريين موسومة بمجزرة كبرى سُمّيت «أحداث» الثمانينيات في حماة. ربما كان أثرها سبباً في القول باستحالة حصول أية ثورة في سورية، فحسبنا أن الموجة التي بدأت في تونس لن تبلغ حدودنا، ولا مبرر لأية محاولة احتجاج، لأن هذا النظام سوف يقتل الجميع. لكنّ حاجتي إلى المشاركة في الثورة كانت قوية، لا سيما أن والدي معتقل سياسي سابق. أتذكر، عند رجوعي من مسيرة احتفالية بالحركة التصحيحية، كيف سخر من هتافات «بالروح بالدم» التي كان التلاميذ يرددونها، وكيف أمسكت جدتي بحذائها، وراحت تضرب صورة حافظ الأسد التي جلبتُها إلى البيت؛

يوم وفاته كان تلفازنا معطلاً. أتى ابن جيراننا وقال: «سمر. مات الرئيس». فقلت: «إياك أن تقول هذا، فالرئيس لا يموت»، ثم اكتشفنا أنه يموت، وينجب أولاداً ويورّثهم الرئاسة، ويُغيَّر الدستور من أجلهم، بينما يحتاج سنُّ قانون يخصُّ المرأة إلى عشرين عاماً، قانون يحميها من العنف المنزلي مثلاً. كان صعباً إخفاء هذا الازدواج، بين ما يقال عن الأسد في المنازل وبين ما كانوا يلقنوننا إياه في المناهج المدرسية حيث الدمج بين الوطن والقائد، كأن ما نعيشه قدرٌ، والأمل الوحيد في تخفيف وطأته هو الهروب خارج البلاد. كان هذا الهروب حلمي وأنا صغيرة؛ سافرت في بدايات الثورة إلى بلد أوروبي، وفي مكان يطل على البحر صرخت ببغضائي المتراكمة على مر السنين تجاه بشار الأسد، مثلما صرختها في بلدتي، من دون أن يفهم أحد ذاك الصراخ الذي هدأني وأذهلتني روعته. أشعر أحياناً بأن نشاطي في الثورة تعبير عن الإنسان المسجون في داخلي، وأحياناً أخرى أجد في ما أقوم به خلال الثورة انتقاماً لأبي الذي اتُّهِمَ تهمة جاهزة هي الانتساب إلى جماعات محظورة، والمتهمون مثله لا يغادرون السجن، وفيه توفي بعد أربع سنوات. تراني أمي أكمل طريقه، وأقوم بما يرغب الكثيرون في القيام به.

منعني الخوف من الانضمام إلى الاعتصام أمام وزارة الداخلية في آذار ٢٠١١. أولى التظاهرات التي شهدتها في منطقتي جسرين لم تطالب بإسقاط النظام، بل كانت تضامناً إنسانياً مع الذين يتعرضون للأذى في درعا المحاصرة وأماكن أخرى. فكرنا بأن الدولة القائمة ليست كتاباً مقدساً لا يجوز المساس به وتغييره. أصبحنا قادرين على الصراخ، والمناداةِ بمواطنتنا، وإرواء شهوة الـ «لا» التي راودتنا طويلاً. لم نتوقع أن سقوط الشهداء الأوائل في التظاهرات سوف يستنهض عوائلهم كلها، فتركيبة

المجتمع الأولية ازدادت تماسكاً في الخطر. النساء تجاوزن العديد من الخطوط الحمر ليلتحقن بصفوف الرجال. هتفت إحداهن في تظاهرة، وقد أزاحت خمارها: «بالحق بالدين بدنا المعتقلين»، ورجال كل عائلة يحيطون بنسائهم اللواتي كن يقفن في المؤخرة عادة، وخصوصاً حين يبدأ البث على قناة الجزيرة.

ثمة صوت لن أنساه ما حييت، سيبقى يتردد في داخلي، مدوياً أعلى من صوت أبي وهو ينازع الموت تحت التعذيب. اختفت طائرة الميغ في سماء جسرين، وأصيبت في القصف طفلة من قريباتي. كانت تلك الطفلة ذات السنوات الخمس، بين عشرات المصابين، تصيح صياحاً تخيلته يجتاز أطراف الحي، ويصل إلى أقاصي الكون؛ في ظلّ انعدام المسكنات اضطر الطبيب إلى نزع الشظايا من لحمها من دون تخدير، وطلب منا إحضار بعض الأدوية بأية طريقة، عُنيتُ أنا بالسؤال فانبريتُ لهذه المجازفة. استغللت تساهل الحواجز مع عبور الفتيات من جسرين إلى دمشق، وقد عدتُ بالمضادات الحيوية وأدوية أخرى في حقيبة يدي. اعتمدنا مبدأ السلسلة المقطوعة، إذ كنت أعرف ممن سأستلم الدواء في باب الجابية وأعرف المصابين فحسب، وأسماء جميعنا مستعارة، ولا علم لي بتاتاً بباقي الخطوات. الحذر كالإقدام كان كبيراً، وهذا النظام عصابة يعاملنا رئيسها كقطيع من الحيوانات في مزرعة أبيه. في الواقع، أتى كلُّ ما فعله تثبيتاً لأفكارنا المسبقة عنه، ولكن الوحشية تبقى مفاجئة دائماً. حين حلقت الطائرات الحربية فوقنا للمرة الأولى، رأيناها تحوم غير مصدقين أنها ستُغير علينا حقاً، ثم انهار أمامنا مبنى بأكمله. صرخنا كالمجانين. تيقنا من عبث السلمية، ومن أن الطريق الوحيد هو الكفاح المسلح. وعند اقتحام الجيش النظامي للغوطة المحاصرة، تردد

أن الضباط لا يريدون أن يمشوا على الأرض، بل على أجساد القتلى. هدّدوا باغتصاب النساء إذا لم يقم الأهالي بتسليم الإرهابيين. والآن، في هذه العقدة وهذا الانسداد، البلد تحترق وتتهدّم، وإذا كسّر مقاتلو الجيش الحر بنادقهم واستسلموا، فقد نُذْبَحُ جميعاً. الإنسان قاتل بالغريزة. في إحدى مغادراتي الغوطة رأيت على الطريق فردة «شحاطة» جفَّ الدم على بلاستيكها، ثم رأيت جثمان شاب ظلَّ ممدداً هناك على جنبات الطريق، مغطى بقطعة من الكرتون، والعابرون يرونه ذهاباً وإياباً، من دون أن يتجرأ أحد على الاقتراب منه. مجرد جثة، وأخافتهم. خافوا من أن يُقتلوا إذا لمسوا الميت المجهول فلم يدفنوه. تلك القسوة التي عاينتُها بأم عيني أحرقتْ إيماني بالإنسان. المجازر أخمدت توقُّدَ طاقتي. كل مجزرة تعيدني إلى الصمت والتقصير في العمل، وتعاودني كآبة تطول أحياناً. حفاظاً على توازني، أو لأحمي ما تبقى منه، توقفت مؤخراً عن مشاهدة نشرات الأخبار.

وما أتى الشيطان، ثالثهما

السؤال محرم بين أسوار التابوات الثلاثة (السياسة، الدين، الجنس) التي يتفرع منها ألف تابو وتابو، وأيةُ فكرة تمردٍ تخبو ما إن تلمع في الرأس. المنطقة التي تربيت فيها بالغوطة الشرقية منطقة محافظة، انحصرت بين الدين والأعراف من جهة، والرقابة السياسية الأمنية من جهة أخرى، وقد عوملت المرأة كنصف إنسان أو أقل، كوعاء الغاية منه إنجاب الأطفال، ضئيلة الأدوار، منتَقصة ومقيَّدة، ولا يعترف بها المجتمع الذي لا يزال يحفل بتزويج قاصرات دون سن السادسة عشرة، ولا يقبل بإكمال الفتيات تعليمهن، مردداً أن المرأة لا تخرج إلا ثلاث مرات: من بطن أمها إلى بيت

أبيها، ومن بيت أبيها إلى بيت زوجها، ومن بيت زوجها إلى القبر؛ تربيتُ في بيئةٍ الرجلُ فيها من بعد الله إله، وبتفكيرٍ تشلُّه المعوقات. تصرفتُ، واتخذتُ قراراتي بناءً على أشياء لا وجود لها، لكنني مع ذلك ضمن عائلة أبي الفتاةُ الوحيدة التي دخلت الجامعة. درستُ علم الاجتماع، بعد أن كبرتُ على فكرة أن الجامعة حلم مستحيل.

في أحاديث الطلبة خلال الدراسة في دمشق لم يكن هناك ما يمنع شتم الله علانية، أما إذا حدث وتطرقنا إلى السياسة، بالأحرى إذا نطقنا اسم بشار أو حافظ الأسد، تلاصقنا وتهامسنا، وتلفتنا لنتأكد من أن أحداً لم يسمعنا. تناولت علاقة الأقليات بالمواطنة في بحث رسالة الماجستير التي ما استكملتها، وأحببت آنذاك، ولا أزال أحبّ، مؤلفات برهان غليون ومقترحاته في بناء دولة القانون التي لا أزال أحلم بها، دولة إذا أخطأ رئيسها حُوسب وحُوكم، مثلما يحاكم اللصوص إذا سرقوا أبسط الأشياء. العديد من أصدقائي وزملائي في الكلية قاموا بأبحاث مستجدة أخرى، وأتانا جميعاً الجواب نفسه: «مع عدم الموافقة». بعضهم رأوني متناقضة أجمع بين التدين وتحرر الآراء، لكن التابوات عذبتني طويلاً؛ ما أسأت بإيماني إلى أحد، ما شربت الكحول، ولا خلعت الحجاب الذي لم يختزل في يوم أنوثةَ المرأة، بل قد تكون المحجبات عرضة للتحرش الجنسي أكثر من السافرات. أسكنت الثورة شباناً وفتيات تخالطوا في منزل واحد، وقبل بدئها فرض علي العمل البقاء وحدي مع شاب في المكتب نفسه؛ كنت أبقي بابه مفتوحاً وما أغوانا الشيطان.

بعض صديقاتي يرتحن بتدخين السجائر وأنا يريحني وجود الله. هذه الراحة أجملُ عندي، وأسهل عليّ من تبني معتقد جديد سيقودني إلى

صراعات لا أعرفها داخل نفسي. لا أزال عذراء. أقول لأصدقائي إنني لن أمارس الجنس إلا مع شخص أحبه، وأعتقد أن للزنا وآية تحريمه في القرآن تفاسير وُضعت للتقييم لا للتقييد، فوسائل الإثبات، وشهود الواقعة الأربعة، تعني عدم المجاهرة بالمعصية. هذه المواضيع جديدة علي وشائكة، ولم تتضح معالمها بالنسبة إلي. أخبرني صديقي محمد إنه لو لم يمارس جنساً مأجوراً لما خرج في تظاهرة طوال حياته، لأنه كان يريد أن يختبر تلك الأحاسيس، بالرغم من أنه مرتبط بفتاة أخرى. هذا الصديق نفسه يقول: «يظنُّ كلُّ ذكرٍ في مجتمعنا أنه مالك الأعضاء الأنثوية لنساء عائلته كلهنّ».

(أيار ٢٠١٣)

التل

عاصفة في الرأس

أردت الدراسة في كلية الحقوق. حسبتها مدخلاً طبيعياً إلى سلك القضاء؛ لولا أن أبي العسكري السابق سجين سابق أيضاً، وهذه حقيقة ستربك الإجراءات كلها، لأن منصب القاضي مشروط بالكثير من الموافقات الأمنية، ولن أستطيع أبداً الخروج من هذه الدوامة لأبلغ ما أريد. لم يقبل أبي الفكرة برمتها، لاقتناعه بأن المحامي لا ينجح في بلدٍ كبلدنا ما لم يكن «نصّاباً». هكذا سافرت إلى حلب، بعد التسجيل في كلية التجارة، ثم أكملت دراستي نفسها في جامعة دمشق، حيث نظم الطلبة اعتصامات ضد غزو العراق أثناء حرب الخليج الثانية. كان اتحاد الطلبة يدقق في

مناشيرنا حذفاً وتنقيحاً، ويُضيّق الخناق علينا؛ لم يكن ثمة بدّ من الحصول على موافقته المسبقة قبل تعليقنا أية صورة، إذ علينا أولاً استئذان طلبة مثلنا، لكنهم أصحاب مناصب بشعون في التعامل، ويسهّلون الأمور أكثر لأعضاء الحزب الشيوعي. انتهت تلك الاعتصامات بسقوط العراق في أيدي الأميركان. عملت أيضاً في مساعدة عوائل اللبنانيين الذين نزحوا إلى التل خلال حرب تموز ٢٠٠٦، وكان عناصر الأمن حاضرين معنًا يراقبون الإغاثة وتفاصيلها. كان همي الأول إنسانياً وبعيداً عن السياسة التي لم أتعاطَها.

عند سماعنا بثورة تونس، جزم أبي بأن القبضة الأمنية لن تسمح بحدوث أمر مماثل في سورية. مستحيل، كان يقول، أنتم لا تعرفون هذا النظام. حاول إخافتي بالهالة الأمنية، وألمح مراراً إلى طرق التعامل مع الفتيات عند الاعتقال، ثم راح ينصحني حين يئس من ثنيي عن الخروج في تظاهرات برزة وحرستا، حيث كنت أبقى أحياناً خارج المنزل حتى منتصف الليل. أنا كبرى بناته الثلاث وأقربهنّ إليه، ويرى طباعي شبيهة بطباعه؛ كانت ولا تزال له سلطة فرض الرأي، لكنه يعاملني باللين والإقناع. هذا طبعه، وأجده أكثر تفهماً من إخوتي. منعني مرة واحدة، في سَوْرة غضب، من النزول إلى إحدى التظاهرات، فلم أخالفه وتحاشيت الصدام؛ بينما -ومنذ اليوم الأول- دعمتني أمي التي تعمل مصوّرة، ورافقتني أحياناً في النزول إلى الشارع.

بعد ثورة مصر، وكموظفة في البنك المركزي، شهدتُ كيف اتخذت الحكومة إجراءات إدارية سريعة، تحسباً لما قد يحصل في البلاد من بلبلة كبيرة متوقعة، فبدأت بزيادة الرواتب لاستمالة الموظفين، وما أكثرهم. في

تلك الفترة، كنت الأصغر سناً وسط الذين يحضرون اجتماعات سياسية في التل. حضرتها للمرة الأولى في حياتي، والأفكار والأمنيات تعصف بأذهاننا. تطرقت الجلسة الأولى إلى إنشاء لجنة من أجل حماية المنشآت والممتلكات العامة، وكنت أستمع إلى المناقشات ضاحكة حتى تدمع عيناي من الضحك، إذ لم أكن أتخيل قط أن أختبر مثل هذه التجربة. غير أني سرعان ما ضجرت، وبدت تلك اللقاءات غريبة عني. أحببت الشارع أكثر، والحياة التي تدور فيه، لكنني تأخرت حتى نهاية صيف ٢٠١١ قبل أن أشارك في تنظيم اعتصام صغير.

اعتمدنا في التظاهرات على أشياء ملموسة. استوحينا الشعارات مما يقع من أحداث في البلاد، لنستفز الناس ونحثهم على الخروج، لا سيما بعد الفتور الذي كان يخيم على المدينة عقب الاعتقالات. تعتبر التل مدينة ميسورة الأحوال عموماً، فأرضى بعض الأهالي ضمائرهم بالمشاركة في الإغاثة والتبرع بالمال عندما استضفنا عوائل النازحين من حمص. أما الحراك المدني والشبابي فلم يدعمهما الكبار بالسن أو الوجهاء والأثرياء، باستثناء التنسيقية التي تبنوها ليمرروا من خلالها أشياء ورسائل عديدة. تسيست التنسيقية، وتغير وجهها المدني الذي بدأت به، وتغيرت الآراء التي نادت بها، فتبنت توجهاً إسلامياً بحتاً ودعمت تسليح الجيش الحر.

الشهيد الحي وتمشيط التل

كانت المقولة المتفق عليها أن التل توالي النظام، فمنها ينحدر العديد من المسؤولين أمثال عبد الله الأحمر الذي تشدق باسمه واستقوى كثيرون،

فأغفِل حراكُها السياسي الذي ضم اشتراكيين ناصريين وشيوعيين وإخواناً مسلمين، وتكاد لا تخلو عائلة من معتقل سياسي سابق دخل سجون الأسد خلال الثمانينيات. خرجت أولى تظاهرات التل في ٢٥ آذار ٢٠١١ (تزامناً مع تظاهرات دوما)، وسار فيها حوالى عشرة آلاف شخص، بينهم قرابة مائتي سيدة وفتاة. الشبان المندفعون تجاوزوا التل، وتابعوا السير باتجاه برزة. هنا تدخل الأمن الذي تفاجأ بتظاهر الأهالي الذين اعتبروا في حكم المؤيدين. ضُرب الكثيرون، واعتقلوا، وسقط أول شهيد. إنه شاب لا يزال على قيد الحياة، دماغه ميت ويعيش على المنفسة. إصابة رأسه أدخلته في غيبوبة لن يفيق منها أبداً.

إثر تلك الجمعة، طُوّقتِ المدينة وأحياؤها. ومع ذلك، اتفق الشبان على الخروج من الجوامع كافة في آن معاً في تظاهرات الجمعة التالية؛ لكنهم، خوفاً من حصول مجزرة، تراجعوا حين عرفوا بتمركز القناصة فوق نقاط مختلفة من المنطقة، ثم عادوا وتظاهروا ليلاً في الأسبوع الذي يليه. استمرت التظاهرات بين مد وجزر، إلى أن صحونا ذات أربعاء ورأينا الجيش منتشراً في الشوارع. كنت صباح ذاك اليوم ذاهبة إلى عملي في البنك، والأطفال في طريقهم إلى المدارس. فوجئنا جميعاً بما رأينا. بدأ الجيش حملة لتمشيط التل بحثاً عن «الإرهابيين المسلحين». اعتُقل أكثر من ألف شخص بينهم نساء. اشتعلت المدينة بأسرها، لكن ظل تعاطي الأمن مع التل مختلفاً نسبياً عن مناطق أخرى من ريف دمشق، إذ كان العناصر يتحاشون الصدام المباشر، ولا يستخدمون الرصاص الحي، مكتفين أولاً ببنادق الضغط الهوائي «الخردق» والقنابل المسيلة للدموع لتفريق المتظاهرين، ثم ينطلقون في الملاحقات واعتقال من يطالونه؛ إلى اليوم لم يصلنا أي نبأ عن بعض

المعتقلين، وعرفنا لاحقاً أن بعضاً من الذين حسبناهم مفقودين استشهد تحت التعذيب. لم يكن واضحاً تدخل وجهاء البلد الذين حاولوا تهدئة الأوضاع، وإلى الآن لا نستطيع الحصول على رواية حقيقية أو مفهومة حول الكثير من الأحداث التي فاقت أهوالها طاقة الجميع.

التحرير ومقبرتان جماعيتان

شريحة كبيرة من فتيات التل أكملن تعليمهن الجامعي. كنا اثنتي عشرة فتاة في اعتصامنا الأول من أجل المعتقلين. خرجنا باسم «ثائرات تل الحرية»، وهي المجموعة التي تغير اسمها بانضمام الشبان ليصبح «تجمع شوارعنا»، وكانوا هم الذين يستطلعون الشارع عادة قبل نزولنا. قيّدنا نحن الفتيات أيدينا بالحبال، وكمّمنا أفواهنا وعلّقنا اللوحات إلى أعناقنا، ومشينا صامتات عبر الشارع العام إلى مركز المدينة. هناك أيضاً، وزعنا على السيارات غصون زيتون، وبطاقات أعراس صممناها وكتبنا عليها «دعوة إلى التظاهر»، مستغلَّاتٍ الدقائق القليلة التي يستغرقها وصول الأمن من المفرزة الموجودة عند مدخل التل في جهة البانوراما. استغللنا تساهل الأمن في التعامل معنا. في أفضل الأحوال، لم يكن عددنا يتجاوز خمساً وعشرين فتاة داخل التظاهرة، لكننا رسمنا الغرافيتي، ولوّنّا الجدران باللون الأحمر، دحرجنا الكراتِ المصبوغة بألوان علم الثورة بين السيارات تحت المطر، نثرنا قصاصات الشعارات في الشوارع، صممنا بطاقات بأسماء أول خمس شهداء في مدن مختلفة من سورية، وزعنا المناشير من أجل الإضراب، وأغمي على طالبات حين ألقيت قنبلة مسيلة للدموع على مظاهرتهن داخل مدرستهنّ الثانوية الواقعة في مركز المدينة. تعلمتُ بعضاً من مبادئ

الإسعاف، ولم أستطع العمل في مستشفى ميداني لأن الدوار ينتابني هناك، فأدوخ ما إن أرى الدم النازف أو أشمه. لكنني كنت آتي بالمواد الطبية والأدوية والمؤن، وذهبتُ في إحدى القوافل مرة وحيدة إلى حمص.

عملنا على ذاك المنوال حوالى شهرين، إلى أن بدأت قصة «التحرير». صحونا ذات صباح آخر على أزيز الرصاص. كان الجيش الحر قد تشكل في الأحياء الغربية من التل، وسمعنا ذلك اليوم أن المقاتلين قد حرروا فرع الأمن السياسي الذي لا يتجاوز عدد عناصره العشرة؛ استشهد أحد عشر شاباً، واعتقل رئيس الفرع، وتوفي ثلاثة أو أربعة عناصر أمن. هذا «التحرير» استوجب أيضاً تحرير مديرية المنطقة التي كانت بمثابة مخفر. وهكذا، بعد الاستيلاء على هاتين النقطتين، أعلنت التل مدينة «محررة». كان الأمر تافهاً جداً، لأن الجيش لا يتواجد في التل، وهي جغرافياً منطقة جبلية في القلمون محصورة من جهاتها الأربع وسهلة الخنق، ما يجعلها من الناحية العملية غير قابلة للتحرير؛ كان النظام مسيطراً على المداخل كافة، فتركنا في الحصار عشرين يوماً، قيل إن المفاوضات ظلت تدور خلال ذلك الوقت ليخرج الجيش الحر ويسلم المدينة. ثم بدأ قصف عجيب. كانت القذائف تتساقط يومي الخميس والجمعة، غالباً على أطراف التل، بمعدل عشر إلى خمس عشرة قذيفة يومياً. آنذاك بدأ النزوح، وكان بعض الناس يعودون إلى منازلهم باقي أيام الأسبوع. سارت الأمور على هذه الوتيرة خمسة عشر يوماً، وما إن أطبق النظام حصاره، حتى بدأ قصف شديد استمرّ ثمانية أيام انسحب الجيش الحر في نهايتها، ليدخل جيش النظام ويبدأ بالاعتقالات وتصفية العديد من الشبان. عُثر على مقبرتين جماعيتين حفرهما الأهالي بعد عودتهم إلى مدينتهم ليدفنوا الجثث المرمية

في الشوارع؛ الأولى عند المركز الثقافي الجديد نُبشت منها جثامين اثنين وأربعين شهيداً، والأخرى عند المستشفى العسكري كان فيها أحد عشر شهيداً وشهيدة واحدة.

السُّفهاء

بدأ التيار الإسلامي بالظهور علناً. ارتفعت الرايات السود في إحدى التظاهرات، فصنعنا لوحات كبيرة وكتبنا «السيادة للشعب لا للشرع، و «لا عسكر ولا ملالي، بدنا مواطنة بتلالي». حملنا تلك اللافتات، وجُبنا فيها الشوارع، وعلّقناها عند الجامع الكبير. في اليوم التالي ظهر على قناة الجزيرة مباشر بيان تكفيري يستنكر «ما فعله السفهاء منا». بعد تلك الحادثة، بتنا نخرج وحدنا معرّفين عن أنفسنا كمجموعة علمانية. حملنا أمام الجامع نفسه لافتة تقول «الشهيد عمار شهيد الجهل»، بعد أن قتل الجيش الحر، أو متطفلون عليه، شاباً في الثامنة عشرة شارك معنا في التظاهرات لأنهم اشتبهوا بأنه «عوايني»؛ تجادلوا حول تأبينه، لأن تشييعه قد يؤجج فتنة بين الناس، واتهمونا بافتعال المشاكل حين كتبنا اسمه شهيداً على جدران المدينة، فمحوه.

في تشييع آخر، دعونا صديقات من جبلة والسلمية. حضرن معنا بثياب «سبور» ووزعن المناشير. ضحكت إحداهن حين قرأت على حائط: «بدنا نبيد العلوية»، أيام كان الضحك ممكناً أمام مثل هذه الشعارات الطائفية التي استفحلت لاحقاً، على الرغم من قيامنا بمحاولات صغيرة ضد تفشيها. في تشييع ثالث تحول إلى تظاهرة ضخمة امتدت من المستشفى

العسكري إلى البانوراما، انتبهنا إلى أنَّ هناك خمسة شبان يحاولون إعاقة مسيرنا منذ البداية، كأنهم مجندون من أجل هذه المهمة بالتحديد، أطاعوا رجالاً كباراً بالسن واقتفوا خطانا. سألتُ أحد أولئك الشبان: «ألم تتعب من ملاحقتنا؟ لماذا تناديني يا أختي، وتخشاني؟»، فأجاب «نحن هنا، حرصاً وخوفاً عليكنّ». أجبته: «لم نأت لكي نقترب منكم ونحتكّ بكم. منكم الشهداء ومنا أيضاً، والبلد لنا جميعاً. اذهب لتلحق بصلاة الجنازة، إذا كنت تعرف أن تصلي». كانت مثل هذه السجالات تتحول إلى مشادات لفظية، قد تبلغ أحياناً درجة الوقاحة وتبادل الشتائم بين الفتيات والشبان. لم يكن منطقياً أن يجعلهم ذاك الخوف والحرص علينا نسير في المؤخرة، أو إلى جوارهم كرتل مكشوف قليل العدد، من دون أي اختلاط. ذلك مفهوم، فعقلية الفصل بين الذكور والإناث هي المهيمنة في عوائل كثيرة، وتثير ريبتهم عادةً فكرةُ الاختلاط بين الجنسين؛ لكن الفهم لا يمنع الاستفزاز، ففي إحدى المرات اختطفتُ العلم الذي يفصل بيننا وبينهم، ورفعته ليرفرف عالياً في الهواء.

كان الرجال يجبروننا على التزام أمكنة محددة في الساحة العامة، وهناك اخترقنا حشد الرجال المتجمهرين في إحدى المسائيات. كنا أربع فتيات شققن بصمتٍ وعلى عجل طريقاً ملتوياً بين الأكتاف. استغربوا أن يرونا وسط المتجمعين، كأننا احتللنا موقعاً ليس لنا. كنا قد قررنا التزام الصمت وتجنب الجدل. لم يلبث شبان لطفاء أن أفسحوا لنا، وأخلوا لنا حيزاً حين رأوا أننا قادمات من أجل القيام بفعل محدد. جثونا على ركبنا لكيلا نثير السخط إذا انحنينا. كانت معنا شموع وكؤوس بلاستيك وأكياس من التراب والرمل. باللهب كتبنا في قلب الساحة المظلمة اسم «الحولة».

حبة قمح

لمسنا الخوف الكبير لدى الناس، بعد العودة من نزوح الأشهر الثلاثة الذي جرّته محاولة التحرير الفاشلة. كانوا مستعدين حتى لقتل من يفكر بالتظاهر أو الاحتجاج في الشارع. تغيرت تماماً معاملتهم الحسنة. كانت فلول الجيش الحر قد بقيت، فاشتبكت مع قوات النظام الذي عاود سيطرته. تساقط عدد من قذائف الهاون بشكل عشوائي على المنازل والسيارات. قالت أغلبية الأهالي بأنهم في غنى عن هذا السلوك الذي شجّعته ودعمته قلة تعتنق رأياً معاكساً. كانت المجادلات تطول وتتشعب ولا تُحسم عادة، حين ينتقدون تدمير حاجز مثلاً أو مهاجمة فرع أمني. كانت أولوية غالبية الناس توافر شيء من الأمان لهم وللنازحين القادمين من الغوطة الشرقية الذين أحيوا التل بعد أن نزح عنها أكثر من نصف أهاليها. غيّرنا نحن أسلوبنا، وسمينا مجموعتنا «حبة قمح». استغللنا حلول العيد الكبير، ووزعنا المناشير المدسوسة في أغلفة السكاكر؛ خلسة في الليل كنا نضعها في سلة أمام باب الجامع، وعلى أعتاب المنازل والدكاكين المقفلة، ونهرب، بعد أن كانت نشاطاتنا علنية في وضح النهار، والمارة يتعرفون إلينا في الشارع ويستحسن الأهالي ما نفعله، أو لا يرفضون تصرفاتنا على الأقل. خلال تلك الفترة نفسها تشكل في التل مجلس مصالحة وطنية لم يكن مؤلفاً في الواقع إلا من رجالات النظام، أمثال محمد المير، وهؤلاء ليسوا مؤيدين بل مرتبطين بالأمن.

لا تتبادل عائلتي الزيارات مع أحد في التل إلا نادراً. لم تكن لي صديقات من منطقتي التي لم أعرف جوها الاجتماعي ولا شوارعها. تربيت في منزل

محافظ، ولربما أنا متدينة بطبعي، لكن معظم أصدقائي كانوا شباناً، ولم أستسغ مفردات وتسميات مثل صديقي أو صاحبي. ثمة صديقان هما قطعة من روحي، حين ألتقيهما أصافحهما وأعانقهما وأقبّلهما. كفتاة محجبة لا أرى في تلك المصافحات والمعانقات والقبل ما لا يستقيم مع الدين، لأنه بالنسبة إلي سلوك صحيح روحياً. منذ طفولتي لم أحب الفتيات ومواضيعهن، واهتماماتهن التافهة بالمكياج وتسريحات الشعر وطموحات الزواج، فالبنت كما يُقال «آخرتها لبيت زوجها»؛ ما أحببت التعامل معهن، ولا صداقتهن، حتى في الجامعة وفي عملي. غير أنني اضطررت إلى معاشرتهن خلال الثورة، فقررت الاقتراب من هذا المخلوق الذي لطالما رأيته غريباً عني، واسترجعتُ روح الفتاة التي ابتعدت عني.

تعتبر «الست» التي تتجاوز الأربعين في مجتمعنا كمن وصلت إلى أطراف الحياة أو نهايتها. أعادت الثورة الحيوية إلى نساء مثلهن مضطهدات فعلاً، فالإقدام، حتى في أصغر المواقف، منحهنّ الإحساس بأنهن قد عشن حقاً. يجب أن نكمل ما بدأناه حتى لو لم نجنِ أي ثمار. ستمر سنين طويلة قبل أن تنهض البلد من هذا الخراب. بلدنا تستحق الحياة، بكل ما تنطوي عليه هذه الكلمة الصغيرة من معانٍ. قد أموت بعد قليل، وما أكثر السبل إلى الموت، وقد يتأثر من يراني ميتة ثم ينسى، كما نسيتُ أنا في الماضي مصائبَ مَن رأيت، من المرضى والمتسولين والموجوعين، لكي أعود إلى الحياة.

(أيار ٢٠١٣)

القابون

المنسيُّون

قيل إن الرئيس سيفتتح حديقة عامة في القابون. ذهبنا فوجدناها بحجم غرفة صغيرة؛ لم تكن تلك الخدعة أو النكتة بداية الجور الذي لحق بهذه المنطقة ولا نهايته؛ كبرتُ وتربّيت في أحياء العشوائيات هذه، الملحقة بدمشق إدارياً. لم أغادرها، وكثيراً ما بدت كأنها في أقاصي الريف، أو في قارة أخرى. عشنا مهمَّشين. جفّ النهر ، أحد فروع بردى ورمز المدينة (القابون كلمة سريانية تعني المكان الذي تتجمع فيه المياه)، ثم انصبّت في المجرى الجاف أنابيب الصرف الصحي، وبدلاً من تنظيف الأوساخ أغلقت السلطات هذا المجرى نهائياً، وسقَفته وجعلته أنفاقاً عسكرية،

مثلما أحاطت المنطقة بالثكنات. الهواء ملوث، المستوصف المهمل مُزرٍ يتمنى المرضى الموت عوضاً عن الذهاب إليه؛ بعض التجار من مبيّضي الأموال أتوا بفكرة مستشفى ظلَّ افتتاحه مؤجلاً، بالإضافة إلى مؤسسات خدمية، ثم تركوا المشروع قبل الانتهاء من الإكساء. إثر أولى التظاهرات تحولت إحدى هذه البنايات العالية غير المنتهية إلى مركز للقناصين، وأصبح اسمها «بناء القناصين»، وفي الشارع الرئيسي، شارع النهر، انفجرت سيارة مفخخة شتاء ٢٠١٢.

المجتمع هنا محافظ وليس متزمتاً، وليس ببعيد عن هنا يقع حي تشرين، حيث يقيم خليط من الديانات والطوائف. تمردت القابون على ظلم النظام منذ عشر سنين أو أكثر. كان فيها الكثير من الشبان حملة السلاح؛ أطلق بعضهم النار على موكب الرئيس، وصاروا أبطالاً في عيون الأهالي. أتذكر سائق تاكسي أخبرناه بأن يقلنا إلى القابون آنذاك، وكيف طردنا حين سمع الاسم. في بدايات الثورة، حين كان الشهداء قلة ولم يكن شعورنا بالمأساة جارفاً إلى هذا الحد، لم أصدق كيف لم يُشهر الشبان منذ البداية الأسلحة المخبوءة في منازلهم. هؤلاء أنفسهم، دعاة السلمية المنقلبون ضدها بعد المئات من المعتقلين والشهداء، أسّسوا كتيبة انضمت إلى الجيش الحر، ودخلوا المعارك. كان المقاتلون يسخرون منا حين يروننا نكتب الشعارات على الحيطان، قائلين: «ألا ليت الشباب يعود يوماً». سخروا أيضاً من السكاكر التي لففناها بقصاصات من علم الثورة، بينما أبي لم ينم، مخافة أن يكون هناك من رآنا، وقد يداهم الأمن بيتنا لهذا السبب. إنه مريض ومسالم. أخشى أن أؤذيه بأخبار قاسية عنا، فأخفي عنه ما قد يقلقه، بينما تعرف أمي جميع تحركاتي من دون أن توافق عليها، ومن دون أن تخبره. بعد

أن صارت العائلة بكاملها مطلوبة، راح أبي ينصحنا ويرجونا التوقف عن العمل، وهو المتواجد ضمن المجلس المحلي؛ طلب مني مراراً أن أمحو كل المحفوظات الخطرة من ذاكرة الكمبيوتر.

كانت المعركة الأولى في رمضان ٢٠١٢. ظل المقاتلون ثلاثة أيام تحت نيران المدافع والرصاص، والدبابات تحاصر القابون وتسدّ مداخلها. أُمهِل الأهالي خمس ساعات ليرحلوا، فخلت المنطقة حتى من الإعلاميين. الكتيبة انسحبت، ولم تصمد لنقص العتاد ونفاد الذخيرة، ومع انسحابها تأخرت الحياة ستة شهور في العودة إلى شوارعنا. عادت الحياة تحت القصف واستمرت، لأن الذين خرجوا واستأجروا المنازل أفلسوا، وهُدمت محلاتهم في المنطقة الصناعية، وبعضهم هُدمت منازله بالجرافات أيضاً بذريعة مخالفات البناء.

إلى أين سيذهب الفقراء؟

لم يكن المقاتلون جالبي أذى ودمار. لم تساورني مثل هذه الخواطر. كانوا يحمون أهلهم العاجزين عن الخروج، يحمون الذين لا يمكنهم أن يتحملوا نفقات السفر والاستئجار، وظلوا يتحمّلون كل شيء بحلوه ومُرّه. لم تكن الضائقة سبب البقاء الوحيد، ثمة أيضاً عدم الاستقرار، وغياب الأمان عن الأمكنة الأخرى التي قصدناها؛ ذهبنا إلى مساكن برزة كعدة أُسَر تجمعنا أواصر القربى، وتقاسمنا غرفة واحدة. لاذ بنا هناك خطيبي الملاحق الذي سافرت عائلته، وتوارى بيننا. سكنا هناك مؤقتاً، إلى أن استلمنا إنذاراً بالإخلاء. أغلق طريق مكافحة المخدرات، وأُجبرنا على

العودة إلى القابون، مكاننا المهدَّد الذي غادرناه. ساعدت لجنة الإغاثة في إسكان مَن تشردوا، وبعض من الذين سافروا أبقوا مفاتيح منازلهم لتؤوي المحتاجين. ساد استقرار نسبي بعد الهدنة التي قضت بوقف إطلاق النار المتبادل، إلى أن خرقها الجيش النظامي في خريف ٢٠١٢، وراح يقصفنا براجمات الصواريخ، من دون سابق إنذار، وانهالت القذائف فوق القابون المفتوحة على كل الجهات. بسبب موجات القصف، أو بسبب الاحتمال القوي لاستئنافه على الأقل، أوشكتُ أن ألغي هذا اللقاء الذي أقول فيه هذه الكلمات. هناك أيضاً موضة الميغ التي قصفتنا طائراتها عدة مرات حتى الآن؛ في إحدى غاراتها استشهد عشرة أطفال، وفي غارة أخرى تهدّم منزل، وتوفي شابان وأختهما. ميتة القصف التي لا تفرّق، ولا توفر أحداً، أرحمُ من الموت تحت التعذيب.

عينان مغمضتان

حملتُ اللافتات، مع أخواتي الصغيرات وأمي وأختي الكبرى اللتين لم تعملا بالثورة، وأختي هذه تزوجت وهي صغيرة، إذ ظلت شهادة البكالوريا هي العتبة التي يقف عندها تعليم الفتاة، ولا تتجاوزها بالخطوة التالية إلا إلى الزواج. شاركنا في تشييع الشهداء منذ البداية، ولم أتساءل إن كانت مشاركتي صواباً أم خطأً، لأنها كانت جزءاً طبيعياً من الجو المحيط بي. شجعني خطيبي على تنظيم الاعتصامات والمشاركة فيها، وتكفل بحمايتنا من الأمن، مع أصدقائه الذين اعترضوا على فكرة مشاركاتنا العلنية وقبلوها ممتعضين. في إحدى المرات اتصل بي أحدهم عند عودتي إلى البيت، واتصل كذلك بباقي المعتصمات مطمئناً، لا قامعاً

والحق يقال، وأخبرنا: «نحن لا نعترض، لكننا نخاف عليكن. هذه أول وآخر مرة تعتصمن فيها». تغير الأهالي وتقلبت آراؤهم. فقد خرجت النساء في تظاهرات تخصّهن وحدهنّ، بعد أن كانت التظاهرات حكراً على الرجال، وتجري يوم الجمعة فقط. بات مقبولاً وطبيعياً استخدامهن الإنترنت والكتابة والتعبير عن آرائهن. غير أن المعارك حصرت أعمال النساء داخل المنازل، وهي أعمال تُثمَّن جميعها وتقدَّر عالياً، من الخياطة إلى الطبخ للجيش الحر والتمريض في المستشفيات الميدانية التي يديرها ويبتّ في شؤونها أطباء ذكور. هكذا هي الأمور حالياً، والسبب المباشر هو توافر الكفاءات أكثر بين الرجال، وضرورة اتخاذ القرارات الفورية أحياناً. إنهم يحموننا، ولهذا فإن القرار النهائي يعود إليهم دائماً.

لا أحب تلقّي الأوامر من أحد، بل التفاني في عملي، ولا أحب القيادة بمطلق معناها، فقد اختبرت ورأيت كيف يحتدّ ويتطرّف الذي يستلم منصباً، فيطلق الأوامر ويتعامل بفوقية واستعلاء. أسلوب الأوامر يستفز ثورة أخرى، وأخاف أن يُقصي الشبان أجمعين، لا النساء فحسب. المجالس المحلية التي تشكلت في مناطق عديدة لم تنبع تماماً من صفوف الثوار، بل تسلمها رجال كوجهاء البلد، لم يثوروا أو لم يكونوا مع الثورة منذ بدايتها الأولى. حدثت هذه المفاجأة في أكثر من منطقة. الثورة في جميع الأحوال ليست لهم وحدهم، ولا يمكن للقمع القديم أن يعود، ليمنعوا المرأة من الدراسة والعمل. أحب حلم المساواة البعيدة، وأحببت التعاون مع اللواتي يكبرنني سناً؛ إحداهن سيدة من داريا في عمر أمي تقريباً وفي مقامها، منفتحة ومثقفة وثورية، ساعدتني كثيراً وعلمتني. أنا فتاة ملتزمة بالدين مثل كل بنات عائلتي، وتحجبت في الصف السابع بكامل رضاي، من دون

فرض من أحد؛ استقررت على مانطو قصير محتشم، بعد اختبارات وتقلبات عديدة بين أزياء المحجبات وملابسهن ارتديت خلالها حتى المانطو الطويل كذاك الذي كانت جدتي ترتديه. اللباس في النهاية حرية شخصية. أحب الشعارات الدينية التي هتف بها الناس الذين ليسوا سلفيين ولا إخواناً مسلمين، ولا أميل إلى دولة إسلامية، ولا أستمع إلى دعاة الدين وشيوخه. أريد كل شيء واضحاً تحت الشرع والقانون. أين العدل في أن تقوم الدنيا ولا تقعد، فقط لأن فتاة مارست الجنس على سبيل المثال، أو حمّلت المجتمع عبء طفل بلا أب قد يُرمى في الشارع؟ لا أوافق على الاحتمالين، لكننا جميعاً نعلم أن الرجل يفعل الشيء نفسه، ولا يُقام عليه حدُّ الزنى، ولا يُقتل. أما إذا حملت المرأة وأجهضت جنينها فتلك مسألة أخرى. يجب أن ينزل بها عقابُ القاتلة لأنها أزهقت روحاً.

يجب ألا تستلم المرأة مهامَّ تفوق قدراتها المحدودة، وألا تتبوأ مراكز قيادية، وألّا نسعى إلى تكريس فكرة أن تحمل السلاح، لأنها فكرة خطيرة جداً. خضعتُ لدورة شبه عسكرية، وبتُّ أعرف الآن أنواع بعض الأسلحة، وكيفية استخدام القليل منها، ولكنني لن أطبّق ما تعلمته لأنني أخاف كثيراً. لدي صور أظهر فيها مذعورة، عيناي مغمضتان والسلاح بين يدي.

زوجان يافعان

لم أكن أكترث من قبل بمعرفة شيء عن الحقيقة. عند اندلاع ثورة تونس تذكرت طل الملوحي. لا أعرف كيف صدقت أنها جاسوسة، لفرط ما قيل إننا في حالة حرب مع إسرائيل. تفرجت مرات ومرات على مقطع فيديو

تناشد فيه طفلةٌ الإفراج عن طل، وأبكاني ما رأيت. كان انطوائي يحببني بالمنزل فألزمه أوقاتاً طويلة، وكنت أخاف أحياناً حتى من رنين الهاتف فلا أردّ على الاتصال، ولا أتواصل مع أصدقائي إلا في المدرسة، وقلما أذهب إلى عرس أو مناسبة اجتماعية، وأخجل من الشبان. الآن أنا اجتماعية كما يُقال، طبعاً ضمن الحدود التي أحسن التصرف داخلها وألتزم بها. أهلي يترحّمون على أيام انعزالي القديمة، ولدي الآن أصدقاء حتى من حماة، أهاتف الشبان منهم لأطمئن عليهم. لم أتخيل يوماً أنني سأتغير هكذا. قد تواتيني جرأة زائدة لأجرب ما لم يخطر لي من قبل. صرت أناقش مواضيع حساسة في القابون، فأنتقد وأُعلي صوتي بالانتقاد، وأقول ما أشعر به حقاً. ازدادت قراءاتي ومتابعاتي تنوعاً، وخضت نقاشات لا تتصل دائماً بمجال عملي في التربية والتعليم. حين تحسنت ظروف المدرسة التي عملت فيها كان الإعلام قد استغرقني، فتركت تدريس الأطفال. في الماضي، في هذه المدرسة نفسها، كان التمييز قائماً، فالموظفون ينادونني باسمي فقط وينادون بـ«الآنسة» معلمةً أخرى هي بنت ضابط علوي.

تعرفت إلى خطيبي، صديق أخي، خلال الثورة. كان يزورنا يومياً، مثل شبان عديدين غيره يترددون إلى منزلنا. أحببته، أنا التي لم أعرف الحب إلا في الأغاني وقصص أصدقائي. علمني في فترة خطوبتنا العديد من الأمور الإعلامية. أردنا أن ننشئ معاً منبراً إعلامياً؛ ومن أجل هذه الغاية ذهبت إلى دمشق، والتقيت بشبان لا أعرفهم جيداً. لم يكن أهلي على دراية بعملي في الثورة. شاركت مرتين فقط في تظاهرات دمشق، ورفضت دعوات المشاركة التالية. كانت التظاهرة هناك مخيفة بالنسبة إلي، لأنني أجهل حارات الشام، وكان هذا الجهل سيعيق هروبي، هذا إذا لم يشلّه الخوف

من الاعتقال، وربما إذا لذت بمنزل أحدهم سلّمني إلى الأمن، بينما أعرف القابون بحاراتها وزواريبها، وأهلها يعرفونني، وسيعتبرونني ابنتهم في ملاحقات الأمن ومداهمات البيوت، وبوسعي الهرب والتخفي من دون أن أكون عبئاً على أحد.

كنت أخبر أهلي بأنني ذاهبة إلى الجامعة لأحضر المحاضرات. كذبت، وانكشفت أكاذيبي وسامحوني. كانت كذبتي الكبرى هي الدوام في الجامعة، بينما كنت في الحقيقة أتمرن على التمريض في دورة إسعاف أولي مدتها ثلاثة أسابيع. لقد تعلمت وكبرت في القابون ومدارسها وأحببتها، ولم أشترك في دورات تقوية تضطرني للذهاب إلى دمشق، أنا الصغرى المدللة بين أخواتي وإخوتي. بدخولي جامعة دمشق زرت العاصمة وحدي للمرة الأولى، وللمرة الأولى ركبت الباص بمفردي، ولم يكن لي فيها أصدقاء شبان على الإطلاق. ذهبت إلى الجامعة وحدي لفترة وجيزة فقط، ففي الفصل الثاني من سنتي الدراسية الأولى بدأت الثورة. كنا نسهر في منزلنا الذي تركناه إثر ملاحقات الأمن ثم استطعنا أن نبيعه. كانت تلك السهرات بمثابة الاجتماعات. في الاجتماع الأول، عقب انتفاض أهالي درعا، أرسلت العديد من الرسائل الهاتفية للالتقاء في «جمعة العزة»، وهي الجمعة الأولى في الثورة على ما أعتقد. كانت الاستجابة غير متوقعة، فقد تجمّع أكثر من مائة شاب بعد صلاة الجمعة، عند الجامع الكبير في القابون. في اليوم نفسه لُوحق أخي بعد أن ضرب ضابطاً فتوارى في منزل خالي، واعتقل في اليوم نفسه أقرباء آخرون.

بقي خطيبي على أرض الثورة، وآمن بسلميتها، بينما هرب وسافر العديد من أصحابه، ومنهم أخي الذي ظل يصيح من مكان آخر خارج سورية،

بوجوب أن تقع المعركة وتمتد، من دون اكتراث بالمدنيين. بقينا سوياً ستة أشهر، إلى أن قرر فجأة ضرورة الخطبة. اتصل بأخي وأبي في منتصف الليل، ثم أتى في اليوم التالي وحده، وفي اليوم الذي يليه جاء مع أبيه وإخوته الصغار، فأمه متوفاة. دامت خطبتنا ستة أشهر تشرّد خلالها كثيراً. كان ينام كل ليلة عند صديق من أصدقائه. اعتقدنا مخطئين أن النظام سيسقط حين تأزف تلك الأشهر الستة من نهايتها، وبسقوطه سوف نحتفل بزواجنا، ونقيم عرساً ندعو إليه أصدقاءنا. كان منزل أهله مطلاً على بناء القناصين، ومنزل زواجنا احتله الشبيحة الذين كنا ننتظر جلاءهم عنا، مثلما ننتظر الحرية. لم يسقط النظام وتزوجنا، وكانت الحفلة صغيرة وجميلة.

خشيت الاعتقال والاختطاف. في القابون يعاود شبيحة ظهورهم بين الفينة والأخرى، فيرابطون على مفترقات الطرق، في الأماكن التي تخلو من الجيش الحر، ويختطفون الفتيات. لقد اختطفوا امرأة وزوجها إلى «عش الورور» وعذبوهما هناك، ثم حُمِّلتِ الزوجة وزراً أكبر، لأن اختفاء المرأة يحمِّل الأهل أحزاناً إضافية. بتُّ لا أخرج أبداً من دون مرافق، ولا أذهب إلى أي مكان من دون زوجي الذي ظل يصحبني إلى محاضرات سنتي الدراسية الثانية، بالرغم من ضيق وقته، وبالرغم من رسوبه في سنة التخرج لتخلفه عن الامتحانات. وحين أصبح مطلوباً للمخابرات قلّتْ زياراتنا لدمشق، بل انعدمت تقريباً، بعد أن كنت أوصل المناشير إلى البرامكة وكفرسوسة. لازمت أنا البيت الذي سكناه في المبنى الذي يقطنه أهلي، كان هذا البيت شقة جيران غادروا إلى تركيا. تضاعف خوفي من اعتقال كلينا معاً، أنا وزوجي، بالرغم من أن المرأة تعبر الحواجز بسهولة عادة، وتستطيع أحياناً أن تمرّر شاباً من دون تدقيق. انحبسنا أمام شاشات

الكمبيوتر، عند توافر التغطية والكهرباء. أسأل من يطلب مني شيئاً أن يأتي بنفسه ليأخذه، لكن من سيجازف ويأتي إلى القابون؟

قبل أن تتشكل التنسيقيات، كنت أجهّز برامج الفيديو والإيميل في البيت، وأنتظر رجوع أخي بما سجله على هاتفه الجوال في التظاهرة التي دعا إليها وخرج فيها، ثم نرسل التسجيلات إلى صفحة الثورة السورية ضد بشار الأسد على الفيسبوك. لوحق أخي، وقبل أن يغادر البلاد سرّاً، سلّمني معدّاته وكمبيوتره لأنوب عنه في العمل. بهذه المصادفة عملت في الإعلام الذي تمنيت دراسته، لكنني لم أجتز امتحان القبول في كلية الإعلام، فدرستُ التربية ومناهج التدريس ولم أكملها بعد. وددت لو عملت ناطقة إعلامية خلال الثورة. نقلت الأخبار عبر إذاعة محلية ثمانية أشهر، لولا أن خطيبي صارحني بالغيرة، وقال: «افعلي ما تريدين، لا أريد أن أبدو كأنني أقمعك». يضايقه سماع صوتي على الإعلام، بالرغم من أنه يعمل ناطقاً إعلامياً.

أسسنا مجلة «آبونا» التي رفضها شبان بعضهم مراهقون يصغروننا سناً، متذرعين بأن الوقت غير مناسب لمثل هذه الأفكار. ثم تفاجأوا بما رأوا. كتبنا لنحكي عن أوجاعنا وسيرة مكاننا ونقول آراءنا، متخذاتٍ قرارات مشتركة، كإعلاميات هن صديقاتي اليافعات. كنا نطبع مجلتنا بحسب الظروف، فقد يوقفنا القصف عن الطباعة. ما كنت لأحلم بمثل هذه الحرية، بعد طول قمعٍ أضنى الجميع، فحتى لو كنت قد درست الإعلام قبل الثورة، واستطعت تدبر وظيفة في مجلة، لأعطوني مكاناً صغيراً مليئاً بالقيود وكئيباً.

شمعة مسروقة

خسرنا ابن خالي وابن خالتي. هذان الشابان الصادقان مِن أحبِّ الناس إليَّ، ولم أصدق بعدُ مقتلهما. خسرت كذلك ثقتي بأناس خيبوا التوقعات، فقد خرجوا في البداية من أجل ثورة ظلت محتفظة بعفويتها، إلى أن دخلت الأموال التي غيرت أشخاصاً كثيرين، مثلما غيرت غيرهم المناصب والسلاح، فصارت لهم مآربهم وأهدافهم الخاصة. أخاف وينتابني الإحباط، وأحسب هذا الخوف يساور غالبية الناس. أخاف أن يأتي في المستقبل، والعفو على التسمية، أمثال ميشيل كيلو وجورج صبرا وهيثم مناع الذي أعجبنا به في بداية الثورة واستشهد أخوه في درعا، أو أي شخص آخر يعيش في الخارج ممن أمضوا الثورة في الفنادق يعقدون المؤتمرات، لكي يتسلّموا المناصب القيادية ويحصدوا ما رويناه بدمائنا، بينما يتم الاستغناء عنا نحن الذين ضحّينا. المعارضة السياسية لا تمثل أحداً، ولا أعرف من أخبارها إلا رؤوس أقلام. مللناهم. وحين تبدأ تحليلاتهم السياسية، بعد انتهاء الأخبار الميدانية على التلفزيون، نطفئ الجهاز أو نغير القناة. أحمد ربي لأن الثورة التي طالت كشفت معدنهم، وأظهرت حقيقتهم، لكيلا نبقى مخدوعين بهم طوال عمرنا.

فُجعت بكثيرين اعتبرتُهم قدوة لي. أحدهم رجل كبير بالسن أغراه المال، وكنت أبجّله. صرت أتمنى ألا يُغاث الفقراء والمساكين، لأنهم الخاسرون الوحيدون. صرت أترحّم على هاتفي الجوال البسيط الذي كنتُ أصوّر به؛ ألعن الكاميرات، وألعن الإغاثة وألعن أموالها التي قد يتناهبها لصوص وعديمو ضمير. التقيت أناساً أعتبرهم يتاجرون بدماء أطفالهم الشهداء،

حين يقولون حرفياً: «لقد قدم ابني حياته من أجل الثورة، فأين هي حصتي من هذه الأموال؟» لا أريد ترديد كلام كتب. هنا في القابون سيدة مصابة، ابنها مفقود وزوجها استشهد، حين زرتها لم يكن في بيتها شمعة توقدها أثناء ساعات انقطاع الكهرباء الطويلة. تعفّفتْ ولم تطالب بأي شيء، بالرغم من وصول الإعانات إلينا، ورجائي المتكرر لكي تخبرني باحتياجاتها. أمثالها يبقونني مستمرة في الثورة، ومؤمنة بالعمل من أجل الذين دفعتهم قلوبهم إلى الانتفاض، أولئك الذين تضرروا واستشهد أبناؤهم ولم يصرخوا طالبين بالمقابل شيئاً أو تعويضاً، الفقراء الذين خسروا كل شيء.

(أيار ٢٠١٣)

أمكنة تضيق

الاحتفال

أثناء زيارة لمسقط رأسها، بوغتت مجدولين ذات صباح بحيطان منزل العائلة في الطابق الأرضي مغطّاة بالشتائم التي كتبها أهل الحي، من قبيل «هذا منزل العرعورية الصغيرة مجدولين حسن»، وبما هو أقذع وأشدّ. واقفة في عرض الشارع، صرخت: «يا حارة الشبيحة لن تمنعوني، ولن أخافكم». بعد أشهر من ذاك التهديد، وقد التمّ شمل العائلة أخيراً، الجهة نفسها التي أوعزت إلى الجيران بالشتم أرسلت ثلاثين مسلحاً ليداهموا المنزل نفسه، طوّقوه ثم اقتحموه اقتحاماً شنيعاً: رجال مدججون بالمسدسات والبنادق داهموا الصالون الذي تترك الأم المسنّة بابه مفتوحاً عادة. دعا أحدهم «المحامية مجدولين حسن» لتتفضل معهم إلى فرع الأمن العسكري في طرطوس. حين سألته عن الإذن النيابي، أجاب: «لأنك محامية، لهذا السبب حصراً، لم

نحضر الإذن»، وأبرز لها بطاقة المخابرات التي تحمل اسمه. وحين طالبت باسترداد الكمبيوتر المحمول الذي صادروه أخبرها بأن ترفع دعوى في المحكمة لتستعيده.

سِيقت إلى سيارة بيجو ستيشن. أجلسوها على المقعد الخلفي، محفوفة بالرجال والأسلحة. بالوصول إلى الفرع، قُيِّدت يداها المعقودتان في حجرها، وعُصبت عيناها. الوقت في الظلمة يترامى أمام معصوبي الأعين، مكبّلي الأيدي في الحجرات والممرات بوجوه أداروها إلى الحيطان، بعد أن أمضوا على أوراق تسليمهم ما في حوزتهم من نقود وأوراق وأغراض. ذاك المساء، كانت مجدولين المرأة الوحيدة بين موقوفين لا يعرفون ماذا ارتكبوا. اقتيدت إلى المنفردة لتضنيها هناك صرخات المعذبين وأنينهم طوال الليل، وتترقب مذعورة أن يحين تعذيبها في أية لحظة، تقضم أظافرها وتعاودها الهواجس في الظلام الذي يقلقها منذ صغرها؛ يخيفها أي باب ينفتح ويصطفق، لتدوي في الممر شتيمة: «أغلقوا الشراقات يا أولاد الحمير»، فتغلق كوّة بابها، وتسمع كيف يحتكّ بأرض الممر جسد الشخص الذي خارت قواه، ذاهباً إلى التعذيب أو آيباً منه، تسمع كيف يتهاوى الجسد الذي أثقلته الضربات ليرتطم بأرض الزنزانة، وكيف يُخبط الرأس بالجدار خبطاً مكتوماً، ولا تعود تسمع إشارات الرسائل التي ينقرها الجارُ بأصابعه على الجدار عوضاً عن الكلمات، فتحسب أن حياةً أخرى قد أزهقت. نقرة واحدة أخيرة وانية، ويختفي جارٌ في الصباح. ثلاثة أشخاص من بانياس قضوا على هذا النحو، سمعتْهم يفارقون الحياة في ذاك الممر الذي قطنت نهايته، عشرة أيام من دون أي استجواب. يعامَلُ المعتقلون

معاملةَ الموتى المؤجَّلين. إطلاق أيدي الجلادين مطلق، من دون أي تبعات أو مساءلات لاحقة، وإباحة كل صنوف الإذلال مقرونةً بالإباحة في قتل السجناء، ليقع في قلب أي معتقل أن كفة الموت الأثقل من الأمل هي الراجحة دائماً. لا أحد يعرف سبباً واضحاً لاعتقاله. لا تحقيق واضحاً، ولا معنى للأدلة والقرائن. الوضوح الوحيد هو التعذيب وآلامه.

في جهنم الأصوات تلك، صرخات من يُساطون بالكبل الرباعي وتُصعق خصاهم بالكهرباء؛ في تلك الشراسة التي لا تدع أحداً ينام، وعاصفةٌ ليليةٌ تغطي بالثلج الأرضَ التي تتراصُّ تحتها المنفردات، أضربتْ مجدولين عن الطعام والشراب وآذتْ كليتيها، وهي تجوب ذينك المترين المربعين الرطبين لتدفئ مفاصلها، محدقة بقنينة البلاستيك التي تشرب ماءها، مشمئزة من الحنفية الوحيدة في حوض المرحاض. «ليس لدينا مضربات عن الطعام»، قال العنصر الذي ناولها من كوة الباب صحناً معدنياً فيه الطعام الرديء الشحيح. «ابلِغْ إدارتك بقراري»، قالت؛ فأجابها: «لِمَ لا تضربين عن الكلام أيضاً؟ وأضربي عن النوم، وأضربي عن الجلوس...» شكرته على النصيحة، فظنها تهزأ به. أخبرته أنها تشكره من باب الأدب، ولكنّ المسافة بينه وبين الأدب شاسعة، غير أن المسافة بين يده ووجهها لم تكن كذلك. صفعها صفعتين متتاليتين قويتين، قبل أن تلجمَ سخطَهُ صيحةٌ من الطرف الآخر للممر تأمره: «توقف! لا تعليمات لدينا». قذفت بالصحن من الكوة إلى الممر، لتتراكم الفئران على الفور فوق حبات الأرز والبازلاء وتُلاشيها؛ الفئران هناك أصدقاء لطفاء مؤنسون. كانت تلك هي المرة الأولى والوحيدة التي ضُربت فيها مجدولين، وكانت الليلةُ ليلة رأس السنة ٢٠١٢.

نعيم السجن ورهاب الأبواب

السجن نعيم إن قُورن بمنفردات فروع الأمن، تقول مجدولين. السجانة التي تستعطي أضأل الرشى في سجن طرطوس متماهية بالمكان الذي تقطنه وتعمل فيه، حذّرتِ المحاميةَ لكيلا تتمادى في إسداء النصائح، ولا تزيد من تراكم التهم في سجلها الأمني، فدعتها إلى الكفّ عن تلبية استشارات السجينات وأسئلتهن. هناك، التقت المحامية بزوجةٍ «رهينةٍ» اعتقلت لأن زوجها متهم بتجارة السلاح، والتقت مخبرةً وشت بجارها المعارض فاختطفه الأمن الذي اتهمها لاحقاً بطلب الفدية واعتقلها، ولا تنسى ثالثةً اسمها «سورية» ظلت أعواماً في السجن بتهمة سفاح القربى، بينما أخوها طليق السراح، فقط لأن أوراقها ضاعت ولم يتقدم أحد بطلب لإخلاء سبيلها.

ترى مجدولين سجن المعارضات رسالة تأديب، ونهجاً «تربوياً» ليتعظ الآخرون، ولا سيما أبناء الطائفة العلوية «الكريمة» التي تحسب عليها المحامية المنهمكة بتوثيق الانتهاكات، ليصار أخيراً إلى تلفيق كذبة يصدقها الكثيرون، وهي أن المعارضين سبّاقون في الجرائم ومسؤولون مباشرون عن سفك الدماء في البلد. إنه جزء من نهج المخابرات في إكمال مسيرة تطييف المجتمع وتمزيقه، وقلبِ الثورة سنّةً ضد علويين وشيعة.

تذكر مجدولين أن التهمة الموجهة ضدها، بعد صدور المرسوم الوهمي لقانون الأحزاب، كانت تشكيل حزب سري؛ والدعاوى تُرفع غالباً على المتهمين، ثم يُخلى سبيلُ بعضهم بكفالةٍ مالية، ويضطر المفرَج عنهم إلى

مراجعة أحد فروع الأمن، من أجل التفقد وانتظار يومين أحياناً. قد تسقط تلك الدعاوى بالتقادم، أو يشملها عفو رئاسي ليس إلا مقايضةً تُنعت بـ«المكرمة». ومن جهة أخرى، ترى مجدولين في بعض السجانين ورجال الأمن ضحايا غسل الأدمغة الشمولي، بروباغندا روّجت بين الفقراء والجهلة والأميين أملَ التطوع في الأمن، بوصفه مقدمة ستنتهي بالقوة والحظوة والجاه والحصانة، ولا تستغرب كيف لا تزال الثناءات والحسد تحيط بمن يبرع في تدبر نفقات حياته من خلال الارتشاء واللصوصية. كثرٌ أيضاً بين هؤلاء من لا يرتجى منهم أي أمل.

أيُّ حسم ستجلبه الأسلحة؟ حريصة على صون وجه الثورة المدني ما أمكنني، ولستُ في خندق أحد بعد أن كثُر أعداءُ السوريين. لست نادمة ولن أتراجع. لا أكترث بخزي المعارضة السياسية، وعجزها المستمر عن تمثيل الشارع في شتى الأماكن، وأقاسم أغلبية السوريين أحقاداً لا تحصى ضد الأمن. لا أزال مستمرة في عملي تحت ظروف تفاقمت مشقاتها، بقلب يعتصره أحياناً خوفي من اعتقال أصدقائي. أقوم شهرياً بإيصال تبرعات الراهبات من أديرة طرطوس وريفها، بعد تقسيم المبالغ كرواتب للسجينات، الموصومات المخذولات اللواتي تخلت عنهن عوائلهن. على الرغم من كل المصائب التي تتوالى، على الرغم من كل المخاوف واحتمالات أن أخسر ما أعرفه وما لا أعرفه، فقد تنزل قذيفة هاون في المكان الذي أقطنه، وقد أُطرد من عملي في الأمم المتحدة- على الرغم من كل شيء، ينتابني إحساس لم أعرفه من قبل، إحساسي بجدوى ما أقوم به، إذ ما عدت تلك المتفرجة على رتابة الأيام. لكنني سأغادر سورية إذا سُجنت مرة ثالثة. رهابي الوحيد هو العودة إلى السجن بما يشبه الخطف، مثلما اختُطف

عبد العزيز الخيّر على طريق مطار دمشق، ومثلما اختُطفت الثورة التي تحارب الآن على جبهتين على الأقل: ضد النظام، وضد الإسلاميين التكفيريين؛ يخيفني أن أختفي من دون التمكن من إخبار أحد، فأؤنب نفسي لأني أقلقت أهلي الذين لا يعرفون كيف سيتصرفون، وأي أبواب سيقرعون ليعرفوا مصيري؛ شيوع النبأ يخفف على الأقل شيئاً من الهلع، لأن كل الاحتمالات في اختلال الموازين تبقى مفتوحة، وعدم وقوعها في الاعتقالين السابقين لا ينفيها البتة، احتمالات البقاء طويلاً في السجن والتحرش والانتهاكات وحتى التصفية الجسدية، تقول مجدولين. تضاعفَ حذرها، إذ لكل سجين بعد إطلاق السراح كوابيسه، أرقه وأحياناً صمته الأقرب إلى الخرس؛ عاد مجدداً الخوفُ من العتمة: العصابة السوداء التي أعمتها موقتاً وضَعتْ نصب عينيها قتامة المجهول، وحين رُفعت عن ناظريها أثناء التحقيق، التحقيق الزاخر بالسخرية من العدالة والمحاماة والقضاة، رأت مجدولين أين كانت، رأت وجه مَن يستجوبها، وربما بات ممكناً آنذاك أن تتكهن بالتصرفات، فقالت: «نعم، سأنال من هيبة القضاء، ما دمتم قد نلتم من كرامتي. لست كما تكتبون على سياراتكم «هكذا تنظر الأسود». انظرْ إلي، في عيني، هكذا ينظر الإنسان العادي»؛ أمست لا تتابع أخبار التلفزيون، سيان القنوات الحكومية أو الجزيرة وسواها، فالأطراف جميعاً، خارجية أو داخلية، ألحت بطرائقها على قبر الطائفية في سورية ليتغذّى سعيرها، وما استقوَتْ به الثورة في بداياتها سعى لاحقاً إلى دفنها حيةً. كأي حرب أخرى لن تتوقف رحى هذه الحرب الراهنة إلا بالمفاوضات.

لا يزال الهاجس نفسه يراود مجدولين عند ازدياد عدد الملتمّين في سهرة أو ملتقى؛ إنها لا تنسى السهرة التي لفقت جرّاءها تهمة «تشكيل حزب

سري»، إذ ضمت شقةٌ قرابة عشرين شخصاً في الضاحية الدمشقية جرمانا، حيث تقيم مجدولين وزوجها الذي خسر وظيفته. كانوا قد التقوا حول مائدة من التبولة والعرق، وهي تعزف على العود وتغني. إنها الآن تتجنب الحواجز ما أمكن، بالمشي أو تفادي بعض الشوارع، لأن الخوف من تعميم اسمها، ومطالبة الجنود بالهوية الشخصية، لم يبارحها بعد؛ لا تطفئ هاتفها النقال أبداً تجنباً لإقلاق الغير، فليس لخروجها عن نطاق التغطية، مثلما يردد المسجل الآلي، إلا تفسير فوري هو الاعتقال؛ أحد أصدقائها المقربين مثلاً، وهو معتقل سابق، اعتُقل حين زار أمها ليطمئن عليها. بات المنزل مصيدة، وصارت الأم في عقدها الثامن تجفل من رنين أي هاتف أو جرس، ذاك الرنين المشؤوم في الفجر أو منتصف الليل. باب البيت الذي كان يبقى مفتوحاً في سالف الأيام، مثلما كانت معظم الأبواب في قرى الساحل السوري، وجدته مجدولين مغلقاً في الزيارة الأولى بعد الإفراج عنها. ظلت الأم تقفل باب بيتها على أرقها أثناء اختفاء ابنتها؛ وإذا طُرِق، ما عادت تنادي بصوت عالٍ: «تفضل! الباب مفتوح!»، تدهورت صحتها، وقاطعت مَن لم يسأل عن ابنتها، وأحدهم ابنها الضابط الذي سمع باعتقال أخته ولم يحرك ساكناً.

(نيسان ٢٠١٣)

اسمٌ مستعار، قميصٌ مستعار، حريةٌ مستعارة

مبرّحةً بالألم، قبل إدلائها بأي اعتراف، أمسك المحقق بقميص هيام مهدداً بأنه سيقتلع عينيها. كان قد بلغ بها الأرق والألم حداً من الإنهاك جعلها تترنّح حين أفلت قميصها، ليرتطم ظهرها بخشب آلة تعذيب، عرفت لاحقاً أنها بساط الريح. أسعفت أخيراً إلى مستشفى الشرطة في حرستا، مغشيّاً عليها تقريباً، واقفة ومكبلة في الممر وقفت تنتظر نتائج الصور الشعاعية، إلى أن أجلسها الطبيب الذي شخص حالتها بـ«الديسك» (انفتاق النواة اللبية بين الفقرات)، ثم أوصاها بالراحة والنوم على إسفنج مضغوط، واستخدام مشدات للظهر وتجنب الوقوف والمشي إلا عند الضرورة، وكأن هذه النصائح ستؤخذ بالحسبان حقاً، في منفردة عرضها متر وطولها متران. ظلت هيام وحدها، لا ترى الشمس، ترتدي الملابس نفسها خمسين يوماً،

ومنشفتها قميصها الداخلي، الوحيد المنسوج من القطن. تغسل ملابسها تحت حنفية المرحاض، الحنفية الوحيدة، وترتديها مبللة فلا تلبث أن تجف في قيظ آب ٢٠١١، وهي جالسة على مصطبة في عتمة لاهبة. بمرور الأيام والأسابيع اهترأ القماش، والألوان حالت وذابت في صِدارها، فاسودّ صدر القميص وأمسى النسيج أشبه بالشبكة.

انكشف الاسم المستعار الذي نوديت به «هيام جميل». أنكرته أولاً، ثم عُذب صديقها أمامها، فما لبثت أن أقرّت بما أنكرته. بدد التوقيف مخاوفها إلى حين، فأخشى ما تخشاه قد وقع. من دون أن تتعرض للضرب، عُنفت في التحقيق تعنيفاً مضاعفاً، لأنها من قرية علوية في جبال الساحل. القرية نفسها تبرأت منها. أتاها التعنيف من كل حدب وصوب. تتفهم التضحية وتقبلها، كأن ترديها رصاصة في تظاهرة، أو تسقط بين المتدافعين إلى الهروب وتتكسر عظامها تحت الهراوات، أو تقضي تحت التعذيب، وكل ما وقع وما لم يقع، لكن تبقى الإعاقة مريعة، ومثلها الاضطرار إلى اعتناء الآخرين بها صحياً، إذ أقلقها دائماً أن تتخيل نفسها معوّقة مدى الحياة.

انقضت الأيام الستون، وحُولت هيام إلى القصر العدلي. بالحرمان تحول ألم جسدها إلى جلادها، فقد صودرت مسكّناتها من حقن «الديكلون»، والألم المبرح أسفل الظهر يكاد لا يسمح لها برفع ساقها، فتجرّ قدميها جرّاً على أدراج المحكمة وفي اكتظاظ الممرات. رداً على محامية الدفاع التي طالبت بإخلاء سبيلها «نظراً لخصوصية وضعها العائلي»، أجاب القاضي مبتسماً: «آمر بتوقيفها وإيداعها سجن عدرا، حرصاً على سلامتها الشخصية». لكن طيف الموالاة واسع، وله في التطرف مراتب. تحت أعين عشرات

رجال الشرطة الذين امتنعوا كمتواطئين عن تقديم أي عون، أشار شرطي إليها: «هذه هي!»، فهاجمتها قريبتها المحامية المنتظرة أمام البوابة الخارجية وضربتها، لتثأر من الفضيحة باقتلاع شعر رأسها، وتغسل بالبصاق على الأقل خزي العائلة؛ شتمتها: «يا عاهرة، تريدين أن تعارضي النظام، و«صرماية» بشار الأسد تساوي عائلتك كلها؟» وحين وصلت هيام إلى الحافلة، وسألت الشرطة: «أوظيفتكم حمايتي أم حمايتها؟» كان الجواب أن أدار السائق المسجّلة، لتعلو إحدى الأهازيج التي تتغنى بالأسد.

إثر الدراسة الأمنية التي أجراها عناصر المخابرات، علمت العائلة بما فعلت ابنتهم في التنسيقيات، وسمعت باعتقالها في أحد مقاهي دمشق. زارها في سجن عدرا شقيقها الأكثر تفهّماً، طبيب الأطفال المقيم في السعودية، الوحيد الذي أقدم على توكيل محامٍ من أجلها. لامها الشقيق على ما اقترفت، وبينهما شبّاكان فاصلان، قائلاً: «سلكتِ بالمعارضة طريقاً خاطئاً، فالناس تُقتل وينكَّل بجثثهم. أنتم المعارضين مخطئون. لن يتغير أي شيء، والمحصلة فقط مزيد من الفوضى والطائفية». قدّامه، من وراء الشِّبَاك، أنكرت نشاطها، وأخبرته أن الأمر محض صدفة، وربما صدّقها ليرتاح قليلاً. سألته عن أولاد إخوتها العشرة، لأن أقرانهم في المدرسة والحي سيعيّرونهم بأبشع النعوت، شامتين بعمّتهم. كانت تقتطع من مرتبها لتأتيهم بالقصص المصورة والألعاب، فهم المحرومون الأحبُّ إلى قلبها. «وتسألين عنهم؟!» أجابها شقيقها، وأخبرها أن طائرة عودته ستقلع مساء ذلك اليوم نفسه.

التحقت بهيام في سجن عدرا صديقة اعتقلها رئيس الديوان التابع للأمن السياسي؛ تصرف كأنه دورية بأكملها، إذ تعرف إليها أثناء عبورها

بالصدفة في الشارع نفسه، فاقتادها بمفرده، وصدرتْ مذكرة توقيفها في ما بعد، من دون أن يطالها أذى كبير، لأن المعلومات التي أرادوها كانت قد صارت بحوزتهم للتوّ. في غرفة الإيداع، لم يكن مسموحاً لهما، حتى في فسحة التنفس، أن تخالطا نزيلات قسم القتل المتعاطفات معهما، فتخرجان إلى الشمس والهواء وحدهما بعد عودة الجميع إلى المهجع، والسجينات السياسيات قانونياً يُعتبرن جانحات لا جانيات. كانت هيام تعد القهوة لصديقتها، متغنية بقهوة أم محمود درويش ذائعة الصيت، حين بادرت شرطية إلى القول دونما اكتراث: «أنت هيام؟ تعرفين أن والدك توفي؟» كان جوابها قرعاً ضعيفاً على جرس السجينات لاستدعاء المدير، ودموعاً صامتة ذرفتها الشرطية مثلها حين علمت بأن أهل السجينة قد قاطعوها، وقد فقدت بموت أبيها سندها. سجينات أخريات سقينها الحساء، وواسينها وهي تُعِدّ نفسها بالصبر والقليل من الأمل لسنوات طويلة من السجن. النهار التالي حمل نبأ الإفراج عنها.

تسترجع هيام كيف تلاعب المحققون في قسم الجرائم السياسية بفكرة «الشرف»، مهددين بإخبار أهلها أن «تهمتها دعارة». جراء تفكيرها المتواصل بموقف عائلتها وما قد تلقاه لاحقاً، كانت تتمنى أحياناً ألا يحين أبداً إطلاق سراحها، ففي السجن على الأقل نوع من حرية التعبير، وهي هناك تصرح بكل قناعاتها من دون وجل. عند خروجها، اكتشفت كيف انحسرت التظاهرات، وأضحت مع استفحال التسلح وانشقاق الجنود بمثابة الانتحار أحياناً. اتصلت بأمها معزية بوفاة أبيها، وذهبت تزورها في «الضيعة»، بعد يوم الجمعة، لأن الطرقات مغلقة. في تلك الزيارة، استقبح شقيقها الأكبر تماسكها، فبعد ما حصل وجسامة الأذى، كان يتوقع أن

يراها منهارة تماماً. انتظر منها إبداء الندم والتوبة عما اقترفت، لأن الحرية التي نادت بها هي حريةٌ مستعارة ولا تشرّف أحداً، وعليها أن تعي ما يجري وتستيقظ، وإلا فلن تنال إلا القطيعة. كان مثل ذاك التبرؤ بالنسبة إليها أبشع ما تعرضت له من عنف، والوطأة الأدهى هي خشيتها من حبسها هناك، في بيت العائلة، إذا عاودت الزيارة. اتهمها الشقيق بالعمل مع الإخوان المسلمين، وبالتعاون مع قتلة رفاقه في الجيش، رفاقه الذين استشهدوا بسببها وبسبب أمثالها من المعارضين، وهمّ يضربها لولا أن تدخلت أمهما، صارخاً: «لن أكون رجلاً إن لم أذبحها!»

عقب تلك الزيارة، علمتْ هيام أيضاً بطردها من وظيفتها كمهندسة زراعية. في دمشق، وقد خسرت كذلك المنزل الذي قطنته، استضافها في منزله مازن درويش مدير المركز السوري للإعلام وحرية التعبير، حيث اعتقلت هيام مرة أخرى لاحقاً. دورية من المخابرات الجوية داهمت المركز، واختطفت كل من كانوا فيه. التفتيش في ذاك الفرع كابوس كالاغتصاب. أدخلوها إلى غرفة، مكبلة معصوبة العينين، فاستهدت بالنبرات إلى وجود امرأتين سواها هناك؛ اقتربتا، المفتشتان اللتان تتواقحان في برود الردود، وبدأتا تخلعان ثياب الموقوفة قطعة تلو الأخرى، وهما تتعمّدان التمهل. الوقاحة بداهة هناك. ذروة انتهاك أخرى، أربعة أيدٍ تتحرش في فظاظة بجسدٍ ساكت مستسلم، فتتحسّس أعضاءه كلَّها بقسوة تفوق أي وصف. وقفت هيام عارية تماماً، مكبلة معصوبة العينين، ثم سئلت بضعة أسئلة عن اسمها ومكان ولادتها، لتُؤمر بعدها بارتداء ملابسها، من دون أن يزيل أحد العُصابة عن ناظريها أو يفكّ قيودها؛ تأسفت لأن السترة المستعارة من صديقتها قد قُطعت عروات أزرارها بالسكين، بينما هي محبوسة الأنفاس

تخشى، عند سماع كل قطبةٍ تتمزّق، أن يطعن النصل صدرها أو بطنها. مزقت المفتشات الملابس الداخلية لبعض الفتيات، أزحنَ الصدارات، وحملقن بالنهود المنتهكة لمعصوبات الأعين، ومددن الأيدي بين أفخاذهن، فلربما تكون الموقوفات قد خبّأن شيئاً هناك.

(نيسان ٢٠١٢)

الوزارة وشهرزاد نحّاتة الخبز

ارتاب الجيران بشبان مجهولين يترددون على بيت حسبوه مكتباً تنعقد فيه لقاءات سياسية محظورة، فاستدعوا فرع الأربعين القريب في الجسر الأبيض. أولاً، دخل شخص يحمل مسدساً، أخفاه في نطاقه ما إن رأى وجبة الشاورما والكوكا كولا على الطاولة. كبح جماحه تدخلُ جارٍ آخر، قال إن لإحدى الفتيات هنا قرابة مع شخصية نافذة في الدولة. يبدو أن ما سمعه المسلح عن النفوذ قد فرض شيئاً من احترام، لم يعتده في التعامل مع أمثال هؤلاء الشبان في مداهمات مماثلة. مريم، المعنية بتنويه النفوذ ذاك، والمتمسكة بقولها إن هذا اللقاء صدفة، وهم ليسوا مجموعة سرية بأي شكل من الأشكال، حاولت إلهاء الضابط بالكلام، ريثما يتخلص الحاضرون من معلومات قد تضرُّ بهم على كمبيوتراتهم التي صودرت، فما

أفلحوا ورمى أحدهم جهازه من النافذة. ثم دخل سبعة آخرون ليفتشوا المكان، وأوعز الضابط بمرافقتهم في تفتيش أغراضها، والانتباه لكيلا يسرقوا شيئاً. اتصلت أمها بينما هي تسقي الدورية ماء بارداً، والهاتف يرن ويواصل رنينه ولا أحد يرد. هؤلاء العناصر إذا شموا الخوف استشرسوا واستقووا أكثر، فأي مواطن سوري متهمٌ على نحوٍ مسبق. مريم، بالتهذيب والهدوء الممكنين، كانت تأمل في معاملةٍ أفضل منهم، وربما نالتها نسبياً. حاولت أن تجعلهم يشعرون بأن من حقهم تفتيش بيتها، وظلت تسايرهم إلى أن غادر العنصر الأخير، فأغلقت الباب وراءه، وسألته إن كان يريد الاحتفاظ بالمفتاح، فقد يحتاجون شيئاً ما هنا في غيابها. أجابها: «كلا، سنحضرك عند اللزوم». في الشارع التمست أن يأخذوها بسيارتها إلى الفرع. بعد إيماءة موافقة من الضابط، قادت السيارة بنفسها، ومعها فتاة أخرى وعنصران.

الفرع بالطبع عالم آخر. جرى تفتيش السيارة على الفور، وانقلبت الدورية إلى نقيض ما كانت عليه. في هيجانهم المسعور لمحت مريم شاباً يصغرها أعواماً وتعرفه جيداً، اعتقل في المداهمة نفسها؛ شاهدت تعذيباً ضارياً، أخرسها تقريباً طوال أربعة وعشرين يوماً أمضتها في المنفردة. لا أحد يستطيع أن يقول كل ما رأى. لم تستطع النوم حين لمحت الشاب نفسه مرة أخرى من كوة الباب، مضعضعاً حليق الرأس مطأطئاً في ممر التعذيب، مساقاً إلى مبنى آخر. كان تعذيبه شديداً في الفترة نفسها التي عانت فيها مريم من التهاب العصب الوركي، أو عِرق النسا. اضطربت، وراحت تطالب بقصّ شعرها كله، كأنها بهذا التمثُّل ستخفف من وحدته. لم تشعر بمغادرة السجن إلا حين علمت بخروجه أيضاً في وقت لاحق.

كانت مريم تنصح بعض الفتيات اللواتي جمعها بهن المهجع نفسه، وقد تفاقمت نوبات الهستيريا لدى المصابات برهاب الأماكن المغلقة. كانت، بما تقوله وتعيده، تنصح نفسها أيضاً: «عليكِ بالتأقلم مع رداءة الأحوال. لا تجلدي نفسك باسترجاع العالم الخارجي وقصص الأهل والذكريات. استرخي، ولا تقاومي، لأن ما حصل قد حصل، ولا يمكن تغييره أو العودة إلى الوراء. لِمَ التذمر؟ انظري إلي، كنت أدخن ولا يزال فوح السجائر يسعدني، لكنني أقلعتُ هنا عن التدخين، فأوصدت بذلك باباً آخر من أبواب التنازلات. أنهيت التنازل قبل أن يبدأ.» كانت إحدى الشابات تكشف ثديها للسجان لقاء «نَفَس» سيجارة، وتخاطبه «سِيْدي»؛ امرأة أخرى احتارت كيف ستأتي بالبرتقال الذي تشتهي ابنتها أن تشمه وتذوقه، ابنتها المراهقة الحامل والمعتقلة معها، وفتاة ثالثة راقصة عولجت من سرطان الثدي كان زوجها للتو قد دبر لها عقد عمل في أحد الملاهي، بعد استغلالها طويلاً في الدعارة. التقت مريم بمذَلات يقع عليهن ظلم مضاعف خارج السجن وداخله؛ وتتوقف عند شابة حلبية المولد تسميها شهرزاد.

شهرزاد مطلقة، أجبرها أبوها على الزواج برجل حملت منه، وأجهضت ثلاث مرات. هربت من حلب إلى حمص أولاً، ومن ثم إلى دمشق لتعمل في مشغل من مشاغل الخياطة والتطريز بسوق الحميدية. أعالت نفسها، وأغرمت بشاب من ثوار الزبداني تعرفت إليه من خلال الإنترنت. تزوجته زواجاً عرفياً لدى أحد الشيوخ، ثم اعتقلت وهي في الشهر الثامن من حملها. مريم تقاسمت الزنزانة معها، وكلّمت الجنين الذي يسمع أيضاً ما يدور حوله في تلك الأقبية، فسمَّتها الأمُّ أمه الثانية، وكلتاهما تتبادلان الدعم في نوبات السخط والقنوط، وثالثهما في الصبر والوحدة

طفلٌ منتظر. في إحدى المرات، أتت مريم بها لململته من فتات الخبز وبقايا لبابه، وصنعت شهرزاد من العجين تمثالاً صغيراً دقيقَ القسمات للجلاد أبو غضب في فرع الخطيب، بنحوله وأذنيه الكبيرتين. جلاد مريض يحلم بالفراريج المشوية ويأكل الحمص، ويُسقط إحباطاتِه على أجساد المحابيس، ويتمنى لو تجد له مريم وظيفة في الوزارة التي تعمل فيها. عبر ما تناهى إليها من أحاديث بينه وبين زملائه، علمتْ بوفاة المغنية وردة الجزائرية، وتسربت في ما بعد أنباء مجزرة الحولة، وتسميم خلية الأزمة. أينا السجين؟ تقول مريم. أنا العابرة ككثيرين إن نجونا، أم ذو المرتب الشحيح، هذا المقيم الذي أمضى أعواماً وأعواماً تحت الأرض من دون تفكير بتبعات عمله؟ استوقفه ذات مرة بكاءُ شهرزاد، وقد امتنعت كلتاهما عن تناول برغل كالحصى لا يؤكل. سأل ما بها، فلم يلقَ جواباً. وبعد قليل أتاها بحبتي خيار طازجتين، والخيار ملغى من مخصصات سجن النساء، ثم ذهب وعاد بحفنة ملح صغيرة وضعها في راحة مريم التي رأت للمرة الأولى في السجن تلك البلورات النقية. كانت شهرزاد، كل ليلة تقريباً، تروي لها حكاية عن حلب، وبعض حاراتها وناسها والأعياد هناك وأيام رمضان، وتختم الحكاية أحياناً بأغنية تعشقها؛ وفي أحيان أخرى تخبرها عن رجال مختلفين أولعت بهم وبوسامتهم، والعلاقات التي جمعتها بهم، وكيف كانت تتأنق وتتغنج. كانت تهمتها هي المساهمة في تأسيس شبكة للخطف، فهي المقتنعة بأن الغاية تبرر الوسيلة، ورأت كيف انتهت أحوال البلد في طريق مسدود، ساعدت في استدراج بعض الضباط والموظفين إلى كمائن اختطاف، طلباً للفدية لاحقاً أو لتصفيتهم. كانت شهرزاد تسمع في أصوات المعذَّبين صوتها هي، وصراخها حين كان أبوها يجلدها بـ«الجنزير»

كلما التقت شاباً غريباً. بكتها مريم عند المغادرة، فقد ذهبت من كان يمكن أن تمدَّها بكأس ماء حين تستفيق لاهثةً من كابوس. أليماً تجلى آنذاك خواء المنفردة التي ضاقت عليهما، واتسعت بكلتيهما.

أحد المحققين، بعد ساعات طويلة من تبادل الكلام وشرب الشاي، وكأن التحقيق على هذا الغرار سيكسر الإطار الذي يخنق الموقوفة، استمع إلى مريم تقول: «عرفتمونا الآن أكثر، فهل أحببتمونا؟»، أدهشها بالتعبير: «تصبحون على وطن!». لكن الحفاظ على القوة وتمالك الأعصاب يقتات من الجسد، والعلامة هي الكيلوغرامات الثمانية التي خسرتها مريم من وزنها، ولا سيما عند إرجاعها إلى فرع البداية، فرع الخطيب، لأن ذلك يعني بدء دورة التحقيق من جديد؛ وفي إحدى جولاته كانت راكعة معصوبة العينين، والجلاد يقف إلى جانبها ينعتها بـ«الوزارة»، وهو يضرب الأرض بسوطه الثقيل، ويلامس به ركبتيها الجاثيتين من دون أن يضربها، كما تقضي الأوامر عادة بالامتناع عن تعذيب النساء. كانت تحث نفسها لتقوي اللواتي تظنهنّ أضعف منها. لكن قولها بأن التعذيب لسعة سيختفي أثرها في المستقبل لم يقنع أحداً ولم يخفف شيئاً. الرجال يعذَّبون والنساء يبكين معهم، وإذا أجهشت إحداهن بغتة خلخلت الدموع كل الفلسفات، وعمّ النواح المهجع كله، وباءت كلُّ تهدئة بالإخفاق.

حين أفرِج عن مريم التقت والدها الذي بكى عندما رآها في مكتب الضابط، بحضور مسؤول كبير في الدولة قال: «سوف نسلمك إلى عائلتك ليتحملوا مسؤوليتك»، وحين احتجت، أسكتها غاضباً: «أنت لم تتزوجي بعد، ولا تعرفين معنى الأمومة ومعزّة الأطفال. الآن أنت بطلة معارضة، وسيتهافت

عليك المعارضون. تزوجي أحدهم!». بوصولها إلى البيت استحمت مريم بشامبو «سنان» الخاص بمعالجة القمل، قبل أن تنزل وتشرد وحدها في الشوارع، وتباغتها الحواجز في شارع بغداد؛ عادت وافترشت الأرض مثلما كانت تنام في السجن. لم تشعر بأن ثمة من يستوعبها حقاً، فما قد توحي به من قوة أمام المصائب حرمها العطف العادي الذي قد يحتاج إليه أي إنسان، أن يخاف عليها أحد، ويقف إلى جانبها في تلك الوحشة. سجلت صوتها وهي تروي تفاصيل اعتقالها، لعلها تتخلص من هذا العبء؛ وحدها أعادت الاستماع إلى نفسها، واستغربت صوتها مسجَّلاً. لم تشعر بالحرية، ولكن ما أفرحها صحة والديها الجيدة، المحبّين لها، وإن أوقفت عن عملها، ولم يُسمح بتجديد جواز سفرها. لقد وصلت بالاعتقال إلى بقاع قاتمة في نفسها، في بعضها منبع قوة لم تكن تتخيل أنها ستدركها ذات يوم. خاضت قذارة التجربة، وانتهت بالعودة إلى الناس، إذ ما معنى انضمامها إلى الثورة إذا انكفأت وما استمرت بالعمل من أجلها، وهي تعلم جيداً كلَّ ما يترتّب على ما تقوم به؟ مؤخراً، نجت من طلقة قناص، حين كانت توصل أغراضاً إلى مخيم اليرموك المحاصر.

(تشرين الثاني ٢٠١٢)

الفضيحة الأخرى

لتوزيع المناشير كنا نعتمد طريقتين وتوقيتين: سيراً على الأقدام ليلاً، وبَعثرَتُها من نافذة سيارة نهاراً. صباح عيد الجيش في ١ آب ٢٠١١، ارتكبتُ حماقة في حارات دمشق القديمة. بعثرتُ نسخ منشور يحمل هذه الجملة «حماة الديار عليكم سلام، الشعب يريد إسقاط النظام»، من دون أن أعرف أزقة الشام القديمة ودهاليزها جيداً. يبدو أننا أخطأنا بدخول زقاق طويل. توقف قربنا راكب دراجة هوائية ضخم القامة، أمسك بخناق صديقي القصير صارخاً: «يا ناس، يا حارة، يا زبالين، يا أمن»، فالتمّ أهل ذاك الحي، وقال أحدهم: «أتيتم هنا، أو بعثوكم لتهددوا استقرارنا، ولن ننجرّ إلى اللعبة». بهروبي دخلت زقاقاً مسدوداً، وأرشدتْ المطاردين إلى مكان اختبائي سيدةٌ عجوز كانت جالسة على شرفة منزلها، تقول سماح. صفعها

أحد المدنيين الذين تطوعوا تلقائياً للقيام بدور الأمن، واحتجزهم آخر في منزله، مُصادِراً هواتفهم وبطاقاتهم الشخصية، ثم ما لبث أن أعاد إليها هاتفها، موقتاً، لتخبر أهلها بما جرى. لم يبقَ أبواها طويلاً في مخفر القنوات، أخبرها العميد، بعد انصرافهما، أن أمها تريد مكالمتها بالهاتف. سألتْها: «ماذا فعلتِ؟»، «رأيتِ بعينك قبل أن تنصرفي»، أجابت سماح، فقالت الأم: «لا أقصد تلك القصة، أعني الشيء الذي وجدوه في حقيبتك»، إذ اكتشف الشرطي بتفتيش أغراضها واقياً ذكرياً تحول إلى المسألة الأساسية، وأنسى الأهل قضيةَ التوقيف برمتها، ليصبح الإنجازُ طيَّ صفحته أولاً. علمت سماح في تلك اللحظات أن قانون العقوبات السوري لا يبيح حيازة «الكوندوم» أو الترويج له. في الخوف والهوان، ذهلت بما يغيِّبُ من القوانين، وكيف تُستخدم في اللحظات الحرجة ضدنا، فما حسبته علامة وعي صحي كان جنحةً، لا يحاسب عليها الأهل والمجتمع فحسب، بل القانون أيضاً.

ما مررتُ به قد لا يستحق الذكر، قياساً إلى مرارات سوريين كثيرين وآلامهم. الفرق شاسع بين ما يُسمع عن السجون وبين ما يُعاش ويدور بين جدرانها. على أية حال، حُوّلتُ إلى فرع الأمن الجنائي في باب مصلى، تحت تلك الساحة التي لا تتوقّف حركتُها ليلَ نهار، تقع الزنازين بمساحة الدائرة الكبيرة تلك، وذات مرة لوّن شبانٌ مياه نوافيرها بصباغ أحمر. وصول بعثة من الأمم المتحدة لزيارة السجون السورية في آخر الشهر الثامن من ٢٠١١ أدى إلى اتخاذ إجراءات شكلية، مثل تعميم قرار مؤقَّت برفع الضرب ريثما تنصرف الوفود؛ ومع ذلك كانت مثل هذه التعميمات تُخرق عادة. أخبرهم رئيس الفرع: «لا تهتفوا بحياة الرئيس الآن، فقد يظنوننا نجبركم على ذلك،

حيّوه في قلوبكم». بإضرابها عن الطعام، وإلحاحها على رؤية أهلها (أو ربما نجحت توسّطات أهلها لدى بعض من ذوي النفوذ) أخذها المحقق إلى المنزل. للانتقامات أسباب لا يقدر أحد على إحصاء عددها والإحاطة بطبيعتها، والمحققون لا يوفرون سانحة لينتقموا إذا خضعوا مكرَهين لأوامر الذين يعلونهم في المراتب، وكأن إيقافهم في أحيان نادرة عن إهانةِ الناس إهانةٌ شخصية لهم. أنزلتها الدورية مصفدة على الرصيف محروسة بمسلحين. لم يجدوا شيئاً بتفتيش المنزل، رافضين فك القيود عن يديها أو تغييرها ملابسها التي نتنتْ؛ يبدو أن المشهد كله قد اختُلِق إمعاناً في الإذلال وحسب، وبسببه قوطعت العائلة من أهل الحي المرتابين، وهُددت بالطرد من المنزل المستأجر الذي تقطنه. أعادوها إلى الفرع، حيث رفع معنوياتها شبان الزنازين المقابلة. جيء بهم من القنوات وركن الدين، حيث استشهد الشاب زرادشت وانلي في بداية حصار الحي الأخير. ربما عادت عليهم رثاثة ثيابهم بأسباب إضافية في استسهال التنكيل. كانوا أصحابه، أصحاب زرادشت الذي أصيب على الحدود مع الجولان المحتل، حين أتاحت قوات النظام الوصول إلى الأسلاك الإسرائيلية الشائكة، ثم عاد إلى ركن الدين ليرديه رصاص رجال الأمن في إحدى التظاهرات هناك. كانوا لطفاء، لا نوافذ ليستدلّوا بالضوء كم من الوقت مضى، وفي أيّ جزء من اليوم هم، وأحياناً يتسلى العسس فيخبرونهم بمواقيت متضاربة، هذا إذا أجابوهم في ساعة ضجر. حوالى ثلاثين شاباً، يتناوبون النوم والجلوس والوقوف في مهجع ضيق حمامه معطل، ينتظرون سخرة الطعام ليتبادلوا الأخبار والسجائر، وسماح تتواصل معهم همساً أو بالإيماءات، يحاولون إضحاكها والتخفيف عنها، كفتاة وحيدة بينهم تخفف أيضاً بحضورها من بشاعة

الجو، وربما تمنحهم طاقة إضافية للصبر. صادفت فتاة واحدة فقط لم تطل مكوثاً، مراهقة علوية ألقي القبض عليها وهي تبخ «الحرية» على جدار في مخيم فلسطين.

المحامي الذي وكّله أهل سماح ألغى بالرشوة تهمتَها، وهي التحريض على قلب نظام الحكم، ليُفرج عنها: «براءة». لكنها لم تتمكن من التواصل مع أهل بعض الشبان المعتقلين، لأن أرقام هواتفهم كانت مكتوبة على قصاصة أخفتها في جوربها الذي رمته أمها في الغسالة قبل أن تنتبه. لم تستطع النوم على السرير فافترشت الأرض، ثم ذهبت في النهار التالي لتزور علي فرزات الذي خطف وكُسّرت أصابعه. إنها الآن خارج سورية، تحاول أن تسخر من ندمها على المغادرة، لكنها ترى عن بعد ما يجري، وتسترجع المحللة النفسية رفاه ناشد التي اختبرت الاعتقال أيضاً. ليس بمقدور سماح أن تسدد أكلاف جلسات التحليل النفسي الباهظة، وقد اشتدت حاجتها إلى من تلجأ إليه في الشتات الذي لا تخفى عوارضه، خصوصاً لدى القادمين من المناطق المقصوفة، مثل طفل سوري لاجئ رأته في بيروت مصاباً بالفصام. عقب الاعتقال اقتنعت سماح بخطأ الأسلوب في مواجهة النظام «الممانع والمنيع»، فالمعارضون لم يهتدوا إلى اختراقه، ولم يعرفوا كيف يزعزعونه. السور الذي ضربه النظام حول سورية لم يخلخله في الواقع غير دماء السوريين التي فتحت الثغرات لتتسلل الصور والأنباء والغرباء، ولتختلط الحرب بالثورة حتى أوشكت أن تجهز عليها. تماسك النظام رهيب، وولاء مخلصيه مخيف. الانشقاقات غير ذات قيمة، وكانت في معظمها هروب بعض المسؤولين والضباط وأسرهم قبل أن يطالهم البطش،

ليزداد بالمحصلة التضييق والرقابة على الذين لا يزالون يعملون في دوائر الدولة. مثلاً، ما جدوى انشقاق رئيس فرع الأمن الجنائي، وقد عُذّب على يديه، وبناء على أوامره، عدد كبير من الناس؟ بأي نفع سيعود على الثورة التي لن تستطيع إصلاح أمثاله بين ليلةٍ وضحاها؟ ثمة عناصر وضباط لا يبرحون فروع الأمن أياماً، ولا يرون أسابيع وأشهراً أهلهم وأطفالهم في أرياف وبلدات مختلفة، ولو في زيارات خاطفة. لقد جنّدوا أنفسهم خدماً لقضية يرونها عادلة، وهي الدفاع عن أنفسهم أولاً دفاعاً عما يرونه الحق. لربما كان التغيير التدريجي للنظام أجدى. تراجعت شعارات الثورة أحياناً، ولم تثبت أو تتقدم، ولا يزال هناك كثيرون يبقون مفاهيم الثورة الأولى حية، تلك بطولة في هذه الظروف التي يتم فيها تدريجياً تغييب الوقائع. كانت المطالبة بإعدام الرئيس منعطفاً حاد عن الديموقراطية، بداية مأزق استفحل اقتتالاً أهلياً ودينياً أحياناً، في المد الزاحف من كل الجهات، مدعوماً ووافداً من بلدان وأعراق شتى. كم مرة رُوهن على وعي السوريين؟ وكم مرة قيل إن الذين سيبيدون العلويين ليسوا مقاتلي الجيش الحر، وإنما أهل الضحايا المأكولة حقوقهم، منتقمون في الحولة والتريمسة وغيرهما من أراضي شهدت مجازر؟ قد يُرد على المذبحة بمذبحة، والعنف سيمتصه الدم المراق، وقد يوقفه إلقاء القبض على بشار الأسد وإعدامه، لكن يبدو أن العدالة الغائبة ستفوَّض إلى أيدي المنتقمين. المجازر الضيقة النطاق تهدد بالتوسع نحو المستقبل. شمالاً، بالمرور من قرب الفوعة، إحدى القريتين الشيعيتين في ريف إدلب، أشار أحد عناصر الجيش الحر، وقد أعانها على التنقل من منطقة إلى أخرى ومغادرة البلاد: «غداً سندخلها، ولن ينجو منهم أحد». لا

حلَّ إن لم ننتقل من المصائب إلى طاولة مفاوضات، تقول سماح. سيبقى القتال مفتوحاً، والتجارب المشابهة عديدة من لبنان إلى الصومال وعبر العالم. لكن الحياة مستمرة، والمنكوبون الذين دُمّرت منازلهم بالبراميل وقذائف الهاون لم يبق لهم غير الطريق.

(تشرين الأول ٢٠١٢)

الحضيض المقلوب

المؤسسات التعليمية في سورية تآكلت ونخرها الفساد، في دولة ظلت عقوداً على الطريق إلى الاشتراكية. لا تنسى آلاء منح الطلاب الأوائل في الدراسات العليا، واشتراط الانتساب إلى حزب البعث، وكيف تخللت الرشى والوساطات كل الوزارات، فأوفِد الكثير من الخرّيجين عديمي الكفاءات إلى خارج البلاد، ليعودوا ويعتلوا المناصب كالرقباء، بينما مستوياتهم العلمية في الحضيض غالباً. في خفرٍ وخوف، انتظرت طويلاً أمام باب وزير التربية، ولاقت لدى مدير مكتبه من بشاعة المعاملة ما جعلها تندم على عدم الذهاب إلى تظاهرة جامع الدقاق في الميدان. حاولت تالياً اللحاق بصديقتها. وصلت متأخرة إلى تظاهرات الميدان الصغيرة التي لم تكن تدوم عادة إلا بضع دقائق، إذ ذهبت تبدّل حذاءها ذا الكعب العالي الذي انتعلته

من أجل مقابلة الوزير بخفٍّ رياضي خفيف يعينها على الركض والهرب. أقلقها خلو المكان، وقصاصات المناشير على الأرض. كانت تلك بداية خروجها للتظاهر في حزيران ٢٠١١. تقول إنها تمغنطت إلى التظاهرات، أمرٌ أقرب إلى الهلوسة. استغربت كيف علا صوتها، هي الهادئة خفيضة النبرة. تبيّن لها جانبٌ في نفسها لم تلحظه من قبل، ولم تصدق وجوده. أظهر الهتاف شيئاً وحشياً دفيناً، لعله الحرية، هذه الكلمة المقلقة المحيرة.

غابت آلاء تماماً عن بدايات الثورة، حين توزّعها التذبذب والتخبط في الآراء. بدأت مشاركتها بخفر، وازدادت تدريجياً إلى أن توقفت. أوهمت نفسها أولاً بأكذوبة الإصلاحات وانساقت إلى تصديقها، فبشار الأسد تعلّمَ في مجتمع ديموقراطي منفتح في بريطانيا، وتوقعت، مثل الكثير من السوريين، أنه سيعتذر من الشعب السوري عما جرى في درعا في ١٨ آذار ٢٠١١، أو ربما حتى سيتنحى عن السلطة. كانت خيبة كبرى اكتشافها أنه مجرم آخر ينضاف إلى سلالة المجرمين. الثورة تأخرت عقوداً. ربما كانت «أحداث حماه» ثورة قُمعت، لكنها ثورة خاطئة لأنها انتهجت السلاح والجهاد منذ بدايتها، تقول آلاء. اثنان من أخوالها قُتلا أثناءها، لانضوائهما في حركة الإخوان المسلمين. كان أحدهما منفذاً لتفجير الأزبكية عام ١٩٨٠، ولا تعتبره العائلة مجرماً، بينما اعتقل بجريرته شقيقه الآخر الذي قُتل في مجزرة سجن تدمر.

الطابعة المتآمرة

شاب أكابر، تقول آلاء، سمسار في مكتب عقاري بحي المزرعة، أكّد في مخفر عرنوس تقريره: «هذه هي، مَن قامت بتهريب المتظاهرين في سيارتها».

كانت، بتلك السيارة التي حُجِزت، تنقل أطباء إلى بعض المعتقلين، عندما يفرج عنهم جرحى ومرضى، وتقلُّ اللواتي يزرن أمهات الشهداء في الغوطة، الأمهات اللواتي شجّعت بعضهن أبناءهن على التظاهر والاحتجاج. بتلك السيارة نفسها هرّبت الأدوية والمعلبات. فحركة النساء أسهل على حواجز النظام التي لا يدقق عناصرها غالباً أوراقهن. التعاطي أرحم، والتساهل النسبي استغله البعض أحياناً حتى في تهريب السلاح. كان الاعتقال الأول قصيراً، لكن نتائجه مزرية؛ أقيلت إثره من عملها كمندوبة تساهم في تجديد المناهج والكتب المدرسية. ثم استُدعيت لتراجع وزارة التربية. استفزها الانتظار المديد، وتجلّت تفاهة الموضوع ؛ كانت تحسب أنها ستلقى اعتذاراً عن حذف اسمها من قائمة المؤلفين التي لا يُسمح باحتوائها على معتقلة سابقة. عند انصرافها باغتتها سيارة مرسيدس متربصة أمام باب الوزارة. اقتيدت إلى فرع الأمن السياسي. في السيارة ناداها رئيس الدورية باسمها المستعار الذي استخدمته في تجمع «أحرار قاسيون» في حيّ ركن الدين، أحد التجمعات الكثيرة التي لم يعد لها أي وجود.

تذكر آلاء أن مشاركتها في «أحرار قاسيون» محاولة للتخلص من الذات الضيقة والذوبان في عمل جماعي، لذة أن تكون جزءاً صغيراً حياً يتحرك في كلٍّ منسجم. ما تلقته من حسن المعاملة يخالف النظرة السائدة في مجتمعها تجاه شبان ذاك الحي، كزعران في العشوائيات، بينما رأى بعض شبان التجمع أن وجود امرأة علامة على الرقي والانفتاح وتقبل الآخرين، وبعضهم ممن يصغرونها سناً لاطفوها وأغرموا بها، لكن وشاية أحدهم تسبّبت باعتقالها للمرة الثانية؛ كان يؤلّب باقي الشبان لينبذوها، إذ كيف يرضون أن تقوم امرأة بتشغيل التجمع وتحريكه، وأولى بهم الرفض. إنها تندم على الأريحية

التي عاملت بها أولئك الذين خذلوها. أكان لا بد من أخطاء بدا تلافيها ممكناً؟ أستغربل الثورة وتطهر المشاركين فيها حقاً؟ لكنها أحبت حماس الشابات المندفعات، وتنافسهن وسرعتهن ودقتهن في إنجاز ما يُوكل إليهن، وهي أمور تعلمنها إجمالاً في التجمع الذي رفع شبانه علم كردستان فوق قاسيون، وربما كان ذلك أحد الأسباب التي حفزت مجموعات كردية لكي تنضم إليهم. كانت الطابعات في منزل عائلتها البعيد عن الشبهات، في حي المهاجرين ذي الأغلبية المؤيدة والمجاور للقصر الجمهوري، أهداها لهم تاجر دمشقي أقام في الحي نفسه، وغادر إلى خارج سورية في بدايات الثورة. صادرت دورية المداهمة كل الطابعات، وكانت آلاء في اليوم السابق لاعتقالها قد طبعت العدد ١٣ من جريدة «ضياء الجبل»، وأعطت الشبان نسخاً للتوزيع، ثم استخرجت المحابر وأوقفت تشغيل الأجهزة. في غرفة التحقيق، وفي وقتٍ قياسي بعد تشغيل الطابعة الليزرية الكبيرة، وُضِعت أمامها خمسون نسخة من العدد نفسه. القلق وإلمامها المحدود بالتكنولوجيا لم يتيحا لها أن تتذكر النصيحة بإلغاء أمر الطباعة، لأن للطابعة ذاكرة. حين سئلت: «ما هذا الذي ترينه أمامك؟» حظ! قالت في نفسها. دليل واضح دحض إنكارها كله. حارت في الرد، تراها ستبكي أم ستضحك. ثم قالت: «هذه الطابعة متآمرة. إن الله يحب النظام!».

جابت آلاء فروع الأمن في دمشق. بدأت بفرع الأمن السياسي، ثم الفيحاء، ثم فرع فلسطين، ثم فرع ٢١٥ في كفرسوسة. كانت تظن في كل انتقال أن ساعة الإفراج قد حانت، وأنها سوف تلتقي ابنها الذي لم تفارقه قط من قبل، بينما كل انتقال في الواقع يفتح كوة أمل لا تلبث أن تنغلق. كانت أكاذيب السجانين تُصدَّق في اليأس. الأيام القلائل التي توقعتها،

وراحت تحصيها، استطالت إلى شهرين ازدادا يوماً في سنة ٢٠١٢ الكبيسة، خلالها نبت الشعر على ساقيها، والتمست بحرج شديد «ميم» مزيل الشعر، واعتذرت عن تخبطاتها التي عزتها أمام الضابط إلى التغيرات الهرمونية الدورية لدى المرأة. كانت كلمة نابية تكفي لتؤذيها وتؤرقها. كان ذلك قهراً إضافياً، مساساً وهاجساً لدى الكثيرات. لم تتعرض للضرب والتحرش، لكن حرمانها من ابنها كان عقاباً مبرحاً بحدّ ذاته. بذاك الحرمان عُوقبت، وهُدّدت بابنها. كانت تسمع الرجال يُضربون ويصرخون فتؤلمها أضلعها، ولا يزال هذا الألم يعاودها في البرد فتضيق أنفاسها، وتتذكر الجرذان، بشاعة الجرذان، والقرف الذي يعتصر الأحشاء لمرآها.

المغمورون والأسد كاتم البشر، كاتم الأصوات

تتوقف آلاء عند المغمورين إعلامياً. تابعت قضايا الأكراد وحراكهم السياسي، وشوّشتها أحزابهم الكثيرة. لا يعلم كثيرون بوجود بَدْوٍ نُعتوا بالمغمورين، بعد أن غمرت بحيرة الأسد أراضيهم، ثم جرى توطينهم بين الأكراد في الجزيرة السورية. في فرع الفيحاء، أقامت آلاء ليوم واحد فقط مع امرأة كردية اعتقلت وطفلتها الصغيرة بتهمة التسول. كانت بسيطةً أمنيةُ تلك الأم السورية، الأميّة وصغيرة السن: أن تتزوج ابنتها من شخص يحمل الهوية السورية، لأنها محرومة منها. انتبهت آلاء إلى تغييب الدولة التام للموصوفين بالمكتومين، المحرومين من البطاقات الشخصية التي لا يستطيعون من دونها الحصول على وظيفة، أو إتمام دراستهم وسوى ذلك من الحقوق المسلوبة، وإذا تزوجت المكتومة وأنجبت كان أبناؤها مكتومين مثلها، في معادلة غريبة بدت مستحيلة الحل.

تذكر آلاء مثالاً عن المغمورين إعلامياً لا يفارقها. إنه عدنان صديقها الذي عملت معه في «أحرار قاسيون»، واتصل بها محذراً إياها قبيل دقائق من اعتقالها في وزارة التربية. حين بدأ النزوح عن حمص تبرع عدنان بمهر عروسه، مبلغ ٢٠٠ ألف ليرة جمعها بكدّه خلال سنوات، طامحاً إلى الاستقرار وتأسيس عائلة صغيرة. خصص المبلغ ليستأجر شققاً في ركن الدين تستضيف العوائل النازحة. عند التحقيق مع آلاء أخبرها أحد المحققين: «عدنان جحش ومخه يابس»، ففي اعتقالاته المتكررة ما أفشى اسم أحد، ولا أقرَّ بأية تهمة من التهم. بعيد الإفراج الأخير عنه، فكّر بالعثور على أسرع طريقة لتقديم المعونة إلى أرامل الشهداء في دوما. وما إن توفر لديه ثمن السلاح الخفيف الذي جمعه، مثلما لملم من قبل مهره، حتى التحق بالجيش الحر، منفذاً الفكرة التي اختمرت داخل السجن، ورسّخها التعذيب الذي نال من جسمه كله. استشهد في الهامة في ٢٦ حزيران ٢٠١٢، في أول معركة صغيرة خاضها. لا تزال آلاء تحاول دائماً أن تزور مثواه في السادس والعشرين من كل شهر، وتضع صورته فوق ترابه. لم يكن جهادياً ولا قاتلاً. الخلوق الهادئ استعجل الموت، وزاد هذا الرحيلُ المبكر إيثاره وضوحاً ونصوعاً.

المحرومات والقبيسيات

لم تُحَلْ آلاء إلى المحكمة، وأُبقي ملفها مفتوحاً. عند خروجها أقلَّها رئيس الفرع بسيارته، وهو أحد الضباط المسرحين والمتقاعدين الذين تمت إعادتهم إلى الخدمة بسبب الظرف الطارئ، أي الثورة. ربما تأثر الضابط حين رآها تعانق ابنها، فأخبرها أنه وافق على الإفراج عنها من أجل ابنها فحسب، ولو شوهدت مرة أخرى في تظاهرة فلن يعرف أحد مكانها أبداً.

أنزلها الضابط في الواحدة ظهراً عند دوار الجمارك. قبالة كلية الهندسة جلست على الرصيف، في قمة السعادة، تفكر بأن تفاجئ أهلها. كانت تضع سيور حذائها، حين قالت لرجل حملق بها قبل أن يركب سيارته: «مستغرب؟ لقد خرجت الآن من المعتقل»، كانت بها رغبة في محادثة أي شخص في الشام. تحت مطر خفيف مشت إلى ساحة الأمويين القريبة؛ هناك استقلت سيارة أجرة ثرثرت مع سائقها، لتنتبه إلى أنها قد تجاوزت طباعها التي تميل إلى الصمت وعدم الإكثار من الكلام مع أحد. ربما تغيرت من دون أن تنتبه، أو ربما هي الحاجة إلى الحديث مع إنسان، أي إنسان، تلك الحاجة في وحدة لا شيء فيها يسري عن النفس، ويخفف وطأة الهواجس ومراجعة الذات التي لا تنتهي والذكريات، وأحياناً كان التحقيق نفسه متنفساً لرعب الوحدة، ومهرباً من الاحتمالات التي تدور في دوامتها. تلك الحاجة إلى سماع صوت إنسان، دفعتها إلى دق باب الزنزانة، فقط لتسمع جواباً يؤنس تلك الوحشة، ليس إلا: «نعم، خير؟»، وجعلت تنتظر أوقات الوجبات، لأن كلمةً على الأقل قد تُسمع.

استحوذ على آلاء طويلاً الشغف بالقراءة. القراءة والدراسة المفرطتان تنسيانها هموماً عدة. حمتها الكتب من الاستسلام للأقاويل التي رافقت انفصالها عن زوجها، ولا تعلم الآن إن كان الأجدى لمشاركتها في الثورة أن تواظب على التفرغ للتحصيل العلمي وتتفوق فيه، لكنها آثرت النزول إلى الشارع والعمل على الأرض، ويا لفداحة المسعى. عند الإفراج عنها، زارها جيران يهنئونها على السلامة. انقضت أيام جميلة قليلة أعقبتها، من دون أي تفسير واضح، ردود فعل غريبة تجاه اعتقالها. ابتعد عنها عديدون، وبعضهم من الذين عملت معهم. آذاها ما حام حولها من شبهات، تداولها أقرباء يرون

أن النظام باقٍ، وخطؤها بمعارضته جسيم، لأن أهل الشام لا يريدون الضرر لأحد، ولا يحبون المشاكل. لطالما كرّرتْ هذه البيئة نفسها، غفلة الرئيس الشاب عما ترتكبه بطانته، بل إنه يحاول إصلاح ما يفسدونه. لا تفهم آلاء كيف شاعت فكرة أن طول مكوثها في السجن يعني إفشاءها معلومات قد تهدد الآخرين، أو حتى تجنيدها كمخبرة لدى الأمن، فالدمشقيات لم يكن يطلن مكثاً في الاعتقالات، وشاع أن الأمن يتجنب اعتقالهن عادة. آلمها الاضطرار إلى طبيب عصبي راجعته وهي لا تزال تعرج، لأنها لم تكن قد شفيت تماماً من الحمى المالطية التي أصابت مفاصلها أيضاً، بعد تناولها لبناً ملوَّثاً في فرع فلسطين. تحت تلك الضغوط، آزرها قليلون في وحدتها الجديدة، وإذ اتضحت الأمور خلاف تلك الأقاويل اعتذر منها بعض اللطفاء، وعادوا ليشاطروا الرأي ابنَها وشقيقها المقيم خارج سورية مفتخرين مثلهما بالمناضلة التي تخشى مغبة اعتقال جديد. تغير أيضاً حرص أمها، بنت الميدان، فما عادت تستجوب ابنتها إلى أين هي ذاهبة، ومع مَن، ومتى ستعود إلى البيت، وما عادت تلح بالاستفسار عمن يكلمها هاتفياً في وقت متأخر من الليل، وماذا يريد المتّصل، ولا تعبأ إذا صعد معها رجل غريب إلى السيارة نفسها. كانت التظاهرة الأولى مفتاحاً لاكتشاف الشجاعة، مفاجأة وتغيراً هائلاً لدى سيدة مثل آلاء، لم تكن تجرؤ على قيادة أي شيء، أو الانتقاد العلني، أو التفوه بكلمة حرة أو رأي مباشر. الثورة أنضجت الحرية الخبيئة في سريرتها، لكنها لم تنقلب من أقصى اليمين إلى أقصى اليسار كما تقول. لا تزال التحفظات القديمة قائمة وقوية. إنها مقتنعة بسلوكها، وتحب القواعد التي تضعها لنفسها، من دون الرضوخ ما أمكنها إلى نصائح العائلة وفروض الدين، أو أعراف المجتمع وتقاليده. رفدتها الثورة بجرعات إضافية من الشجاعة لتنفصل نهائياً عن

زوجها. على أية حال، تعطّل الجانب الجسدي لديها خلال الثورة، وهي غير مستعدة له نفسياً. العلاقة العاطفية مع رجل لن تزعج الأهل، شرط ألا تكون متطورة. لن يتقبّلوا علاقة جنسية خارج الزواج. الحب الجسدي غير ممكن إلا في الارتباط الجدي، فالعاطفة لا تُهدى إلا لمن يستحقها، لشخص واحد فقط تلتزم معه وإن لم يتزوجا رسمياً، أما الفوضى في العلاقات العشوائية، خارج الزواج وداخله، فليست في صالح أحد، وليست الغاية تفريغ الغرائز. لا تشجع هذه الأنماط ولا تشجبها، ولا تستَرِقُ شيئاً مماثلاً في الخفاء. لكن المشاعر المتناقضة أتعبتها، فالمرأة التي ساهمت في الحراك حُوربت في محيطها غالباً. وتضرب مثالاً عن تجمع القبيسيات اللواتي تضع العديد من العوائل الدمشقية المحافظة بناتها في عهدتهن، ليتعلمن على أيديهن أصول الدين الحنيف؛ ومثل هذا الانتساب إجباري، تقول آلاء ضاحكة. أنا انشققت عن القبيسيات، فقد انكفأن تماماً عن أية مساهمة في ما يجري في هذه المرحلة الفريدة من تاريخ سورية، لأن المساس بعرضهن وشرفهن وارد دائماً، ومثل هذا الرأي يتبناه المجتمع عموماً. أقاصيص العار، من ضرب المعتقلات وإهانتهن واغتصابهن، تقض مضاجع الجميع، حتى لدى الطبقة الشامية غير الموجوعة، طبقة التجار الميسورين المتنفذين الذين تضررت مصالحهم بالثورة، ولم ينفكوا يؤيدون النظام. كلمة القبيسيات عندهم مسموعة ومؤثرة، فالمعلمة الواحدة تشرف أحياناً على مئات الفتيات، وهن ينصتن إلى ما تقوله ويلتزمنه بحذافيره. أساء صمت هؤلاء إليهم، وعاد الحياد عليهم وعلى غيرهم بالكارثة.

الثورة كالأمومة تشرفني. أعتقد بالإسلام المعتدل المنفتح في دولة ديموقراطية مدنية، إسلام يترك الطقوس والشعائر للمنزل، ولا يكتفي معتنقوه بالتعايش مع الآخر، بل يمدون نحوه يد المبادرة. لا أعلم إن كان يحق لي الحديث عن

التسامح، ولست أم شهيد أو أخت فقيد، لكنني كإنسان اختبر محنة الاعتقال أسامح مَن عذّبوني، وأعلم أن الغفران عسير في تربيتنا التي تمنهجت عبر العصور. أين سنذهب برواسب العقود الخمسة التي جثم فيها على عقولنا حزبٌ واحد وأسرة حاكمة واحدة؟ أتذكر عنصر أمن، كنت أسمعه مراراً يحدث باقي العناصر في مواضيع مختلفة. كان، في مثال نادر، لطيفاً حسن المعاملة. بكيته بكاء حاراً حين علمت بمقتله وأنا معتقلة في الفرع، ورأيت صورته فيما بعد مذبوحاً في المعضمية. الدولة ليست للثوار فحسب، إنها للجميع مؤيدين ومعارضين. الجميع يستحقون الحب، ولا أحد يستحق التضحية. فالشعار الذي نادينا به «سورية لنا وليست لبيت الأسد»، ينطوي على إحساس بالمسؤولية تجاه البلاد. تمنيت دائماً تحققه، مثلما أتمنى نسيان فكرة الخلافة الإسلامية لأنها مرفوضة، شأنها شأن حكم الإخوان المسلمين. في رقي التعاليم الإسلامية وصدقها ما يجعل تطبيقها مستحيلاً، إنّ ذلك يستوجب طاقة خارقة مفقودة. لا أثق بالمسلمين الموجودين حالياً. العصر الذهبي للرسول والخلفاء الراشدين ولّى إلى غير رجعة، وأشك في وجود مسلم حقيقي في الوقت الراهن، وأعني به المعلم الروحي الذي يمرُّ الإسلام عبره إلى قلوب الناس مرورَ الحرير لا مرورَ السيوف. لا أعرف إن كان لإسلام التعليم والفكر والإقناع، العاطفي والعقلاني في آن معاً، أيُّ وجود على وجه الأرض راهناً. ربما لو عاش الرسول في عصرنا لاختار للدولة نهجاً علمانياً، نهجاً سلساً معتدلاً بلا شك، وهو الذي هدى يهودياً إلى الإسلام حينما أوقف تعذيبه. أريد سورية أنظف، لأنها تستحق المستقبل، سورية خالية من القتلة واللصوص وحتى من رشوة شرطي المرور. لست دعويةً ولا أعرف هذا الأسلوب، ولا أفرض رأيي على أحد، وهذا الحجاب

الذي أرتديه لم يفرضه علي أحد. قد يفرضه الزوج أو الأب أو الأخ، لكنه لا يقف مانعاً في وجه أي شيء. معظم المتظاهرات اللواتي رأيتهن كنّ محجبات. أتذكر إنني التقيت في كفرسوسة بسيدة أسست كتيبة خولة بنت الأزور، اعتقلت أيضاً وخضعت لأبشع تعذيب. لا أنسى التلميحات التي أسمعني إياها أناس في أميركا وأوروبا التي سهلت فيها السويد لجوء السوريين: «فيم الحجاب؟ لو لم تكوني محجبة لحظيتِ بأفضل الفرص. فقط لو...» لم أستسغ قط هذه النظرة إلى الحجاب، وهذا الإلحاح على تحويله إلى قضية كبرى وتضخيمها إعلامياً. أليست حملة على قناعة شخصية في بلدان يفترض بها أن تحمي حرية الرأي والتعبير؟ أنا لا أجده مختلفاً عن ربطة العنق التي يضعها الرجل، تقول آلاء. يبدو المستقبل منقوصاً منذ الآن، وحين قلت بالتكامل مع الرجل وليس المساواة، وجادلت أحد أعضاء الائتلاف الوطني أتاني جوابه: تغيب المرأة لأنها أيضاً تغيّبُ نفسها، فسكتُّ لأني لا أعرف ما هي الحقيقة. تبقى الأولوية للحراك المدني في الثورة التي لم يعرف أحد إلى أين ستتجه. مآل كل عسكرة حلٌّ سياسي، لكن ليت البنية الهرمية تتفكك إلى الأبد، وإن بدا ذلك متعذراً. الأموال التي أغدقت من جهات مختلفة على هيئات المعارضة وسّختها؛ لطالما اشتكينا من وقوع الدعم المالي بأيدي أناس غير مناسبين في المكان غير المناسب. لا أدري إن كانت الشخصيات المريضة هي القاعدة أم الاستثناء، لكن أطرافاً كثيرة أضفَتْ على قتامة المشهد سواداً إضافياً. هموم كثيرة أتت وستأتي، وستبقى دائماً قصصاً كثيرة مريعة لن نسمع بها أبداً. لم يبق ثمة وقت للتبرير والتفنيد، كنا في طور التعلم في بدايات الثورة، ثم وجدنا أنفسنا في ضباب كبير، وما عاد أي طريق واضحاً.

(آذار ٢٠١٣)

ذات الرداء الأحمر وذات الحجاب الأبيض

في اعتصام «أوقفوا القتل»، قطعت صفاء شارع البرلمان وبيدها شمعة. أوقفت السيارات عند إشارة المرور، وهتفت: «الله سورية حرية وبس»، ليهتف فوج الشبيحة الذين سبقوا المعتصمين القليلين إلى المكان: «الله سورية بشار وبس». أوقعها أحدهم أرضاً، فظلت تركله، وتركل الهواء، وهي ملقاة تحت قدميه في عرض الشارع. هاربة، أمام مقهى في شارع العابد ليست متأكدة من اسمه «الروضة»، أعادتها إلى الوراء استغاثة فتاة وحيدة، ذات ثوب أحمر ويضربها شخصان: «كرمى لله يا خالة لا تتركيني». كان الشبان قد اختفوا إذ بدأ الضرب. صفاء إحدى السيدات اللواتي تتحول دماثتهن ووداعتهن إلى «شراسة في الحق» حين يخلّصن بعض الفتيات من قبضة الأمن، متشبثات بهن، مثلما فعلت أمام جامع الحسن في الميدان وجامع

الإيمان، وتمنت لو فعلت الشيء ذاته أمام الجامع الأموي، لو كانت هناك إلى جوار الفتاة، ذات النظارة الشمسية وعلم سورية يدثر كتفيها، لتسحبها من التظاهرة الصغيرة التي اعتبرت إحدى الشرارات الأولى لبدايات الثورة. شبيح أحمر اللحية، وعضلاته كلاعبي كمال الأجسام، أمسك بصفاء قبالة البرلمان ونزع حجابها الأبيض. جرّها، وهو يركلها ويصفعها، إلى سيارة انطلقت إلى فرع تسميه فرع حافظ مخلوف، حيث التعذيب على أشده، وشعر الفتيات المقتلع يغطي الأرض في الممرات وغرف التحقيق. تقاسمت صفاء المنفردة مع هبة التي أسمعها الضابط في التحقيق أنه «حتى في أميركا هناك رشى وسرقات يا بنتي. الدكتور بشار، سيادة الرئيس، هو الذي عيّن رجال الأمن، والتشكيك بهم تشكيك به». كانت كلتاهما تتيمّمان وتصليان في السر، تلهجان بالأدعية، وتستظهران ما تتذكران من سورة «يس»؛ هبة الطالبة الجامعية التي كانت تنام كثيراً، فتنعس حين تخاف وتغفو في الخطر، وتخدر بنومها أطراف صفاء التي أراحها الإفراج عن رفيقتها الصغيرة، فقد اتسعت فسحة النوم على الأقل، وصار بوسعها أن تمد أطرافها التي ظلت تحتال على طيها وبسطها أياماً، حائرةً كيف ستنام.

أفرج عن هبة بفردة حذاء واحدة، بعد أن تركت تحت الوسادة سواراً من الصوف، مغزولاً على شكل علم الاستقلال أو علم الثورة، ولفتتها في الخارج كلمة «حلاوة» التي سمعتها بالصدفة، إذ استرجعت على الفور حلاوةَ السجن الأشبهَ بالتراب. كانت قد قرأت فظاعات لا تُنسى في رواية «القوقعة»، واستفادت مما قرأت في التحوط والحذر. سُرق هاتفها في باص الأمن، في الطريق إلى الفرع، وشهدت كيف تحرش عنصر بفتاة كانت تبكي وتتوسل ألا يغتصبوها، فمدّ يده من المقعد الأمامي وقرص رجلها، ثم شد

شعرها وانهالت الأكفّ، والفتاة الباكية نسيت كيف تُتلى الفاتحة، في ذاك الهلع الذي زاد عناصر الدورية سعاراً، فبدأوا يعابثونها بفكرة الاغتصاب المروعة حين علموا أنها من حمص. كانت المعتَقلات مرغمات على التحديق بأرض الباص، وترديد النشيد العربي السوري. ممنوعٌ رفع الرأس. كان الإطراق خيراً من الحملقة بتلك الوجوه البغيضة. المعتقلات لسن سواسية، بعضهن عائدات من سوق الصالحية وعبرن بالصدفة، نائحات أمضين على تعهدات بيض الأوراق وخرجن بعد تدخلات سريعة غامضة، وبعضهن من «المندسات» اللواتي لا يندر بينهن الاعتقاد بأن دورهن قد انتهى، وقد قمن بما عليهن، ويتوجب الآن الرضوخ لإلحاح الأهل بالتوقف عن أية مشاركة في الثورة. أسكت الضابط اللواتي بقين حين بدأن الحكي جميعاً. في لغط الخائفات ذاك وقفت هبة التي إذا خافت ضحكت، كتمت ضحكها لكيلا تشتد الضربات على ظهرها، وهي المحجبة الوحيدة بينهن، الموصومة بـ «أم بقجة»، ترى بزاوية عينها الرقاب التي احمرّت بالصفعات، وكيف تقطع الباكياتُ الممرَّ إلى المهجع حيث أينما التفتن وجدن «يا رب» محفورة في الجدران، وعلى وجوه بعضهن وأذرعهن الخدوش التي تركتها أظافر شبيحات هاجمْنهُنّ أمام البرلمان، وهن يصحن صياح رجال الأمن نفسه: «هاي هي الحرية اللي بدكن ياها؟».

الأب والابن وجسد الأم

اعتصام آخر من أجل أطفال الحولة أمام المستشفى الإيطالي بدمشق. كان مخترقاً. اعتقلت نساء عديدات، إحداهن صفاء التي اعتادت لسكناها في الغوطة أزيز الرصاص. اقتربت من عنصر يطلق النار في الهواء، وقالت:

«نحن أهلك وأخواتك»، كررت ما قالته من قبل لعنصر أمن آخر أطلق النار أثناء مأتم في القابون، وأتاها الجواب: «انقلعي وإلا قتلتك!» لم يستجب لصيحاتها أحد من المارة أو أصحاب المحلات. لم تكن لتتخيل قط مقدرتها على مواجهة رجل أمن هكذا. العنصر الذي تعرف إليها في فرع الخطيب تشفّى من معاودتها الاحتجاج، فآذى قدمها وأغرقها بالبصاق. ما رُوعيت بتاتاً. تمادى في تحقيرها تحقيراً مضاعفاً: «أنتم الفلسطينيون خونة، بِعتم أرضكم للصهاينة، وتريدون الآن أن تبيعوا أرضنا أيضاً. لُعن أبوك يا بنت الكلب...» يمطرها بالشتائم، هي جالسة على كرسي، معصوبة العينين ويداها مقيدتان وراء ظهرها، وهو يحوم زاعقاً متوعداً بالضرب وما هو أشنع، ما سمعتْ عنه وما لم تسمع. أشدُّ ما آلمها، وأبكاها حين عادت وحدها، أنه شتم أباها المتوفى، المترجم الفلسطيني الذي درست الأدب الإنكليزي بمشورته، وكان زميلاً لتوفيق البجيرمي في كلية الآداب بدمشق. عنه أخذتُ الترجمة التي أعيش من مزاولتها، تقول صفاء، وظللت أزاولها بالمراسلة من المنزل. لازمتُ البيت بعد أن أنجبت أولادي. أنهى الإنجاب أربعة أعوام من العمل الرتيب في المراسم بوزارة الخارجية. كان المردود معقولاً، وابنتي المقيمة في الإمارات تزودني بالكتب الأجنبية، وحالياً ترسل إلي كل شهر مبلغاً صغيراً، يكاد لا يغطي شيئاً من أبسط النفقات. أعيش على الكفاف، لكنني سعيدة على الرغم من كل شيء. مثلي مثل الذين خسروا منازلهم وباتوا في العراء، لكنني على الأقل تخلصت من قيود زواج مبكر أثقل بفشله على حياتي كلها. كان الانفصال محتماً. كنا قد وصلنا إلى نقطة تبدد فيها معنى الأمل. ثلاثون عاماً من التعاسة وضعتُ لها مختلف الأقنعة، ولا أعلم حقاً كيف مرَّ كل هذا الوقت لأقف الآن على عتبة الخمسين.

تتذكر صفاء كيف أغضى أبوها، وتسارعت خطاه حين رأى مع طفلته رجلين يضربان مراهقاً في حديقة السبكي. لم يجب عن استفسارها «من هؤلاء؟»، فظنت رجلي الأمن من أقرباء الفتى. كذلك لا تنسى رجل أمن آخر تفرج عليها وهي طالبة إعدادية تُضْرب أمامه في غرفة الإدارة، فقط لأنها قالت بطيش المراهقات «أنا أكره حافظ الأسد»، ومديرة المدرسة تنوب عنه في الضرب إلى أن أمرها «كفى». بعد انصرافه اعتذرت منها المديرة. لقد اضطرت إلى القيام بذلك، لأنه هددها شخصياً. صفاء ترعرعت على الكتمان، فالناس اعتادوا أن يخفضوا أصواتهم، ويتلفتوا عند الكلام في المحظورات السياسية، ولو حتى داخل منازلهم، كأن المخبرين مبثوثون في الهواء. فكيف ستنسى الحقد الذي ربته المظالم والفقر، وأيُّ وعي تفتح على المأساة منذ البداية؟ لو كنا في عهد حافظ الأسد، تقول، لأبادنا أجمعين منذ البداية، مثلما فعل هو وأخوه رفعت، فأبادا أهالي حماة ودمّرا مدينتهم، أما ابنه فاعتمد الإبادة التدريجية. بمتابعة ما جرى في تونس ومصر وليبيا، مثل سوريين كثيرين، ترقبت صفاء في السر وصول الموجة إلى سورية. استبعدت ذلك، مرجحة أنهم لن يثوروا أبداً. ومثل كثيرين أيضاً، ترى في بشار الأسد شخصية مهزوزة تتفلسف، لكنهم أذيال نظام أبيه الذين رفعوه إلى سدة الحكم، هُم من استماتوا في الذود عن مصالحهم، لأن رحيله سيؤذن بنهايتهم أيضاً، فواصلوا القتل وإطلاق أوامر القتل، وعلى يديه وأيديهم تحققت كل الكوابيس، إذ لم يتخيل أحد الانتهاء عند هذه الأشكال المريعة من الموت. لم تصدّقْ ما رأته على شاشة التلفزيون من تهليل وتصفيق لضحكاته البلهاء، في خطابه بمجلس الشعب بعد مقتلة درعا الأولى. أمام ذاك المبنى نفسه ضُربتْ، وتحت قبته شُرّعت التجاوزات، وجرى تعديل

الدستور خلال دقائق ليرث الابنُ كرسيَّ أبيه. ربما اعتدنا القمع، تقول صفاء، وعلينا التخلص من هذا الميراث. لن نصل إلى أية نتيجة سريعاً، لن يلمس نبي أحوالنا بمعجزة. لا أصدق، ولا أستوعب، كيف لنا أن نظلم بعضنا بعضاً بعد كل هذه المحن، ونتحسر لأن هذه الأهوال لم تقع في عهود استقرار الأسدين، إذ كنا ضعافاً وجبناء. أيامنا مفتوحة على المجهول، وطموحاتي محدودة وقليلة، إذ ما نفع الآمال الكبرى في واقعٍ أعرفه جيداً؟ لو عاد الزمن إلى الوراء لأقدمتُ مرة أخرى على ما قمت به خلال الثورة. أعلم أن العدل سيتأخر كثيراً، ولكن ربما علينا مواصلة الصبر، ومواجهة أنفسنا من دون تذمر، وقد يأتي أكفّاء لا يهدرون دماء الشهداء سدى.

سئلت صفاء في فرع الخطيب عن ابنها. «لا بد أنه مع الجيش الكر»، سخر المحقق، متوعداً بأنهم سيجلبونه ويعذبونه أمامها. لم يعرف أحد بما تضمر من ألم. ابنها طالب طب أخّره عن التخرج اعتقاله مرتين، وقد أسبغ الأهالي لقب «دكتور» على أقرانه من طلبة الطب الذين عملوا في المستشفيات الميدانية في الغوطة. اختفى في إحدى التظاهرات السلمية الأولى في حرستا، حين لم يكن للمسلحين أي أثر؛ تم توقيفه يوماً واحداً. ذهبت أمه تبحث عنه بين الجرحى في المستشفى الوطني، ورأت بأم العين كيف أردى رصاص الأمن شاباً شهيداً. اعتقل ابنها مرة أخرى فيما بعد، ثلاثة أسابيع في فرع فلسطين. زار وأصدقاءه أمه، بعد خروجها من اعتقالها الثاني، مهنئين محتفين بسلامتها، وعانقها عناقاً مشتاقاً حاراً. لكنه بعد القطيعة بين أبويه، لم يتفهم وجهة نظر أمه بتاتاً. إنه لا يقبل بظهورها كمطلقة في المجتمع، ويرى أن الأنسب هو بقاؤها منفصلة من دون طلاق رسمي. اتصل بأزواج النساء اللواتي يدعمن أمه، وأفهمهم ما معناه «إن أمي خطر

على زوجاتكم». إثر هذا التحذير من شاب مستقيم مثله، ازدادت قناعاته تزمتاً في الآونة الأخيرة، بتن يخشين الاحتكاك معها، ورفضنها مصدقاتٍ ما سمعنَ، أو مجاراةً لرفض أزواجهن. ما عدن يرسلن إليها التبرعات التي تأتي من أقرباء لهن خارج البلاد مقتنعين بقضية الثورة. لكن رب العالمين لا يغلق باباً إلا ليفتح غيره، فليسامح الله ابني الذي أساء إلي كثيراً، تقول صفاء. إنه قطعة مني ونسخة عني. صادفته منذ أيام في أحد شوارع مسرابا. اندفعت نحوه متلهفة لأحضنه، فأمسك بيدي على الملأ، راجياً: «لا تحرجيني». أنا الملامة لأنني عصيته.

حين كان المحقق يسألها عن أسرتها، ربما لم يكن يعلم أن حياتها تلك قد انتهت تقريباً، ولم يبق لها أحد. إنها الوحيدة بين إخوتها وأخواتها من شاركت في الثورة، شدّت على يدها أختُها التي هُجّرت من داريا. ابنتها طالبة البكالوريا تقيم مع زوجها، كانت ترعاها وتصحبها حتى إلى باص المدرسة، كما لو كانت طفلة، ولو رأت حقاً أحوال من تعمل أمها من أجلهم لغيرت رأيها وازدادت عطفاً. لعلّ البيت الكبير والدافئ، في كنف والدها وعمتها، أعماها مؤقتاً وأنساها الشظف الذي يقاسيه الناس.

مسَّ قلب صفاء في المحكمة شرطيٌّ شاب خاطبها «يا أمي»، صعد بها الدرج إلى قاعة المحاكمات في القصر العدلي، معتذراً وهو يضع القيود في يديها، لأن الكاميرات تراقبه. خفف موقفه من الوقع المهين لتفتيش الشرطية. برجوعها إلى السجن حاولت صفاء بعضاً من المرح، فبدت كمن تستعيد أحلام صباها المسكونة بالأفلام المصرية، كالحلم بالعمل محامية، لتساعد وتفهم أمثال الراقصة «عبدو» التي كانت تضحك السجينات

بالرقص في المهجع؛ نصحتها صفاء بأن تستهدي بالله، وتفتح بقالية عند خروجها، عوضاً عن العمل في الطاحونة الحمراء وملاءٍ أخرى.

فور الخروج من السجن، برائحة المعتقلات التي تغلغلت في ثيابها وجلدها، ذهبت صفاء تعود أمها التي خرجت للتو من العناية الصدرية المشددة. رجتها أمُّها المريضة، مثلما كانت ترجوها دائماً، الكفَّ عما تفعله في الريف، والاعتناء بمظهرها وعدم ارتداء الملابس نفسها دائماً. توفيت بعد أيام قليلة، ولامت الابنة نفسها كأنها أحد أسباب ذاك الموت، هي التي حاولت في المعتقل أن تحتوي وتساند المنهارات وتضحك الباكيات، فذلك بالنسبة إليها دورها الطبيعي، غدت بغتة مستنزفة، وأمامها أيام طوال من الوحدة والنحيب والكآبة البشعة. لكلِّ فعل ضريبته، لقد ابتعدنا عن ذوينا وخسرناهم، ولا بد لنا من بداية. عانيتُ الأمرّين مع زوجي، فهو كرجل شرقي لا يراني نداً له، ولا يجوز لي إبداء رأيي في شيء، تقول صفاء. تفاقمت خلافاتهما تدريجياً، بدءاً من مشاركاتها الأولى في تنظيم تظاهرات صغيرة، فما عاد يصادفها دائماً، مثلما اعتاد في الماضي، عند رجوعه إلى البيت. بدأ يُملي على زوجته صواب السلوك، ويسيء الظن بالنوايا، فالخروج عن رأيه نقيصة لكليهما وعيب مشين. «أرأيت ما ألحقتِهِ بنفسكِ وبنا؟» أسمعها موشحاً من التوبيخات بعد اعتقالها، وكأن كلَّ من اعتُقلت اغتصبت. الاغتصاب، هذا الهاجس الأفظع، هو ما يتوارد أولاً إلى أذهان معظم الناس حين يحكى عن اعتقال أية امرأة، لكن صفاء ليست إحدى ضحاياه اللواتي يكتمن رعبهنّ بالتناسي. طلب مخالعة بالتراضي يستلزم حصولها موافقة الزوجين. رفض الزوج، وأنّب المحامية عندما زارته ليتفاهما، ففي دعوة التفريق يستطيع المماطلة أعواماً، لتظل زوجته لا تدري ما تفعل

في هذه الحيرة، والعمر يتقدم والوقت يمضي. القوانين لا تنصف المرأة، والمآسي تتوالى، ولا حب يخفف القليل من شدة وقعها. سئلت كثيراً عن هذا الانفصال، وما دواعيه الآن. ربما لم أكن الأنثى التي حلم بها، تقول صفاء. ميولها تعاف المكياج والتبرج، ولعلها أخطأت بهذا الإهمال الذي لم يطَلْ تدبيرها شؤون المنزل والمطبخ. لم يخدع أي منهما الآخر، ولربما أسعده الارتباط بامرأة أخرى. لكن بعض العلاقات قد تدوم أكثر بالكتمان، وليس من الضروري المصارحة والإفصاح عن كل شيء، حتى لأقرب المقربين. حدثتْ إحدى صديقاتها الصغيرات: هل من المعقول أن يرضى الله بممارسة المرأة للجنس مع زوجٍ لا تحبه في علاقة مقرفة للغاية، بينما يتوعدها بالويل إذا مارست الحب مع رجل آخر تحبه؟ أليس هذا بالأمر الغريب؟ حياتي كجسدي ملكي أنا، لا ضرر ولا ضرار، تقول صفاء. ستُغفر الذنوب، إلا الإساءة إلى الآخرين وهتك أعراضهم. لا يغرّ حجابي أحداً ممن يعرفني. لقد وضعته عن قناعة شخصية وأنا في الثامنة والعشرين من عمري. ليس فرضاً أو إكراهاً، وإن تمنّيته لكل النساء. أصلّي ولست بمتعصبة لأحد. لا أتنقب ولا أرتدي المعطف الطويل، وأدرك معنى أن تحكمنا دولة إسلامية ستكون أولى مهماتها إلغاء أي دور محتمل للمرأة وإقصاءها تماماً، وآنذاك سيبدو أي حديث عن المساواة والحقوق ضرباً من العبث. شهدتُ في الغوطة الشرقية بعض المواقف، فما ظننته أقصى ما أستطيع بذله من أجل الثورة لم يره المحافظون والمتشددون إلا شقاً لعصا الطاعة الزوجية، لأن مكاني الطبيعي داخل المنزل. في إحدى المرات، شاركت في دورة تمريض في مستشفى ميداني بمسرابا، وكنت أراقب حالة مريض ينتظر نقله إلى مكان آخر للعلاج حين جاء شخص يغضّ طرفه. سألني الخروج من الغرفة لأن

ثمة رجالاً يرغبون في الدخول. ظننته يمزح، فأجبتُه: دعهم يدخلون. ثم عاود الطلب نفسه بخروج «الحرمة»، كلّمني كأنني غائبة لم أقُلْ شيئاً. ما هذه المزحة، قلت وخرجت. حادثت رجلاً آخر في الممر، فظهر بغتة رجل مسلح لامني: «نساء يكلمن رجالاً. اتقوا الله، القذائف تنهمر، وأنتم تكلمون بعضكم بعضاً!». علا صوتي وقد سمى المرأة «حرمة» أيضاً؛ ذكّرته بالفتيات الأربع من عائلة الترك في حرستا، كيف اعتقلهن الأمن الجوي ليلاً وهن بثياب الصلاة، بسبب عمّهن الشهيد حسان الترك، وهنّ لم يكن قد شاركن في أي شيء. كنت قد خرجت وامرأة أخرى فقط للاعتصام من أجل الإفراج عنهن، مع عدد كبير من الرجال. في يوم هادئ آخر، دخل رجل آخر إلى ذاك المنزل نفسه الذي صار مستشفى ميدانياً. وجد ثلاث ممرضات يافعات، والغرف خالية من المرضى أو الجرحى، فوبخهن «صار المستشفى كالجامعة». ما أخفى رغبته بأن يقتصر كل عمل على الرجال فحسب، لأن وجود المرأة هنا يعيق سير العمل، بل من غير المقبول أساساً أن تعمل، ناسياً في حنقه احتمال وصول المريضات أو جريحات القصف وغارات الميغ. بعد الصبر والاحتجاجات المتكررة، عوملن أخيراً ببعض الاحترام وإن على مضض. كان فرضُهنّ هذه المشيئةَ البسيطة منقوصاً، إذ جوزيت المرأة أحياناً بالطلاق الذي ازدادت حالاته بعد الثورة، لأن الرجل لم يستطع أن يتقبل فكرة خروجها عن أمره. لقد خسرت، على الرغم من بعض المكاسب المحدودة التي جنتها، ومشاركتها في الثورة تُظهِرُ طبيعة المجتمع جيداً، فقد ظلت محدودة جداً، خصوصاً بعد موجات النزوح الكبيرة في مدن وبلدات ريف دمشق. الرجل يبدي امتنانه على ما تبذله زوجته، لكنه لا يسمح لها أن تقوم بمثل ما يقوم به. يقلقه أن

تغادر المنزل، وربما أهانها وضربها، وربما أيّدته نساء أخريات في ما يذهب إليه. لا يزال عملها يحرجه، فهذا جزء من تنشئته. قد يؤثِرُ إجهادَ نفسه في القيام بعملين على السماح لها بالعمل، تقول صفاء. كنتُ ذاهبة برفقة طبيب مسنّ إلى مدرسة نزحت إليها عوائل عديدة. على الطريق نادتني سيدة تحمل طفلها الذي لا يتجاوز عمره بضعة أشهر. استوقفتني على استحياء. «ابني مريض»، قالت، «الله يخليك، خذيه أنت إلى الطبيب بدلاً مني، فنقابي ليس معي».

كانت الجنائز تظاهرات ضخمة أحياناً. ظلت صفاء تخرج في تشييع الشهداء منذ مطلع نيسان ٢٠١١، امرأة وحيدة أحياناً بين آلاف المشيعين في حرستا، فالنساء يلازمن باب الجامع، ممتنعات عن السير خلف الرجال، ولا تعلم من أين أتى هذا التحريم، وتضييقه على تكريم الشهداء كما ينبغي. الحرستاويات لم يقتدين بالدومانيات الأقرب إلى الرجال، ولا أقصد الشكل، تقول صفاء، بل قوة الإرادة. كانت التظاهرات النسائية في حرستا قليلة جداً، وتخرج عادة بنساء منقبات عند حلول الليل. أفتى بعض أئمة المساجد بأن خروجهن خروجٌ عن الشرع، ولا يجوز لهن الكشفُ عن عورة أصواتهن بالهتاف في الشوارع. شاهدها زوجها مرةً في تشييع ليلي، وجاء تأنيبه شديداً، لأنها خالطت الرجال الذين يرى النشاط الثوري حكراً عليهم. لم يسمح لها وجوده في البيت، بعد الإفراج عنها، بأن تستقبل بين المهنئات رجلاً شاركته العمل في الغوطة. يحزّ هذا الموقف في قلبها كلما تذكرت الحديث المقتضب مع ذاك الزائر على عتبة الباب. إنه رجل تقدره بإعجاب، وتراه عصامياً لا يكاد أحد يعرفه، استطاع أن يحافظ على نزاهته واستقامته وهدوئه طوال عشرات الشهور الطويلة المنصرمة.

كرست صفاء وقتها لإغاثة النازحين وأهالي المعتقلين وعوائل الشهداء، توزع التبرعات العينية وسلال الأغذية. المحطَّمون يحتاجون إلى كلمة جميلة أيضاً، كلمة تجنبهم حرج أن يتلقوا ما قد يحسبونه صدقات، في الأقبية والبنايات غير المكتملة والمدارس، فمن تساعدهم يساعدونها أيضاً، ويزيدون من إيمانها بطيبة الناس ويخففون عنها، إن كانت ثمة راحة ممكنة لأحد. إنهم الآن حياتها، ويؤسفها أن يغترّ بعض المتطوعين أحياناً، وكأنهم ينسبون إلى أنفسهم أفضال المتبرعين، المجهولين غالباً. ولأن حرستا التي عاشت فيها نصف عمرها لا يسكنها الآن غير المقاتلين تقريباً، تبقى صفاء في مكتب جمعية تتبع المجلس المحلي في سقبا، امرأة وحيدة بين جموع الرجال، وبعضهم يعرفون أنها تخلت عن كل شيء من أجلهم، قد تعانقهم وتلثم جباههم كأنها أمهم، فتياناً وكباراً ومسلحين، تطهو لهم وتستغرب كيف لم تتعرف إلى هؤلاء الجميلين من قبل. تسرّها أمومتها، وتفعمها كلما سنحت لها فرصة أن تتجلى. شبان مسلحون أتوها بأسطوانة غاز حين عادت إلى منزلها في حرستا لتجده منهوباً خاوياً، فطبخت لهم وجالستهم وحدها في الشارع، وهم يلقبونها تحبباً «أبو بكر». تراهم طيبين ينقصهم التوجيه، وتبقى مع بعضهم في المنزل نفسه حتى انتصاف الليل، حين يغادرون ليسنح لها في الخلوة خلع الحجاب. عادة لا يتركونها وحدها، بعد انتهاء العمل في المكتب عند السادسة مساء، لكيلا تقتلها الوحدة، تقول. إنهم يحتاجون أمّاً في ظروف هي الأحلك، وأنا أحتاج أبناء لأن الأمومة غريزة وحاجة أيضاً.

لا تستطيع صفاء أن تنسى ما رأته في ممرات السجن، حيث حركات الذهاب والإياب وتوافد المعتقلين الجدد تزوّد بالأخبار. كانت تلمح في

كوة الباب طبيباً شائباً يعبر الممر، ويستكمل أشغال الجلادين بخياطة جراح الشبان المعذبين دون تخدير؛ كان، في المطبخ القذر المقابل للمهجع، يخيط الأقدام الجريحة التي أنزفتها السياط، ثم يجبرهم على المشي ذهاباً وإياباً في الممر وهم مضمدون، بينما النساء عاجزات، ليس لهن إلا دور المنصتات إلى المتألمين، كأنهن مذنبات لأنهن لا يُعذَّبن مثلهم، ولطالما سمعن توسلات شبان يرجون الجلادين أن يكتبوا ما شاؤوا، ويأتوهم بالإفادات ليمضوها. للمتهمين بأنهم مسلَّحون، العذابُ الأشد. مثلهم كانت ميسون، القادمة من فرع الأمن العسكري، بندوب حديثة مرتفعة في معصميها، مشوهة بحروق التعذيب الكهربائية، لأنها ساعدت في تهريب السلاح. لا تنسى صفاء الشبان المقرفصين ساعات طوالاً، مواجهين الحائط في الممر، مصفوفين في رتل تحت عين السجان، مكبلين معصوبي الأعين عراة الصدور، وعلى أكتافهم حزوز العصي والأكبال الرباعية التي يُسمع صفير نزولها على اللحم. بذهابها إلى الحمام صباحاً، والذهاب إليه مسموح مرتين يومياً، شاهدتِ الذين كانت قد شاهدتهم الليلة الفائتة وهم لا يزالون على الوضعية نفسها. كان في ظهر أحدهم جرح غائر ينزّ دماً. لمست يده، فأجفلته اللمسة. ربما حسب ذاك الحنو العابر انتهاكاً وشيكاً.

(آذار ٢٠١٣)

صوتان في المنفى

البرجوازية الدمشقية

كان أبي منتسباً إلى حزب البعث في الخمسينيات، حين كان البعث يتحلى بعقيدة وفكر حقيقيين. لاحقاً، سُجن أبي ستة أشهر بسبب خلافاته مع نظام الحكم البعثي آنذاك، ثم طرد من عمله في وزارة الخارجية ليجد نفسه من دون أي عمل، فغادرنا سورية عام ١٩٦٨ من دون أن نحمل معنا شيئاً، ولم نأمل يوماً في العودة إليها تحت حكم الأسد. لا أزال ناقمة على البرجوازية التي جمدت دمشق بتحالفاتها مع النظام، وربط مصالحها بمصالحه. كنت أراقب هذه الطبقة في الثمانينيات والتسعينيات، وكيف انحدر بها اليأس من الشأن العام إلى العزوف عن السياسة، لتهتم كل أسرة من أسرها بتعليم أولادها أولاً وتوفير العيش الرغيد لهم، ولتنشغل باستراتيجيات فردية أو عائلية في محاباة النظام، ومجاراته وتجنب الصدامات معه وتلافي الضرر

الشخصي. ربما تعود نقمتي إلى إحساس بالذنب، لأن الطبقة التي ولدت فيها، وعشت في كنفها، أسهمت في توطيد النظام وتواطأت على بقائه، وأعانته في إحكام قبضته على مجتمع دمشق بكافة فئاته وطبقاته.

أعتقد أن عائلتنا كانت مختلفة قليلاً. قلائل في المجتمع البرجوازي قاوموا منظومة الفساد، فالجميع مدركون أن مثل هذا السلوك باهظ الأكلاف. لا أعني بهذا القول أننا أبطال من دون باقي البرجوازيين، فمثل هذه الادعاءات مضحكة، لكني شهدت بعض الأمثلة في عائلتي، وبين بعض أقربائي، جرت في صمت وبعيداً عن السياسة. أفتخر بما رأيت من رفض لدفع رشوة كبيرة، أو رفض الدخول في شراكة اقتصادية مع أشخاص من جماعة النظام. بالطبع أنا أقرأ الأحداث هنا وفقاً لتاريخي الشخصي، كابنة رجل دبلوماسي نشأتْ على السياسة، وكبرتْ في عوالمها، ثم عملتْ باحثةً في شؤونها. لم أعامل طوال حياتي أحداً من المرتبطين بالنظام السوري ومؤسساته، فهذا جزء من تربيتي وثقافتي؛ من جهة أخرى، ما انضممت قط إلى أي حزب معارض، سيان خارج سورية أو داخلها. تجنبت تيارات المعارضة السورية التقليدية، في الخارج وفي الداخل، فقد كانت معزولة محدودة الشعبية، عاجزة عن الخروج بأية آليات حقيقية قد تهزّ بها النظام أو تهدّده، وغالباً ما تستحكم فيها تفاهة الخلافات الصغيرة التي لا تستحق أن يهدر المرء وقته في مجادلتها أو متابعتها. شعرت دائماً باللاجدوى تجاه ما يدعى الأنشطة الحزبية، وإن كان معظم أصدقائي معارضين.

عملتُ ودرّست طويلاً في مضمار العلوم السياسية، وخضت نقاشات كثيرة في العالمين العربي والغربي، محاولة وصف نظام الأسد على حقيقته، وفضح

ذلك ما استطعت. ربما نجح بشار الأسد في تلميع صورته وصورة عائلته خارج سورية، وعاونت نظامه كل دول العالم. من خلال الكتابة، بتوصيف بنية النظام وتحليلها، مستفيدين من شبكات علاقاتنا والاتصالات في أوروبا وأميركا، انصبّ عملي، وعمل زملاء مستقلين، على تخريب تلك الصورة البراقة التي روّجت لها مؤسسات إعلامية وشركات علاقات عامة عملت على إظهار بشار الأسد رئيساً شاباً يُعتبر وزوجته مثالاً راقياً في الشرق الأوسط. كان مشيناً أن نرى قتلة يمثّلون السوريين وينطقون باسمهم، لكن التواطؤ المتبادل بين جميع الأطراف فرضته المصالح. وعلى الرغم من كل شيء، حاولنا ثني الحكومات الأوروبية لترجع عن شراكاتها الاقتصادية والاستراتيجية والأمنية مع نظام الأسد. كم من مرة كشفنا بالحقائق والوقائع إنه نظام مافيا، بكل أوجهه مالياً وإجرامياً، فاسد في الصميم ويحتضن الإرهابيين ويدرّبهم، ويمارس بدوره الإرهاب والقتل حيث اقتضت مصالحه.

تظاهرة الحريقة الأولى في دمشق ٢٠١١ أثبتت فشل النظام في تحييد المجتمع المدني، وآذنت بانهيار الحلف الذي أبرمه مع البرجوازية ورعاه بذكاء. ظن كثيرون أنه تحالف سيدوم إلى أبد آخر. احتجاجات الشبان ودماؤهم ذوبت قشرة الجليد السميكة التي لفت المجتمع برمته؛ دبت الخلافات في كل عائلة تقريباً، داخل ذلك العالم البرجوازي المغلق، المتمسك بحماية مصالحه وبربطها بالاستقرار العام؛ عُوتب المعارضون بينهم، خصوصاً المقيمون خارج سورية، لا لأنهم سيؤذون أهلهم الذين لا يزالون مقيمين في دمشق فحسب فيعرضونهم للخطر ويجرّعونهم مرارة الاستجوابات، بل لأن المعارضين لا يعرفون جيداً هذا النظام المستعد

لتدمير كل شيء، لكأنهم متجهون حقاً إلى الدمار الشامل. عُوتبتُ في عائلتي، لأنني انضممت إلى صدارة المعارضين في المجلس الوطني؛ وقع علينا اللوم لقلة الوعي بالثمن الذي سيدفعه المعارضون، بل ستضطر البلاد بأسرها إلى دفعه. غير أن لهذا اللوم أسباباً أخرى، فبانعزالها عن الحراك الشعبي لم تتقبل البرجوازية الاضطرار إلى تقاسم الثمن الباهظ الذي سيدفعه جميع السوريين. وفوق ذلك كله، شكّل وقوف امرأة في مواجهة النظام حدثاً مستغرباً وسط النساء البرجوازيات. لقد خلق ذاك التحدي المباشر والعلني توتراً داخل الأسر. وأعتقد أن مختلف الفتيات البرجوازيات اللواتي شاركن في التظاهرات، أو كنّ ناشطات سياسياً، لامهنّ أهلوهنّ لأنهم يرون هذه الأمور لا تلائمهن، ولأن هذه الثورة قام بها أبناء المناطق المحرومة والمهمشة. لقد انقلب المجتمع، ورأينا الكثير مما كان خفياً عنا ولم يعرفه أغلبنا جيداً في واقع البلد. أنا كسورية تعيش خارج البلاد منذ وقت طويل، أغناني الاحتكاك والتواصل مع أناس بعضهم في عمر أولادي، ويقيمون في مدن سورية وبلدات وقرى لم أسمع ببعضها من قبل، أو أجهل طبيعتها وكيف تدور الحياة فيها؛ لكنني اكتشفت أيضاً خبرات سورية بين المقيمين في الخارج، ستتدفق على البلاد في المستقبل، ويستطيعون تقديم الكثير في المجالات الطبية والاقتصادية؛ بعضهم قدّم العون ولا يزال مستعداً لتقديمه.

لم أخفِ ارتياحي حين وعت برجوازية المدن السورية الكبرى واجباتها الوطنية. خرجتْ من انحصارها وإن نأت عن واجهة الأحداث، وظننت أنها أدركت حقاً ضرورة الاهتمام بما يقع ويدور خارج عالمها. لا شك في حرص بعض أفرادها على مساعدة الناس ودعمهم؛ في اللقاءات الأولى كنا

نلمس تردد الرجال ومخاوفهم، فيراقبون ويتساءلون في ما إذا كانت الثورة ستستمر وستنجح أو لا، بينما زوجاتهم يرددن إنهن لن يجلسن متفرجات، وعليهن دعم الثورة لترجح كفتها، فيغيّرن ديناميَّة اللقاءات والنقاشات. كنّ أكثر اندفاعاً، وأكثر استعداداً لتقديم الدعم وأكثر شجاعة. تغير بعض التجار الكبار ورجال الأعمال الذين صُنّفوا من قبل كفئة أوثقت مصالحها بمصير النظام وتخشى أن تتحدّاه. أدركوا أن الانعزال عن الحراك الشعبي ما عاد ممكناً بمختلف المعاني، وانخرطوا انخراطاً فعلياً، في هدوء وصمت، بتنظيم العديد من شبكات الإغاثة والعديد من أشكال الدعم غير العلني. لم تكن مساهمتهم في الداخل صغيرة أبداً. كان ذلك انتصاراً حقيقياً، ولحظة ثقة وأمل بأن الثورة ستستمر. تلاشت عقدة الذنب، تلك التي لازمتني تجاه البرجوازية طوال تلك السنين. لقد عشنا عاماً كاملاً من الثورة تقريباً، معتمدين على الأموال السورية، من دون المساعدات الخارجية التي تفرقت عشوائياً. خلال عام واحد تعلمتُ أكثر مما تعلمت خلال حياتي كلها. كانت تجربة عظيمة، مفيدة على الرغم من صعوباتها. بعد إحساسنا الطويل بأننا نُفينا، وقد قُطّعت جذورنا بالمكان الذي ولدنا فيه، تحول مسار حياتي كله تحولاً عميقاً مفاجئاً، وكأن البلد بدأت تحريراً تسترجع به نفسها، قبل أن تستحيل الثورة حرباً لا نظير لها. مشكلة كبرى في المستقبل إقناعُ الشبان الذين تسلحوا. أمامنا، وسط تحديات لا تحصى، تحدٍّ كبير لا يبدو أن السياسيين يولونه الاهتمام الكافي، أو يملكون حياله الوعي الحقيقي، لأن الشبان لن يسلموا أسلحتهم إذا لم يطرح مشروع سياسي واضح يشملهم، ويفتح أمامهم الأبواب للدخول إلى السياسة ومواقع اتخاذ القرار، من دون أن ينوب عنهم أحد منتحلاً اسمهم.

بين الشرق والغرب

حين بدأت ثورة مصر، البلاد التي أحببتها وعشت فيها أعواماً طويلة، تجلى أننا كنا طوال الأعوام الأربعين المنصرمة منتظرين مثل هذا الحدث الذي أتى أخيراً، وأسبغ فجأة المعنى على ما كنا نقوم به من قبل في قلق حياتنا والتباس انتظاراتها. بوصول هذه اللحظة المرتقبة عرفنا أن مصير بلداننا سيتغير، وستتغير كل أعمالنا ومشاغلنا واهتماماتنا بالشأن العام. ترددت كثيراً على مصر. كنا قد افتتحنا فرعاً لمركز أبحاث سياسية في القاهرة. قررت الانتقال إلى هناك لأقضي أكثر من نصف وقتي، فأعيش الثورة يومياً وعن كثب، غير أن التوتر العام في البلاد شمل أيضاً المنظمات غير الحكومية، وجعل الاستقرار هناك صعباً علي، لكني ظللت أتردد كثيراً على المكتب الذي لم نغلقه.

هذا التحرر الذي نراه، ونقيس عليه، ونعرفه في المجتمعات الغربية حديث العهد. لقد انغمست في متابعة الثورتين التونسية والمصرية، وإسقاطهما السريع للنظام، كل في بلدها. تابعت خصوصاً الساحة المصرية وكيف تتغير. منذ تلك اللحظات تحول توجهي الأساسي إلى الشبان الذين ابتدعوا أو اخترعوا آلية إسقاط هذه الأنظمة، وهدم أركان الأمن والفساد، في حين أننا نحن الجيل الذي سبقهم، بأعمارنا التي تناهز الخمسين أو أكثر، فشلنا في الوصول إلى أي تصور حول كيفية تغيير الأمور. منذ اللحظات الأولى ظهر الوجه الاجتماعي للثورة، لم أرَ بمثل اندفاع فتيات مصر، وثِقتهنّ بأنفسهن بين كل نساء جيلي، حتى المحافظات بينهن من محجبات أو فتيات الطبقة الوسطى المحافظة. شهدت في القاهرة مطالبة المرأة بالحرية الكاملة،

وصولاً إلى حقوق المثليين. هناك كبت جنسي في مجتمعاتنا عموماً، ولهذا الكبت تأثيره على المنظومة الذهنية الذكورية، لكن إذا غضضنا النظر عن تقديس جميع الحقوق الشخصية لكل فرد، والحقوق الجنسية جزء لا يتجزأ منها، فلن تبنى أية ديموقراطية، من دون أن نتناسى في الوقت نفسه الظواهر المحافظة لمجتمعاتنا، ومن دون تجريح مشاعر الناس ومبادئ عيشهم. على أية حال، كان وضوح الرؤية ووضوح الهدف لدى الشبان يتخطى كل ما فكرنا فيه من قبل، فبدونا نحن المحافظين والمبالغين في الحذر.

كانت مقارباتنا النخبوية، الضيقة والمنغلقة، أحد أسباب فشلنا في سورية. باتت مهمتنا هي التواجد مع الشبان في المنعطفات التي ستغير وجوه مجتمعنا، من أجل تأهيلهم وإرشادهم وتمكينهم، وإن كانوا يعرفون كيف يتحركون في الواقع، لكنهم لا يعلمون بالضرورة الأطر التي عليهم وضعها كي يتحركوا من خلالها، ثم نبدأ بتسليمهم مقاليد الأمور فلا نتصدّرُ نحنُ القدامى أية واجهة، ولا نشغل الساحةَ السياسية. ذاك هو دورنا المهني، على الأقل خلال السنوات العشر المتبقية قبل بلوغنا سن التقاعد.

كان انخراط الفتيات دليلاً على أن الثورة السياسية سيتم إلحاقها بثورة اجتماعية للطبقات المحرومة ستشمل نتائجها المرأة أيضاً، بالإضافة إلى انشغال الجميع بقضايا السياسة ونظام الحكم والمواطنة والعدالة الاجتماعية. بالنسبة إلي لم يكن ممكناً تأجيل قضية المرأة، فمثل هذه اللحظات، وسط التغيير الاجتماعي الضخم، هي اللحظات المرتقبة لحصد مكاسب في الحقوق وترسيخها، وإذا فوّتنا هذه الفرصة فسوف تلحق بنا خسارة كبيرة، لأن المجتمع الذي ارتجّ بهذا العنف، في أعمق جذوره، سيعاود الاستقرار

على أسس مختلفة تماماً، وكل الاحتمالات آنذاك واردة. لا بد من الاستفزاز الذي يقوم به أناس جريئون وشجعان، مستعدون لمواجهة المجتمع وتوسيع حدوده أمام بعض المعتقدات والأعراف السائدة التي تحدد المباح والممنوع. العمل السياسي الحقيقي مؤجَّل حالياً، لكن ثمة أمور أخرى مهمة للغاية في هذه المرحلة الاستثنائية من تاريخ البلاد. ينبغي أن تبقى المرأة السورية ناشطة في الحيز العام الاجتماعي والسياسي، ولا تعمل وحدها، وتعتاد -بالرغم من كل الصعوبات- العمل الجماعي والعمل المؤسساتي، فيكون صوتها مسموعاً، وقضاياها مطروحة في ساحة الإعلام، في التلفاز والراديو والصحافة ووسائل التواصل الاجتماعي، وتنال ولو القليل من الاستقلالية الاقتصادية. سوريات كثيرات غدون أرامل، وسيلعبن أدوار أرباب المنازل من أجل تأمين معيشة أطفال تيتّموا؛ بعضهن حجرُ الأساس في الإغاثة داخل الأمكنة التي انتكبت، وبعضهن حُوربن لأنهن خلعن الحجاب، أو نزلن إلى الشارع، أو واجهن الأمن، أو وقفن في وجه التيار الإسلامي الذي ازداد تشدداً في بعض المناطق، ليبلغ تطرفه درجة من الاصطناع غريبة عن البيئة التي تحضنه. قد يعيب النساء رؤيتهن المثالية أحياناً، فيعتبرن العمل السياسي عملاً قذراً، وينفرن من مزاولته، ولا يتخيلن المرأة لاعباً سياسياً يناور ويقوم بالتحالفات.

مجلس إسطنبول، النواة والفتات

عُقدت في بداية الثورة مؤتمرات كبيرة في أنطاليا وبروكسل، وعُقد مؤتمر الإنقاذ في إسطنبول. هذه المؤتمرات أنضجت فكرة نشوء المجلس الوطني. ترددت في الذهاب، إذ لم أرغب في الانضمام إلى معارضة تقليدية لا أؤمن

بها كما أسلفت، لكنني وددت معرفة الجهود التي يتعين علينا بذلها للتواصل مع الناس داخل سورية. كنت إحدى النساء القلائل في المكتب التنفيذي للمجلس الوطني الأول الذي تأسس في إسطنبول. في الواقع، لاحقاً لم يزدد عدد النساء في الائتلاف الوطني إلا قليلاً، وقد تضامنا تلقائياً حين دخلنا معاً إلى المجال العام، فقد تعرضنا للهجوم والانتقادات، وكنا مستهدَفات أكثر من الرجال، لكننا اعتدنا كنساء مثل هذه الاستهدافات، من النواحي كافة، سياسياً واجتماعياً، فكل غلطة من غلطاتنا «بكفرة»، وكثيراً ما يحول الغلط دون حصولنا على فرصة أخرى، بينما يقول الرجل ما يشاء، ويقترف الأخطاء، ويبقى الأمر كله طبيعياً. ربطتني بالنساء علاقات رائعة خلال الثورة، ربما لأنهن أكثر استعداداً لتشجيع الشبان الذين غالبا ما تأتي معاملتهم لهن أقلَّ ذكورية، أو لأنهن لا يحملن الأمل عينه في الوصول إلى المناصب العليا، فلا يطمحن إلى رئاسة الجمهورية أو رئاسة الوزراء مثلاً، فهن يعلمن بأن الرجال سيحاولون الاستيلاء على كل شيء، ولن يعطوهن إلا الفتات. احترامهم لها في المعاملة احترام سطحي، إذ لا شيء يغلب طموحهم؛ حين أدخل إلى قاعة اجتماعات يفسحون الطريق لكي أمرَّ قبلهم، ثم يجلسون إلى الطاولة في المواقع الأقرب إلى الوزير، أو الشخصية التي نقابلها ونحاورها، معتقدين أن الحديث يخصهم شخصياً، وسيكون الكلام موجهاً إليهم تحديداً. عملت طويلاً، ليل نهار، ضمن مجموعات ذكورية الأجواء، وذلك أمر مفروغ منه. حضرت لقاءات كثيرة لم تحضر فيها امرأة سواي. لا أحب أن أزاحم أحداً، لكن أصدقائي كانوا يتصلون بي ليخبروني أن بعض هؤلاء السياسيين وقحون وقليلو أدب، ولا شيء يوقف طموحهم وتسلطهم؛ اضطررت شخصياً إلى أن أخوض قتالاً

لأفرضَ نفسي، وأحظى باحترامهم وأجلس وسطهم في المقدمة، لأنهم لا يفهمون غير هذه اللغة، ولا يردعهم غير هذا السلوك. لا يتعلق الأمر البتة بانتماءاتهم السياسية. إنهم يتنافسون داخل المجلس لاعتلاء المناصب، فإذا بامرأة أتت لتنافسهم أيضاً! نفسياً، لا يستطيعون تحمل هذا الأمر. سيتطلّب تغيير هذه الذهنية الذكورية -إن تم في الأساس- وقتاً طويلاً؛ ربما يتضايقون من دون وعي منهم حين يرون مراكز القوة تخرج عن سيطرتهم، كما لا يطبقون المعايير التي يطبقونها على أنفسهم في العمل إذا تعلّق الأمر بالمرأة. إنهم يرتابون بإمكانياتها، وبالنسبة إليهم يجب أن تتمتع المرأة بكفاءات استثنائية كي تحظى بمكان بينهم، أو مَوقعٍ تستطيع في الواقع أن تشغل خمسة مواقع مثله، لأنهم لا يفكرون بها كإنسانٍ يمتلك كفاءات متساوية مع الرجل، وغالباً لا يعنون بالحقوق كامل الحقوق الشخصية التي ينبغي أن يكفلها الدستور.

مزعجةٌ طباع البشر. وجود امرأة واحدة فقط في العمل يقتضي أن تقوم بالكثير، ومهما بذلت من جهود ستبدو وقحة طموحة متكبرة، وتنهال عليها شتى الاتهامات، فإذا لم تثابر يومياً على فرض نفسها، وتركت الوضع ينساق بما هو عليه، فسوف تتحول بكل سهولة إلى مجرد منظِّمةٍ لحجوزات الطيران والفنادق، وإدارة مثل هذه الشؤون، كموظفة مساعدة ليس إلا. على المرأة، في الجو العام وسط السياسيين، أن تبني موقعها بكل ثقة وبكل دأب. على الصعيد الشخصي، اضطروا إلى التعامل معي لأن لي خبرة ثلاثين عاماً من العمل في العلاقات الدبلوماسية الدولية والعلاقات العامة، فضلاً عن كفاءة لا يمتلكونها، وهي إجادتي عدة لغات أجنبية أجبرتني على تعلمها تجاربي في الحياة؛ كانت اللقاءات السياسية تتحول أحياناً على النحو

الآتي: يحضر زملائي في المكتب التنفيذي للمجلس الوطني، وليس معهم مترجم وهم لا يتحدثون لغات أجنبية؛ حين ينهي الزملاء كلامهم الذي تقع على عاتقي مهمة ترجمته ترجمةً فورية يعتبرون أن الحديث قد انتهى، فأضطر إلى تذكير الشخصية التي نقابلها بأنني هنا، بصفتي مسؤولة عن العلاقات الخارجية وعضواً في المكتب التنفيذي مثلهم.

عملت مع النساء أيضاً. وجدت مقاربتهن للثورة أسلم، وأكثر انفتاحاً، وأقلَّ تسيساً أو تحزّباً، وأقلّ تشنجاً من مثيلاتها لدى الرجال. لقد أبدين شجاعة فريدة. شعرت بخصوصية رؤيتهن ووضوحها، وبمقدار العمل الهائل الذي قد يستغرق عقوداً، ويجدر بهن القيام به، ليخرجن من هذا التهميش، ويغادرن الصفوف الخلفية، فالتيارات السياسية تضع مليون اعتبار قبل التطرق أخيراً إلى موضوع المرأة، مما يمنعها من الوصول إلى موقع مؤثر حقاً. تجربتي السياسية أشعرتني بحجم المشاكل التي عاشتها المرأة وتعيشها، وقد صارت صارخة الوضوح بعد ما كشفت عنه الثورات من خبايا ومفاجآت؛ ولسوف تتفاقم هذه المشاكل بقدوم أطراف متطرفة من خارج البلاد. عادة يبدأ التزمت بالإجهاز على الحرية أولاً، وفي مقدمة ضحاياه حرية التعبير وحقوق المرأة. اعتقدتُ عن خطأ أن تلك القضايا ثانوية، ربما لأنني عشت طويلاً في مجتمعات غربية لا تلاحظ فيها هذه الأمور ظاهرياً، والقانون يضمن تساوي الحقوق الكامل بين الجنسين. لم أفكر بنفسي كامرأة قبل الثورة.

عوداً إلى مجلس إسطنبول؛ كان مجلساً مصغَّراً، حاول أن يضم الحراك الثوري والتنسيقيات والشخصيات المستقلة التي تمثل مختلف المناطق

السورية، وكذلك الشخصيات المعارضة غير المعروفة لكنها بذلت جهوداً طويلة، وتفانت في مجال مهنها. انضمتْ إلى المجلس لاحقاً قوى المعارضة السياسية التقليدية، كالإخوان المسلمين وإعلان دمشق، وحاول الانفتاح على أحزاب وتيارات أخرى مثل هيئة التنسيق الوطنية التي رفضت الانضمام. حاولنا أن يتم تمثيل المجتمع السوري بمدنه ومناطقه بالدرجة الأولى، ما يتيح لتعددية البلد بالظهور، وتجسدها بكافة المكوِّنات-كيلا أقول الأقليات.

وجدت في نفسي المقدرة على المساهمة في بعض المجالات، ولا سيما في العلاقات الخارجية، وكذلك إعلامياً كمتحدثة باسم المجلس تعمل على تغطية أخبار الثورة مهنياً، من دون تحيز يساري المنحى أو إسلامي. وإلى هذا اليوم لا أزال أعتبر دعم الثورة بعيداً من دعم المعارضة، وأجد التمييز بينهما واجباً. المعارضة ليست عملاً، وشرعيتها تنبني على ما تقدّمه، وعلى ما تلبّيه من مطالب الناس. دورها يكمن في دعم الثورة وشبانها أولاً وأخيراً، إذ ليست هناك أية هيئة سياسية تستطيع أن تدعي أية صفة تمثيلية، أو أن تفرض أي رأي. لم أدخل العمل السياسي هنا باحثة عن موقع أؤمنه لنفسي في المستقبل، وأعتقد أن الثورة والشارع السوريين، بما قدماه من تضحيات أقرب إلى الأساطير، سينسفان بقوتهما كل من يتصدر واجهة المعارضة، وهذا ما حدث وما سوف يحدث، لتتوالى قيادات جديدة لا يطول بقاؤها. كلما ازدادت التضحيات ضعفت شرعية أي طموح سياسي، والائتلاف اليوم مثال يراه الجميع. مؤسف ما شهدناه من تدهور المجلس الوطني، أضعفه وخلخله الانهاكُ بخلافاته الداخلية، فضلاً عن كونه رهينة خلافات سياسية بين الدول، فالمسألة السورية مُدوَّلة منذ البداية.

حين تعسكرت الثورة، وكانت هذه العسكرة متوقعة، كان رأيي ألَّا يحاول المجلس التدخل بأي شكل مباشر من خلال التسليح، وإنما علينا العمل بالتنسيق مع القوى الموجودة على الأرض فيكون المجلس مظلة سياسية وطنية، وغير حزبية بأي شكل من الأشكال، لأن القيم والمطالب التي نادت بها الثورة لا يحتكرها أي تيار سياسي معين.

تواصلي مع جهات كثيرة ومختلفة من الناس، كشبكات الإغاثة والمجموعات النسائية والثوار والكتائب المنظَّمة، يمنحني رؤية أظنها سليمة وواضحة، بينما تبدأ الصورة بالتشوش عند مخالطة السياسيين. استقلْتُ من المجلس، لأن مواصلة العمل فيه فقدت الجدوى بالنسبة إلي. ما ضحيتُ بشيء، ولا شجاعة في خروجي ببضع عداوات. لست مناضلة، وما ادّعيتُ هذه الصفة. لكن المجلس تعطل بالخلافات بين أعضائه، ولم تتم الاستفادة من الكفاءات الكبيرة المتاحة بالشكل السليم، كما إنه لم يفلح، بوصفه إطاراً وطنياً جامعاً، في الارتباط مع القوى الثورية التي تسلحت، ولم يستطع أن يفرض على التيارات السياسية اعتبار الجيش الحر قوة وطنية أولاً. كانت علاقتي مرنة مع كافة القوى السياسية وأتقبل اختلاف الرأي. أشهرتُ انتقادي أمام الجميع ضمن المجلس، دون التعدّي على أحد. لم أصرّح بذلك عبر الإعلام، كيلا يفوز النظام بفرصة أن يرى خلافاتنا وانقساماتنا وعدم اتفاقنا. عاد علي ذاك الانتقاد بمشاكل إضافية، فاعتبر الأعضاء أنني كامرأة لا شأن لي بالأمور العسكرية. لم أوارب أيضاً في القول إن دورنا هو دعم القوى الوطنية المؤمنة ببرنامج سياسي ديموقراطي لمستقبل سورية، سيان أسميناه مدنياً أو محايداً تجاه الأديان. لم أغالِ في انتقاد المجلس. برأيي، لم يكن تعاملنا تعاملاً مسؤولاً مع المعطيات على الأرض. لم نكن إطلاقاً

على المستوى المرجو. استغرقتنا ساحات الإعلام، بينما كان في الداخل أولئك الذين يعملون بصمت، من دون أن يعرفهم أحد. لا يزال هناك من يوثّق ويغيث ويقاتل، من دون اكتراث بالظهور الذي أعمانا. لقد فشلنا في المجلس الوطني وفقدنا مصداقيتنا.

(كانون الأول ٢٠١٢)

خيبات تاريخية

آذار ٢٠١١. اتهم أطفال في ديريك بكتابة «يسقط بشار الأسد» على جدران مدرسة. اعتُقل العديد منهم عشرة أيام، وكان بينهم ابن أختي ذو الثلاثة عشر عاماً. ذهبنا نستقبله عند الإفراج عنه. عانقنا المسكين، مذعوراً باكياً، غير مصدق إطلاق سراحه. ظل عاجزاً عن النوم أياماً، ينهض من حضن أمه فزعاً في منتصف الليل، يصرخ خائفاً من أن يروي ما جرى، من شدة التعذيب والتهديدات بإخفائه تحت سابع أرض. عرفنا أنهم أجبروه، أول أيام اعتقاله، على الوقوف ست ساعات على ساق واحدة، ثم أبرحوه ضرباً وحولوه إلى القامشلي فالحسكة. أنا أيضاً اعتُقلت عشرة أيام، ولكن عام ٢٠٠٥. أعرف جيداً أن احتقار المخابرات للأكراد مضاعف. أتذكر بشاعة المعاملة التي تعرضت لها، من الحارس إلى المحقق وكل الذين تلاعبوا بفكرة

الشرف ليخيفونا؛ ما أفظع ما سمعنا وما أكثره؛ كم مرة قيل للمعتقلات إنهم سوف يفعلون «شيئاً ما» إن لم... لا يمكنني استرجاع تلك التفاصيل، ولا أرغب في الحديث عنها، ولا أحب ذكر أسباب الاعتقال. فمن أين، إذن، ستأتي الرحمة تجاه أمثال أولئك الجلادين؟ الخوف على الشرف يجعل المرأة ضعيفة، هذا الخوف استغله الشبيحة والأمن دائماً، بالأفعال والتلميحات، لإرغامها وإذلالها. لقد ضُربتُ وشُتمت وأُهنت. لم أتعرض لاعتداء جنسي، لكن دخول السجن بحد ذاته اغتصاب، وكذلك النظرات والمعاملة البشعة والمسبات. كنت خائفة من تحويلي إلى فرع فلسطين لأبقى سنوات هناك. أقرباء يعملون في التعهدات العقارية توسّطوا لدى محافظ الحسكة ومسؤول الأمن السياسي. لم أصدق إطلاق سراحي حقاً إلا حين رأيت أخي واقفاً عند باب السجن. عانقته بقوة وبكيت كثيراً في حضنه، على الطريق الطويل بين الحسكة وديريك.

لقد اعتدنا كأكراد التعرض للكثير من الخيبات والانكسارات والخذلان. كنا نساعد الثورات في الوصول إلى الحكم، كما حدث في العراق وإيران، وحين تستتب الأمور، وتقوى شوكة الثورة، ينقلب الآخرون ضدنا ويحرموننا من جديد. لطالما عشنا أناساً مهملين في المراتب الثانية. في كل حقبة من تاريخنا تقوم انتفاضة لا تلبث أن تُخنَق، من دون أن نصل إلى أية نتيجة. في انتفاضة القامشلي ١٢ آذار ٢٠٠٤، قُتل وسُجِن كثيرون. للأسف، بقينا أو تُركنا وحدنا. الانتفاضة طُمرت. اعتقل أكثر من ألفي شخص خلال ثلاثة أيام. واليوم، عُيِّن كردي نائباً لرئيس الائتلاف الوطني. إنه إجراء شكلي ليتقرر النظر لاحقاً في القضية الكردية. أما الأكراد، استناداً إلى تجاربهم السابقة، فلم يقبلوا بهذا الإرجاء. معظمهم يحلمون بإدارة ذاتية لمناطقهم، ويريدون

حكومة ديموقراطية، عبرها ستأخذ كل القوميات في سورية حقوقها. أرى أن هذا الاحتمال هو الأنسب والأعدل. شأن الأكراد شأن باقي السوريين، والمثال الأكبر على تقاسم المصير هو ما حصل في رأس العين، حين تشرّد آلاف الناس خلال أربع وعشرين ساعة، ففرّوا إلى تركيا. في بداية الثورة أقام إقليم كردستان العراق معسكراً للشبان الأكراد الفارين من الجيش السوري، أو المتهربين من الخدمة العسكرية، وأحدُهم أخي. كان بينهم كذلك الشبان الذين شاركوا في تنظيم التظاهرات، وهؤلاء كانوا يعتقلون عند مراجعة فرع الجوازات، أو على الحدود، أو في المطار والكراجات. كان جميعهم عرضة للاعتقال، والجميع يبحثون عن حلول لا يزالون ينتظرونها.

اللغة الممنوعة

لكلمة «الإحصاء» وقعها لدى الأكراد. تاريخ ميلادي الحقيقي مختلف عن التاريخ المدون في بطاقة هويتي. الفارق بينهما سنتان أضافهما إلى عقود عمري الأربعة موظفٌ في السجل المدني، غيّر أرقام اليوم والشهر والسنة، شأني في ذلك شأن باقي إخوتي، وهم ثلاث فتيات وسبعة شبان تخلّى أكبرهم عن الدراسة ليساعد أبي في أعمال متفرقة ويعيلنا. مثله عملتْ أختي الكبرى وعاونتْ أمي أيضاً. نشأنا جميعاً في أقصى شمال شرقي سورية، في مدينة ديريك، وهذا الاسم الكردي انقلب إلى «المالكية» في حملات التعريب التي قادها حزب البعث عقوداً من الزمن، وطالت أحياناً حتى تسمية المولودين. لم تكن التربية التي تراها أمي مثالية إلا شكلاً آخر من القسوة. بحسب نظرتها المثالية تلك (أو التربية بحسب الأصول)، كانت تفرق بيني وبين أخي، وإن كنا كلانا نعمل؛ ربما لأنها تربت بدورها

في منزلٍ الرجالُ فيه هم المعيلون وهم الأقوى، فكان عليّ كأخت إعدادُ الطعام من أجله، وإحضاره إليه، وغسل ملابسه بيدي، والقيام بخدمته. ظلت أمي، وقد تقدم بها العمر، تهب لتخدم أخي الصغير الطالب الجامعي حين يدخل المنزل.

والداي أمّيّان. إلا أننا في الفقر الشديد الذي كبرنا فيه اعتمدنا على أنفسنا. أكمل معظمنا الدراسة الجامعية، في الصيدلة أو علم النفس أو هندسة الكمبيوتر أو الفنون الجميلة...إلخ. درستُ الصحافة وتخرجت في كلية الإعلام، لكن خطاً أحمر تحت اسمي حرمني من التوظيف. لم أتمكن من الحصول على موافقة الأمن السياسي؛ وصرت، أنا المواطنة السورية، مثلي مثل أجانب الحسكة.

تفرحني الكتابة باللغة الكردية التي منعنا من استخدامها طويلاً. الكثير من الأكراد السوريين خريجي الجامعات وحملة الشهادات لا يعرفون الكتابة بلغتهم الأم. على الرغم من تعذر كتابتي لرأيي غالباً تحت حكم الأسدين، الأب والابن، لكنني خالطت أناساً من مختلف الطبقات، استمتعت بالاستماع إليهم، وحاولت نقل تجارب الناس إلى الورق. أكتب في الصحافة بحرية أكبر الآن، لكنَّ حدّةَ كتاباتي تشعرني دائماً بالخوف على من تبقى من أهلي وعائلتي في سورية.

الصرخات

حاولنا في عائلتنا تعويض الفقر بالتفوق الدراسي. الحاجة إلى المال اضطرتنا إلى العمل مبكراً، أنا وأختي الصغيرة. حاولت ما استطعت أن أعزز

بالاستقلال المادي حريتي التي وعيتُها باكراً. النساء عموماً في منطقتنا لم يكن يعملن؛ عملتُ في مراهقتي في زراعة وقطاف القطن على ضفاف دجلة. لي ذكريات مؤلمة عن تلك الحياة الشاقة. عملتُ أيضاً كممرضة، وظللت أخشى سماع ما سمعت في نهاية طفولتي، حين ولدت زوجة أخي ابنهما في المنزل، وهي تصرخ وتستغيث. صرخات الولادة تلك أفزعتني، ولا أزال أخشاها بعد كل ما امتحنتني به الحياة، وربما أبعدتني عن التفكير بالأمومة. أخشى تجربة مماثلة في المستقبل. أحب الأطفال كثيراً، وأنسجم معهم بسرعة، لكنني أحبهم لغيري لا لنفسي، وأنا قادرة على العيش من دونهم. حين أتذكر تلك الولادة تختلط الصرخات باستغاثات جارتنا التي كان زوجها يضربها، ولم أفهم دواعي ذاك الضرب. ربما المثالان كلاهما كرّسا نفوري من المرأة الضعيفة، الراضية بما يجري لها من دون أن تعصي أمراً. النساء شاركن في كل شيء، والجسارة لا تنقصهن. مثلاً، لماذا يتوجّب عليهن أن يتجنّبن الانضمام إلى الجيش الحر؟ ألم يتعلمن ولو القليل حول الأسلحة بعد دروس الفتوة في المدرسة!؟ الفتيات الكرديات شاركن في قوات الحماية الشعبية. لا يحتاج القتال إلى قوة خارقة. ليس صحيحاً ما يروَّج له أن المرأة مخلوق رقيق لا يتحمل الصعوبات. إذا كانت تُعتقل وتهجَّر، وتحمي أطفالها هاربة بهم عبر الأسلاك الشائكة إلى تركيا والأردن، وتتحمل عذابات اللجوء والانتظار أياماً على الحدود، ثم تنتظر في زحام الطوابير للحصول على خيمة في مخيم ستغرقه الفيضانات، فكيف إذن لا يمكنها أن تحارب!؟ النظرة الدونية التي لا تزال مسلطة على المرأة تغيّبها عن الجانب العسكري. من دون تلافي هذا التغييب لن تبرح الصفوف الخلفية في الثورة، الصفوف الأخيرة التي تلزمها بها العادات والتقاليد، لتغدو في

صدارة جبهة القتال، حيث مكانها أيضاً. الانتقاص نفسه ماثل في الطبقات كافة. كأن عليّ ملازمة المنزل وانتظار الرجل المخلّص، لأنني عاجزة عن رفع السلاح دفاعاً عن أهلي! لا ينبغي انتظار اللحظة المناسبة، لأن المعطيات الحالية لا تبشّر بأي تغيير، إذ سيكون هناك دائماً من يأتي ويقول في المستقبل: لماذا لم تطالبن بحقوقكن آنذاك؟ وأين كنتنّ أيام الثورة؟ ما تعاملت مع أحد من الطبقة السياسية في المعارضة، وشخصياً لم يطلني أي سوء أو احتقار من أحد، لكنني لا أحب الشخصيات العامة. محتِ الثورة كل الشخصيات المهمة من قاموسي. ليس ما ينقصنا النظرة المثالية، أو تأليه الأشخاص، بعد أن رأينا ما فعله رئيس دولة من تقتيل بشعبه.

كانت الثورة كالحرب من جهة التعامل مع المرأة، والمناضلون والثوار آراؤهم متناحرة. أحياناً أستغرب أحداثاً عادية، مثلما أستغرب منطق من يقول إن الحب يمنحنا دافعاً إضافياً قوياً لمواصلة الثورة. سمعتُ عن زواج مقاتل في الجيش الحر من ممرضة في مستشفى ميداني، ورأيته في الصور يذهب جريحاً إلى خطبة الفتاة. لماذا التفكير بالجنس أو الحب في مثل هذه الظروف؟ عائلتي المحافظة لم تكن لتقبل أبداً بأحاديث من قبيل العلاقات الجنسية قبل الزواج وما شابهها. إنهم لا يؤمنون بمثل هذه الأمور إطلاقاً. أما أنا فلي وجهة نظري في هذا الشأن. مثل أي إنسان مستقلّ ومعتدّ بنفسه، يحق لي فعل ما أريد والقيام بما يناسبني. لا أحب أن أجبر أحداً على شيء، على ألا يجبرني أحد بالمقابل على شيء أيضاً. ثمة مثال هنا في باريس حيث أعيش الآن: إذا لم يكن لك حبيب أو علاقة جسدية، فهذا يعني أنك غير متطورة، أو أنّ هناك خللاً فيك. أجد مثل هذه الآراء غريبة جداً، فما هي العلاقة بين تطور الإنسان وبين الجنس أو الكحول؟ لم أسأل أحداً في حياتي لماذا تشرب.

أطلب من الغير الاحترام والمعاملة بالمثل فقط. بالنسبة إليَّ، يستحيل القبول بشيء كالكحول يوقف عقلي ويشوشه، بل يخرجني عن إنسانيتي.

لم نعتد نحن السوريين أن نشهد مثل هذا الدمار والقتل والعصيان، لكننا في هذه الظروف اكتشفنا قوتنا أيضاً. استقللت عن أهلي، وعشت وحدي في دمشق خلال الثورة، قبل السفر إلى فرنسا. هنا، وإن كنتُ محاطة بالكثير من السوريين والأكراد الطيبين الدافئين، الوحدة كبيرة. وطأتها شديدة، والعيش صعب. لم أتعلم اللغة الفرنسية بعد، وهذا الجهل يشعرني بالضعف ويقلقني. حين أسمع بالصدفة من يتكلم اللهجة السورية يعود إليَّ الحنين نفسه، وأشعر بأنني أفتقد كل شيء هناك. قلت لهيئة التحقيق عند تقديمي طلب اللجوء في باريس، إنني أفضل العيش هناك في بلادي، أفضل المستحيل. لكنني لن أعود إليها إلا وأنا أقوى. أهلي أيضاً حثوني على الخروج حين لمسوا خطراً حقيقياً على حياتي. عائلتنا في شتات. تفرّق إخوتي، كلٌّ ذهب إلى مكان، ولم يبق من أهلي في سورية إلا والداي اللذان عشت معهما طويلاً. إنهما كبيران في السن، أبي مُقْعد، وأمي مريضة قصور كلوي، ولا تزال تعتقد أنني سأبقى الفتاة التي يعرفونها، المعتمدة على نفسها. تصلني أخبار الأهل عبر الإنترنت غالباً، وإن كنت أحاول الاتصال بهم أسبوعياً، لأن خطوط الهاتف مقطوعة في الحسكة، وخطوط الجوّال التركية لا تتوفر تغطيتها إلا بالقرب من الحدود. لقد ابتعدنا كثيراً، وبالتشرد الذي وصلنا إليه مثل أهالينا، وبما خسرناه عبر هذه المسافات، أشعر أحياناً أن كل ما يجري ليس إلا حلماً.

(كانون الأول ٢٠١٢)

المؤلف

جولان حاجي

شاعر ومترجم سوري كردي، مقيم في فرنسا.

تخرج من كلية الطب البشري في جامعة دمشق، حيث أكمل دراساته العليا في علم الأمراض.

فهرس الأعلام

فهرس الأماكن

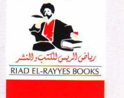


جولان حاجي

إلى أن قامت الحرب

هذا الكتاب عمل متعدّد الأصوات، رُواتهُ نساءٌ سوريات شاركْن في الثورة السورية، فشهدْن جمالَ بداياتها وما تلاها، ورأين الأمل والموت، وانهارت أمامهنّ المنازل والأمكنة في مدنهن وبلداتهن التي انتفضت ضد النظام السوري.

نساء شجاعات رأين الألم، دخل بعضهنّ السجون والمعتقلات، واضطر بعضهنّ الآخر إلى مغادرة البلاد. شهاداتهنّ لا تتغافل عن الجنسانية وحمل السلاح وخوض السياسة، ولا تتجاهل سطوة الأعراف والتقاليد التي ترسم حدوداً لهنّ ولأفعالهن، فيتحدثّن عما قُمن به وما عجزن عنه خلال هذه الثورة قبل أن تستحيلَ حرباً وتنكشف على درب الآلام مفارقات وتناقضات عديدة في الوعي والسلوك الفرديين والاجتماعيين.




ISBN 978-9953-21-623-2